المماليك والفرنج

في القرن التاسع الهجري ـ الخامس عشر الميلادي

تأليف

الدكتور أحمد درّاج

كلية الآداب — جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

القاهرة ١٩٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه صفحات من تاريخ العلاقات بين الدولة المملوكية والفرنج فى القرن الخامس عشر . وهى لا تعدو أن تكون صورة من صور العلاقات بين المسلمين والفرنج فى العصر الوسيط بما فيها من ألوان عديدة ، من محبة ومودة ، ومنفعة متبادلة ، ورعاية وتسامح أحياناً ، وأحياناً أخرى من كراهية وعداء ، وقسوة وعنف ، وتآمر وانتقام . وقد آثرت نقلها إلى القارىء كما هى ، حيةً ناطقة دون تحيز أو تعصب .

والتاريخ لا ينشر صفحاته المطوية من ظُلمات القرون لمجرد الذكرى ، وإنما للعبرة والتفكّر والاسترشاد بها فى الحاضر والمستقبل . ولقد مرت بالشرق العربى فى تاريخه المعاصر ظروف مماثلة لما مر به فى تاريخه الوسيط ، فما أحرانا أن نتلمس الهدى والتوفيق فى ضوء الماضى .

ولم أشأ أن أتصدى فى هذه الدراسة إلى وصف المعارك الحربية والغزوات والغارات الانتقامية ، أو إلى شرح العلاقات ذات الصبغة التجارية البحتة ، وذلك حرصاً على إيضاح السمات العامة لهذا العصر .

كما اقتضى الأمر إلحاقها ببعض الوثائق العربية والأوروبية التى أمكن الحصول عليها حرصاً أيضاً على وضعها بين يدى القارىء لكى يلمس روح العصر التى تسيطر على هذه الدراسة . ومن هذه الوثائق ما هو مطبوع ، غير أنها ليست فى متناول القارىء ، ومنها ما لا يزال مخطوطاً .

والله ولىّ التوفيق ؟

أحمد السيد دراج

الفصل الأول

طبيعة العلاقات بين المماليك والفرنج فى القرن الخامس عشر

يمثل القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى آخر مراحل الصراع بين الدولة المملوكية والفرنج فى الشرق الأوسط ، ومن ثمّ كان له فى تاريخ العلاقات السياسية بينهما مكانة متميزة ملحوظة .

فقد انتهى القرن الثالث عشر بتصفية الإمارات الصليبية وطرد الصليبيين نهائياً من فلسطين . وشهد القرن الرابع عشر رد الفعل لهذه النتيجة فى المعسكر الصليبى . وتمثّل ذلك فيما قامت به البابوية من الدعوة لتحريم الاتجار مع الدولة المملوكية ، مهددة بتوقيع قرارات الحرمان من الكنيسة على كل من يخالف أوامرها من تجار الفرنج . ولم تقتصر فى سبيل نجاح دعوتها هذه على مجرد إصدار أوامر التحريم وتوقيع قرارات الحرمان ، بل عملت على تنفيذها بقوة السلاح . فقامت بإعداد بعض السفن وتسليحها للتصدى فى عرض البحر لسفن تجار الفرنج الذين كانوا يتمردون على أوامرها وقراراتها .

وذلك أن الدعاة الصليبيين وقادة الفكر منهم كانوا يرون أن مجرد امتناع الفرنج عن المتاجرة مع الدولة المملوكية سيؤدى حتماً إلى حرمانها من المورد الرئيسى لثرائها وقوتها ، ومن ثمّ يتيسر أمر القضاء عليها عسكرياً . ومتى تم لهم ذلك أصبح أمر استعادتهم لمملكة بيت المقدس أمراً محققاً . ومعلومٌ أن تجارة المرور بين الشرق والغرب فى العصر الوسيط كانت تكون المورد الرئيسى للدولة بما كانت تجبيه من رسوم ومكوس وبما كانت تقوم به من وساطة تجارية .

غير أن هذه الدعوة لم يقدر لها النجاح ، لأن مصالح الجمهوريات الإيطالية التى انعقد لها لواء السيادة البحرية بالبحر الأبيض المتوسط وقتذاك قد تعارضت مع هذه الروح الصليبية ، كما طغى حب الكسب على الوازع الدينى[١] . هذا فضلاً عن الجهود التى بذلتها السلطات المملوكية من جانبها لتحطيم هذا الحصار الاقتصادى ، وذلك بما قامت به من الترحيب بتجار الفرنج وحسن معاملتهم فى بلادها ، ومنحهم الكثير من الامتيازات التجارية التى تضمنتها المعاهدات التى عُقدت مع دولهم وجمهورياتهم[٢] .

ولذلك عاد الدعاة الصليبيون إلى إحياء فكرة مهاجمة مصر عسكرياً . وقد اتجهت خطتهم إلى الاستيلاء على الإسكندرية والزحف منها إلى القاهرة، بعد أن فشلت خطتهم السابقة فى الهجوم على دمياط . وتمخضت دعوتهم عن الحملة التى قام بها بطرس الأول ملك قبرص ضد الإسكندرية فى عام ١٣٦٥ . غير أنه اضطر إلى الانسحاب من المدينة بعد بضعة أيام من احتلالها بمجرد أن اقتربت منها القوات المملوكية الزاحفة من القاهرة . وترتب على هذا الفشل القضاء على أية جهود جدية لتجهيز حملة صليبية أخرى فى نهاية هذا القرن[٣] .

وأما القرن الخامس عشر فقد شهد تحولاً ملحوظاً فى خطط الفرنج ومشروعاتهم الصليبية ، تحولاً تجلى فى ميادين عديدة ، وليس قاصراً على المماليك والفرنج فقط ، وإنما شمل الفرنج والمسلمين فى حوض البحر الأبيض المتوسط شرقه وغربه .

وأول هذه الخطط أن الفرنج بعد أن فشلت دعوى المقاطعة الاقتصادية وفكرة الهجوم على مصر ، رأوا القيام بعمليات التخريب الواسعة بالموانئ المصرية والشامية لشل الحركة التجارية بها . وبهذا تحولت القرصنة فى حوض البحر الأبيض إلى السلب والنهب والأسر ولم تعد سلاحاً من أسلحة الحركة الصليبية دعت إليه البابوية لتنفيذ فكرة المقاطعة الاقتصادية . ولهذا امتلأ القرن الخامس عشر بغارات القراصنة الكتلان، بالتعاون مع القبارصة وفرسان الاستبارية برودس على السواحل والثغور المصرية، والشامية، والتربص لسفن التجار المسلمين، مشارقة ومغاربة ، فى عرض البحر[٤] . واشتدت هذه الحملة وبلغت من العنف بحيث أدت إلى إذكاء روح الجهاد من جديد بمصر والشام ضد الفرنج . ودفعت السلطات المملوكية إلى التفكير الجدى فى الرد على العدوان بالعدوان ، وإلى ضرورة الاستيلاء على جزيرتى قبرص ورودس التى اتخذ القراصنة من أخوارهما أوكاراً لتعبئهم وتجمّعهم . ومن ثمّ كانت الغزوات الانتقامية التى قام بها المماليك ضد الجزيرتين ؛ هذه الغزوات التى انتهت باستيلائهم على قبرص فى عهد السلطان برسباى ، وبإخفاقهم فى غزو رودس فى عهد السلطان جقمق .

وأحيا غزو قبرص ، والتهديد بغزو رودس من وقت لآخر ، حماس الكتاب والدعاة الصليبيين من جديد ، فعادوا للتفكير فى مشروعات الحرب الصليبية العامة ضد الدولة المملوكية . غير أن هذه المشروعات قد اتجهت فى هذه الفترة إلى المحاولة الجدية لضم الحبشة إلى

الكنيسة الكاثوليكية وإلى تحقيق فكرة التحالف معها على القيام بحملة صليبية مزدوجة للإطباق على مصر براً وبحراً ومن الجنوب والشمال فى وقت واحد[٥] . ومما شجع الفرنج على تحقيق هذه الأهداف أن الحبشة قد أصبحت فى ذلك الوقت مسرحاً للحرب الصليبية نظراً لما كان يحدث من وقت لآخر من نشوب القتال بين ملوك الحبشة المسيحيين وملوك دول الطراز الإسلامية بها[٦] .

كما غدت الدولة العثمانية ، منذ بداية هذا القرن ، خطراً داهماً على أوروبا وذلك بعد أن ضمت بلاد البلقان إلى ممتلكاتها وأصبحت جيوشها تهدد وسط أوروبا . وهكذا دخلت هذه المنطقة فى الشرق الأوسط غمار الحركة الصليبيةمن جديد . ومن هنا ذهب الخيال ببعض دعاة الصليبيين إلى الدعوة لتكوين حملة صليبية عامة ضد العثمانيين والمماليك للإجهاز عليهم فى وقت واحد .

واشتدت هذه الروح الصليبية أيضاً بأسبانيا منذ منتصف القرن الخامس عشر مع بدء حركة القضاء على مملكة غرناطة آخر الممالك الإسلامية بالأندلس . وإزاء هذا الخطر الداهم هب سلاطين غرناطة يستغيثون بسلاطين المماليك طالبين النجدة والمعونة على مواصلة الجهاد .

وهذه الروح الصليبية أيضاً هى التى دفعت البرتغاليين إلى بذل الجهود الجدّية لكشف طريق للوصول إلى الهند وإلى الحبشة غير طريق البحر الأحمر ، وذلك لكى يتحقق لهم انتزاع تجارة الشرق

من يد الدولة المملوكية وتنفيذ المشروعات الصليبية بالتعاون مع الحبشة . وكان نجاحهم فى اكتشاف هذا الطريق فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر أحد عاملين رئيسين أديا إلى سقوط الدولة المملوكية .

ولم يكن هناك مناصٌ من أن تؤدى هذه الروح الصليبية العامة بالشرق والغرب إلى إذكاء روح الجهاد والوحدة والتضامن بين المسلمين فى جميع الجبهات : بمصر والشام ، وبالدولة العثمانية ، وبدول الطراز الإسلامية بالحبشة ، وبمملكة غرناطه ، وبالمغرب العربى . ولم يقتصر الأمر على مجرد الشعور بالوحدة والتضامن ، بل تعدّاها إلى العمل علي إحباط مشروعات الفرنج الصليبية وخططهم بقدر ما تسمح به ظروف كل من هذه الدول[٧] .

* * *

غير أن الأخطار التى كانت تتعرّض لها الدولة المملوكة من جانب الفرنج ، لمَ تقتصر على هذه الجبهة الخارجية فقط . وإنما كان هناك خطر داخلى لا يقل خطورة على كيانها من هذا الخطر الخارجى . وكان هذا الخطر يتمثل فى هؤلاء التجار[٨] من الفرنج الذين كانوا يترددون على أسواق مصر والشام ، أو الذين كانوا يقيمون بأراضيها، وفى قناصلهم[٩] الذين كانوا يشرفون على شئونهم التجارية بالمدن والثغور المصرية والشامية . وذلك لأن هؤلاء التجار والقناصل ، الذين كانوا يتمتعون بحرية الإقامة والتنقّل، كانوا عيوناً للبابوات وملوك

الفرنج ينقلون إليهم أخبار الدولة وأحوالها .

كما كان يتمثل هذا الخطر الداخلى أيضاً فى وجود طائفة الرهبان الفرنسسكان بالأراضى المسيحية المقدسة ، وكانوا جميعاً وقتذاك من الفرنج[10] . فهؤلاء الرهبان قد تطور بهم الأمر ، وخرجوا عن حدود رسالتهم الدينية وأصبحوا دعاةً وخداماً للفكرة الصليبية . فكانوا يقومون بتيسير الاتصال بين البابوات وملوك الفرنج وملوك الحبشة وذلك عن طريق الرهبان الأحباش المقيمين معهم بالقدس[11] . كما كان منهم الرسل والسفراء لدى ملوك الحبشة للاتفاق على تنفيذ المشروعات الصليبية[12] . وهكذا طغت عليهم الصبغة السياسية ، واضطرت السلطات المملوكية من جانبها ، عندما كانت تحيق بها الأخطار ، إلى أن تنظر إليهم من هذه الزاوية . فأصبحوا فى نظرها يمثلون من الناحية السياسية البابوية وأمم الفرنج ، وأصبح لهم وضع متميز عن وضع بقية طوائف الرهبان الأخرى المقيمة معهم بالقدس[13] .

وعلى الرغم من هذا الوضع السياسى الذى آل إليه أمر هؤلاء الرهبان ، فلم تكن من طبيعة هذه الدراسة التعرّض لهم حرصاً على قداستهم وحرمتهم . غير أن مجريات الحوادث السياسية طوال القرن الخامس عشر قد ارتبطت بهم ارتباطاً كبيراً لدرجة يتعذر على الباحث التفريق بينها وبينهم . فقد نشأ بينهم وبين اليهود بالقدس ، منذ أوائل هذا القرن ، نزاع حول تملك أحد الأماكن المقدسة فوق جبل صهيون . وتعدّى هذا النزاع الحدود المحلية وأكتسب صفة سياسية

دولية . إذ وقف البابوات وملوك الفرنج يساندون الرهبان ، كما قاموا باضطهاد اليهود بأوربا وتوقيع الغرامات المالية عليهم . وقام يهود أوربا بدورهم يساندون إخوانهم بالقدس[14] .

ويرتبط هذا النزاع بالمسجد القائم فوق جبل صهيون الذى عُرف بمسجد النبي داود . فقد كان هذا المسجد فى بادىء الأمر بيتاً لوالد يوحنا مرقص أحد تلاميذ السيد المسيح . وكان مكاناً مختاراً لاجتماعه بهم ، ولذلك ارتبط تاريخ هذا البيت بتاريخ السيد المسيح والحواريين . وكان هذا البيت يتكون من طابقين . بالطابق العلوى منه قاعتان ، قاعة غربية وهى التى كانت تعرف بالعُليّة والتى تناول فيها السيد المسيح العشاء الربانى الأخير الذى يرمز عند المسيحيين إلى سر القربان المقدس . وقاعة شرقية تُعرف بقاعة الحواريّين إذ أنها شهدت اجتماعه بهم بعد قيامه من القبر ، حسبما تذكر الرواية المسيحية ، كما كانت مقراً لاجتماعهم فيما بعد . ومن ثمّ كان تقديس المسيحين ، وخاصة الكاثوليك ، لهذا الأثر ، فأقاموا بالعُليّة كنيسة عُرفت بكنيسة عُليّة صهيون . ولا يهمنا فى هذا المجال ، من تاريخ هذه الكنيسة ، سوى أنه قد آل أمر رعايتها والقيام على خدمتها إلى طائفة الرهبان والفرنسسكان منذ عام ١٣٣٥ . كما سُمح لهم ببناء دير لهم يضم هذه الكنيسة المجاورة لها ، وبقية الأماكن المسيحية المقدسة المجاورة لها ، وهو الذى عُرف بدير صهيون .

وأما الطابق الارضى من هذا البيت ، فكان يوجد فى جهته

الشرقية قبو يضم قبراً ظل مجهولا لا يُعرف رفات من يضمه قروناً عديدة . غير أن روايات اليهود أخذت تتواتر منذ القرن الثانى عشر على أن هذا القبر هو قبر سيدنا داود عليه السلام . ثم أخذت هذه الروايات ، فيما بعد ، صفة الإجماع ، وخاصة بعد أن آلت رعاية كنيسة العُليّة إلى الرهبان الفرنسسكان . ثم انتقل اليهود فى نهاية القرن الرابع عشر إلى المطالبة بأحقيتهم فى تملك هذا القبو للقيام على رعاية قبر نبى الله داود . وهذا ما نجحوا فى تحقيقه ، فقد تمكنوا من إخراجه من أيدى الرهبان فى عهد السلطان المؤيد عام ١٤٢٠ ، وفى عهد السلطان برسباى عام ١٤٢٩ . غير أن الرهبان استطاعوا استعادته منهم عقب كل مرة .

وأخيراً رأى السلطان جقمق — حسماً لهذا النزاع ومحافظةً على قداسة المكان — إخراج القبو عن هاتين الطائفتين المتنازعتين ، وأن تكون رعاية قبر نبى الله داود بيد المسلمين . وقد اقتضى ذلك تحويل القبو إلى مسجد وإقامة قبلة به عام ١٤٥٢ . غير أن الرهبان لم يسكتوا على هذا الوضع ، فأثاروا هذا الموضوع فى عهد الأشرف إينال ، ومرة ثانية فى عهد الأشرف قايتباى ، ولكنهم لم يوفقوا فى استعادة القبو . كما لم تتح الظروف والأحوال السياسية الفرصة لهم فى السنوات الأخيرة من عهد الدولة المملوكية للعودة إلى إثارة مطلبهم .

إلا أن انتقال السيادة على الأراضى المسيحية المقدسة إلى العثمانيين قد شجع الرهبان وملوك الفرنج على إستئناف جهودهم فى هذا الصدد ،

مما أثار عوامل الحقد والكراهية من جديد بينهم وبين اليهود والمسلمين بالقدس . وقد أدت الحوادث التى وقعت بالقدس فى أوائل العهد العثمانى إلى تحويل كنيسة عُليّة صهيون هى وهذا المسجد الصغير بالقبو إلى ذلك المسجد الكبير الذى عُرف بمسجد النبى داود .

وهكذا اصطبغ النزاع على تملك هذا القبو بالصبغة السياسية . وعلى الرغم من ذلك فقد تحرّجت كثيراً فى بحثه وذلك لأن كل ما كتبه المؤرخون الأوربيون والآباء الفرنسسكان عن هذا الموضوع يتسم بالتعصب الدينى ويظهر السلطات المملوكية والعثمانية بمظهر المتجنى على حقوق الرهبان والمعتدى عليهم وعلى حرمة الأماكن المقدسة[١٥] .

كما أنه ليس لدينا سوى نص عربى وحيد عن موضوع النزاع على هذا القبو ، وهو رواية مجير الدين الحنبلى فى كتابه الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل . وفضلاً عن ذلك فروايته تقصر النزاع بين المسلمين والرهبان ، وهى مجرد رواية خبرية تقتصر على ذكر ما حدث من تنقل ملكية القبو وتخلو من عنصر الشرح والتأويل . وهى موجزة مقتضبة تُهمل التفاصيل وتُسقط تأريخ الحوادث فى عهد كل من السلطان المؤيد وبرسباى ، غير أنها مُسهبة فيما يختص بعهد كلٍ من السلطان جقمق وقايتباى ، إذ أنه كان قريب العهد بعصر جقمق وكان معاصراً لقايتباى[١٦] .

وأما المراجع العربية المعاصرة التى تؤرّخ لأحوال السلطنة المملوكية فلم تشر ، لا من قريب أو بعيد ، إلى هذا الموضوع على الرغم

من أن الفصل فى هذا النزاع ، وإن كان من اختصاص قضاة القدس، فإنه قد تعدّى صفته المحلية وأصبح على جانب عظيم من الأهمية فى نظر سلاطين المماليك . كما أن البتّ فى كل ما يتعلق بشئون الرهبان الفرنسسكان كان مرجعه إلى السلاطين أنفسهم ، وذلك لمدى الارتباط الوثيق بين كل مايمس حياتهم ووضعهم فى فلسطين وطبيعة علاقات الدولة المملوكية بالفرنج[١٧] .

غير أنى خرجت من هذه الدراسة مؤمناً كل الإيمان بأن الرهبان الفرنسسكان فى العصر الوسيط كانوا على الدوام محلاً لرعاية وحماية السلاطين والمسلمين بالقدس ، وفقاً لما تقتضيه الشريعة الإسلامية السمحاء وطالما كانوا لا يتخطون حدود رسالتهم الدينية . ومؤمناً أيضاً بأن ما تعرضوا له فى بعض الأوقات من إجراءآت تعسفية انتقامية ، وما حدث من إخراج القبو الذى يضم رفات سيدنا داود عنهم وتحويله إلى مسجد ، لم يكن إلا صدى لعلاقات الفرنج بالدولة المملوكية .

ويجدر بنا أن نقرر فى وضوح تام أن قداسة الأماكن المتعلقة بحياة السيد المسيح وسيدنا داود كانت فوق الأحداث. وأن السلطات الإسلامية ، عندما قامت بتحويل هذا الأثر إلى مسجد ، حرصت كل الحرص على رعايتها أشد ما تكون الرعايه . كما لم يعرف التعصب الدينى إليها سبيلا ، فسمحت لليهود بزيارة قبر نبى الله داود بالطابق الأرضى من المسجد ، كما سمحت للمسيحيين بزيارة العُلّية بالطابق

منه . وكل ما فعلته أنها حرّمت على الطائفتين إقامة شعائرهم الدينية بهذين المكانين تجنباً للفتنة[١٨] .

* * *

وانقضى القرن الخامس عشر دون أن يستطيع البابوات وملوك الفرنج تحقيق المشروعات الصليبية التى دعوا إليها ، إذ غدى تنفيذها وهماً من الأوهام . وإذا كان لها من أثر سياسى ، فإن الدولة المملوكية بعد أن اكتشفت خطط التآمر ضدها بين ملوك الفرنج وملوك الحبشة ، قد قامت بتشديد الرقابة على طرق الاتصال بين أوروبا والحبشة وعدم السماح للفرنج، سواء أكانوا تجاراً أم رهباناً أم رسلاً بالمرور عبر أراضيها فى طريقهم إليها . كما أن ملوك الحبشة قد تخلوا آخر المطاف عن هذه الروح الصليبية وآثروا عودة العلاقات الطيبة بين البلدين ورعاية المصالح المشتركة بينهما والتمسك الشديد بالرابطة التى تربطهم بالكنيسة القبطية[١٩] .

ولم يمنع الفشل المتلاحق فى بحث هذه المشروعات الصليبية من استمرار قراصنة الفرنج فى شن غاراتهم الإجرامية على الموانىء المصرية والشامية وعلى سفن المسلمين فى عرض البحر طوال القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر . ولم يكن سلاطين المماليك يملكون من وسيلة للمطالبة باستعادة أسرى المسلمين والأموال والمتاجر التى كانت تقع غنيمةً فى أيدى هؤلاء المتجرّمة سوى الالتجاء إلى تطبيق مبدأ المسئولية الجماعية إزاء قناصل الفرنج وتجارهم المقيمين بدولتهم .

فكانوا يأمرون بالقبض عليهم والتحفظ على أموالهم وبضائعهم . وأحياناً أخرى ، بعد أن تكون قد أعوزتهم السبل والوسائل ، كانوا يلجأون إلى القبض على الرهبان الفرنسسكان المقيمين بدير صهيون بالقدس ، وتهديد الفرنج بغلق كنيسة القيامة فى وجوه حجاجهم . كما كانوا يكلفون هؤلاء الرهبان بإرسال بعضهم كسفراء لدى البابوات وملوك الفرنج كنوع من الضغط السياسى عليهم .

والسلطات المملوكية كانت مجبرةً على الالتجاء إلى هذه الإجراءات لأنها لم تكن تتبادل التمثيل السياسى مع دول الفرنج وجمهورياتهم ، فليست لها مصالح خاصة بها تدعوها إلى ذلك . وإنما كان الأمر على عكس ذلك ، فهذه الدول وهذه الجمهوريات هى التى كانت تسعى بأموالها وتجارها وقناصلها إلى أسواق مصر والشام حرصاً على المكاسب الباهظة التى كانت تجبيها من الاتجار معها[٢٠] . كما أنها أرادت للرهبان الفرنسسكان أن يكونوا أداة لتحقيق الأهداف الصليبية فزجّت بهم فى هذا المعترك السياسى .

الفصل الثانى

١- المؤيد
٢- برسباى

المؤيد

ولنتابع الآن دراستنا لموضوع البحث فى ضوء هذا التفسير . فبعد انسحاب بطرس الأول ملك قبرص من الإسكندرية فى عام ١٣٦٥ أرادت الدولة المملوكية الرد على هذه الحملة بتوجيه حملة انتقامية ضد جزيرة قبرص ، غير أنها عجزت عن تحقيق هذا المشروع لافتقارها إلى أسطول قوى ، ونظراً لحالة الفوضى السياسية والاقتصادية التى كانت تعانيها البلاد فى هذه الفترة[٢١] . ولذلك فقد اكتفت بالانتقام من الجاليات الأوربية المقيمة بأراضيها . وكان الرهبان الفرنسسكان المقيمين بدير صهيون ممن تعرضوا لذلك الانتقام ، فألقى القبض عليهم جميعاً ، وزج بهؤلاء وأولئك فى سجون القاهرة حيث ظلوا بها ثلاث سنوات كاملة[٢٢] .

وبالاضافة إلى ذلك فإن الرهبان الفرنسسكان حرموا من بعض حقوقهم وامتيازاتهم التى كانوا يتمتعون بها كرعاية بعض الأماكن المقدسة والقيام على خدمتها ، وعُهد بها إلى غيرهم من طوائف الرهبان كالجورجان والأرمن . ومن هذه الأماكن عُليّة صهيون ، غير أنهم تمكنوا من استعادتها قبيل نهاية القرن الرابع عشر[٢٣] .

وجاءت الأيام بحادث جديد يزيد من روح الكراهية بينهم وبين المسلمين بالقدس . ففى عام ١٣٩١ قامت مناظرة دينية بين أربعة منهم وبعض شيوخ المدينة ، عرّضوا أثناءها بالدين الإسلامى . وكان

لا مناص من محاكمتهم وردعهم تجنباً لإثارة الفتنة بين المسلمين والمسيحيين، وخاصة الفرنج منهم. إلا أن بقية إخوانهم لم يرتدعوا، الأمر الذى أدى إلى تعرضهم لموجة من السخط الشديد كادت تهدد حياتهم. وقد سجل الرهبان هذه الأحداث فى خطابهم المؤرخ فى شهر نوفمبر من نفس العام إلى البابا كلمنت السابع بأفينيون، وفى خطابهم المؤرخ فى ٢ يناير ١٣٩٢ إلى طائفة التجار الكتلان بدمشق[٢٤].

وازدادت موجة الكراهية ضدهم فى أوائل القرن الخامس عشر وذلك بسبب الغارة على الإسكندرية وعلى الموانىء الشامية التى قام بها فى عام ١٤٠٣ المارشال بوسيكو Boucicaut الحاكم الفرنسى لجنوه بالاشتراك مع جانوس ملك قبرص وفرسان الاستبارية بجزيرة رودس[٢٥] وفي العام التالى تابع ملك قبرص والقراصنة الكتلان تعبثهم وتجرمهم، الأمر الذى أدى إلى اعتداء السلطات المملوكية على القبارصة من الرهبان الفرنسسكان[٢٦].

وأخذت غارات القبارصة والكتلان تزداد حدة، فرد عليهم المماليك بالإغارة على قبرص فى عامى ١٤١٠و١٤١١. ثم عادوا بعد ثلاث سنوات فأغاروا على الساحل الشامى جنوبى بيروت، ومن ثمّ عزم السلطان المؤيد على غزو الجزيرة. غير أن ملك قبرص سارع بعرض الصلح بمجرد علمه بالاستعدادات الحربية لذلك الغزو. فعقد الصلح بينهما فى ١٤ نوفمبر ١٤١٤، وكان من أهم شروطه تعهده بألا

يأوى القراصنة فى موانىء مملكته، وألا يسمح بالقيام بأى عمل من أعمال القراصنة ضد السواحل الشامية. وفى حالة ما إذا لجأوا إلى الموانى القبرصية، فإنه يتعهد بألا يقدم إليهم الزاد أو المأوى وأن يمتنع رعاياه من القبارصة عن شراء البضائع التى يستولون عليها ويجلبونها إلى الجزيرة. كما تم الاتفاق على فداء الأسرى المسلمين بالجزيرة الذين بلغ عددهم وقتذاك ثلاثمائة وخمسة وعشرون أسيراً[٢٧].

ولكن القبارصة والكتلان عادوا الاستئناف تجرّمهم فى العام التالى. فاضطر السلطان المؤيد إلى تطبيق مبدأ المسئولية الجماعية إزاء جميع تجار الفرنج وقناصلهم بالإسكندرية ودمشق، وعلى وجه التخصيص إزاء تجار الكتلان وقنصلهم بالإسكندرية الذين أمر بسجنهم بأحد أبراج القلعة.[٢٨] كما تعرض الحجاج الفرنج هذا العام لسوء المعاملة من جانب السلطات المملوكية بالقدس والرملة. ولذلك سارعت البندقية بإرسال سفيرٍ من قبلها لدى المؤيد يؤكد له براءتها من هذه الأعمال، ويطلب منه إصدار أوامره إلى نائبه بالقدس بعدم التعرض للحجاج بأى سوء، وأن يسمح بتعيين قنصل يمثلها بالقدس. وقد نجح السفير البندقى فى مهمته وعقد معه معاهدة مؤرخة فى ١٧ سبتمبر ١٤١٥ تضمنت جميع مطالب البندقية[٢٩]

وعلى الرغم من هذه الإجراءات الانتقامية فلم تتوقف غارات القراصنة بل اشتدت منذ عام ١٤١٦، وهو العام الذى وافق اعتلاء الفونسو الخامس عرش مملكة أرغونة. إذ فضلاً عن انتقام المؤيد

من جالية الكتلان وقنصلهم بالإسكندرية فقد دفعه حقده الشديد عليهم إلى إثارة موضوع قديم يرجع إلى عام ١٤٠٨ .

فى هذا العام كان قد أبحر من الإسكندرية أحد مراكب الكتلان يقل بعض التجار التونسيين إلى بلادهم . ولكن الكتلان اتجهوا بهم إلى برشلونة ثم باعوهم فى أسواق الرقيق واستولوا على بضائعهم وأموالهم . فسارع أقاربهم المقيمين بمصر بالشكوى لدي السلطان فرج ، ولكن فرجاً أصم أذنيه عن شكواهم بعد أن أقنعه قنصل الكتلان بالإسكندرية بعدم مسئوليته إزاء ما حدث .

ثم وجد المؤيد الفرصة مواتية لإثارة الموضوع من جديد بعد غارات القبارصة والكتلان فى عام ١٤١٥ ، فاستمع إلى شكوى التونسيين وأصدر أمراً إلى تجار الكتلان المقيمين بمصر و سورية بأن يدفعوا إليهم تعويضاً مالياً مقداره ثلاثون ألف دوكاه « العملة الذهبية لجمهورية البندقية » . ولكن قنصل الكتلان بالإسكندرية سارع، بمجرد علمه بهذا القرار، بإبلاغ مواطنيه بدمشق بوجوب الاسراع بمغادرة البلاد . وقد اكتشفت السلطات الملوكية هذه المحاولة للتخلص من دفع هذا المبلغ ، فاستدعت القنصل إلى القاهرة . وهناك حلت به نقمة السلطان الذى أمر بجلده بالسياط حتى أدمت ظهره ، ثم أمر بإعادته إلى الإسكندرية ليسجن فى سجنها . وعمّ الذعر والرعب تجار الكتلان فأسرعوا بمغادرة الإسكندرية ودمشق، وقامت السلطات المملوكية من جانبها بالاستيلاء على أموالهم وبضائعهم وفاء لهذا المبلغ [٣٠].

وقابل الفونسو الخامس هذا العنف بالعنف، فأمر القراصنة الكتلان الذين كان يستخدمهم لتحقيق أغراضه ومآربه السياسية بشن سلسلة من الغارات على السواحل المصرية والشامية [٣١] . ففى شهر ربيع الأول ٨١٩ مايو — يونيو ١٤١٦ أغاروا على نسطروه ثم على يافا وأسروا خمسين أسيراً من المسلمين ، ولم يطلقوا سراحهم إلا بعد أن افتدى كل منهم نفسه بخمسة عشر ديناراً . وفى نفس الشهر هاجموا ميناء الإسكندرية واستولوا على إحدى سفن المغاربة ، ولم يستطع أن ينج من ركابها سوى نفر قليل ألقوا بأنفسهم فى البحر وأخذوا يسبحون حتى وصلوا إلى الشاطىء [٣٢] . بل بلغت بهم الجرأة إلى أبعد من هذا . ففى ١٦ جمادى الثانى/ ١١ أغسطس رست ثلاثة سفن لهم بميناء الاسكندرية وأعلنت قدوم وفد من ثلاثة رسل للتفاوض فى عقد الصلح ، فرحبت السلطات بقدمها وسمحت لمن بها من التجار بإنزال سلعهم وبيعها وشراء التوابل . ولكن الكتلان انتهزوا هذه الفرصة وقاموا فى إحدى الليالى بتخليص قنصلهم من سجن الإسكندرية . وبعد أن تم لهم ذلك أغاروا على الميناء وأشعلوا النار بجميع ما كان بها من سفن مصرية ثم اشتبكوا فى قتال دموى مع قوات الميناء ومن كان بها وقتذاك من التجار ، فقتلوا عشرين منهم وأسروا نحواً من ستين من المسلمين من الرجال والنساء ، كما استولوا على سفينتين للجنوية وسفينة للبنادقة وسفينة أخرى للمسلمين كانت راسية بالميناء وأبحروا بها وبمن عليها من تجار إلى رودس [٣٣].

وتتابعت غارات الكتلان . ففى العام التالى أغار على الموانىء الشامية بدروسانتون Pedro santon أحد قراصنتهم الذى اشتهر بالشجاعة والجسارة والذى كان يتجرّم فى البحر بسفينته التى تحمل خمسمائة من أتباعه المسلمين[٣٤] . وفى ربيع الأول ٨٢٠/ إبريل — مايو ١٤١٧ أشيع بين أهالى الإسكندرية استعداد الكتلان لمهاجمة الثغر مرة ثانية ، فأخذ الأهالى بدورهم فى التأهب لملاقاتهم[٣٥] . وقد استمرت غارات الكتلان بالاشتراك مع القبارصة فى مهاجمة الموانىء المصرية والشامية ومراكب المسلمين فى المياه الشرقية بالبحر الأبيض المتوسط خلال الأعوام التالية ١٤١٨ و ١٤١٩ و ١٤٢٠[٣٦] .

ودعا هذا التجرّم البندقية إلى اتخاذ الاجراءآت الكفيلة بحماية قوافلها التجارية إلى بيروت والإسكندرية ، وإلى أن تقوم من جانبها بالسعى لدى فرسان الاستبارية والقبارصة لإطلاق سراح أسرى المسلمين ، حرصاً على سلامة الملاحة وخوفاً من أن ينزل بالبنادقة غضب السلطات المملوكية فتطبق مبدأ المسئولية الجماعية إزاءهم[٣٧] . ولكنها اتخذت من ذلك المسعى وسيلة للحصول لنفسها على ماتدفعه السلطات المملوكية من مال فدية لهؤلاء الأسرى مقابل ما كانت قد استولت عليه فى مناسبات سابقة من بضائع وأموال للتجار البنادقة . ثم أن مسعاها هذا اقتصر فقط على شراء أسرى المسلمين الذين لم يكن قد تم تعميدهم وتنصرهم .

وإزاء هذا المسعى المشوب بالحرص على المصالح الخاصة ، وبالحرص

على إرضاء الكنيسة، اضطر السلطان المؤيد إلى تطبيق مبدأ المسئولية الجماعية إزاء طوائف الفرنج تجاراً وقناصلاً ورهباناً[٣٨] .

ونحن لا نعرف على وجه التحقيق مدى الإجراءآت التى اتخذتها الدولة المملوكية فى أواخر عهد المؤيد إزاء الفرنج ، فالمراجع عربية وأوربية لا تشير إلى شيء من ذلك . ولكن عهد خلفه ططر ، القصير الأمد الذى لم يتجاوز سوى عام واحد ، سواء أثناء وصايته على ابن المؤيد أو منفرداً بالسلطنة ، مليء بحوادث الاحتكاك بينه وبينهم مما يدل على أنه كان يمثل إحدى مراحل النزاع . وفى هذه الحوادث ما يمس من غير شك موضوع الرهبان الفرنسسكان بدير صهيون .

هذا ولم يشر مؤرخ القدس مجير الدين الحنبلى ، كما ذكرت من قبل ، إلى تفصيل النزاع على القبو الذى يوجد به قبر داود عليه السلام فى عهد كل من المؤيد وبرسباى . هذا فضلاً عن أنه يحصر النزاع بين المسلمين والرهبان الفرنسسكان ولا يحدد تاريخ انتزاع القبو منهم . وحقيقة الأمر أن اليهود هم الذين انتزعوه من الرهبان فى عهدهما ، وأن أولى القضايا المتصلة بذلك حدثت فى عهد المؤيد فى عام ١٤٢٠ فى ظل الظروف السياسية السابقة الذكر[٣٩] . ثم توفى المؤيد وخلفه ابنه الطفل المظفّر أحمد وعُيّن ططر نظاماً للملك (محرم — شعبان ٨٢٤/ يناير — أغسطس ١٤٢١) . وسارع الرهبان بالسعى لاستصدار مرسوم على حكم ما بيدهم من مراسيم سابقة تؤكد إقرار مالهم من امتيازات وحقوق . إلا أن هذا المرسوم لم يصل إلينا ولا نعرف

ما إذا كان قد سمح لهم باستعادة القبو أم لا [٤٠]. غير أن الشواهد تدل على بقاء النظرة العدائية للرهبان وللفرنج وأن هذا المرسوم لم يغيّر من واقع الأمر شيئاً. فقد اندفع ططر بما عرف عنه من ترمت وتعصب ضد الفرنج إلى أبعد مما قام به المؤيد من تطبيق مبدأ المسئولية الجماعية إزائهم. فأصدر أثناء وجوده بدمشق مع السلطان الطفل مرسوماً حدّد بمقتضاه مدة إقامة جميع طوائف الفرنج في أراضي الدولة المملوكية بأربعة أشهر على أكثر تقدير. وهي المدة التي رآها كافية لإنهاء عملياتهم التجارية من بيع وشراء. والقصد من ذلك منعهم من الإقامة الدائمة بالبلاد تجنباً للأخطار التي تنجم عن تآمرهم مع القراصنة. فمن المعروف أنهم كانوا يمدونهم بالمعلومات عن التحصينات بالسواحل والموانىء، وعن أخبار وصول سفن التجار المسلمين ومغادرتها للموانىء، وعن استعدادات السلطات لمواجهة غاراتهم وتجرمهم في البحر. وقد أثار هذا القرار الذعر في صفوف جالياتهم فأسرعت بالاستعداد لمغادرة البلاد والإبحار منها إلى أوطانها [٤١].

وبادرت البندقية بمعالجة هذه الأزمة بما عرف عنها من خبرة ودراية بأحوال الدولة المملوكية، وبما توفر لها من مهارة دبلوماسية. فاتخذ مجلس الشيوخ في ٤ ديسمبر ١٤٢١ قراراً باختيار سفيرين أسند إليهما مهمة السفر إلى القاهرة لإقناع السلطان بإعادة النظر في ذلك المرسوم المجحف بمصالحها، ومطالبته باحترام الامتيازات التي كفلتها

لها المعاهدات المبرمة بينها وبين أسلافه. وفي نفس الوقت اتخذت الاجراءات الكفيلة بنقل بضائع رعاياها المكدّسة في الموانىء المملوكية خوفاً من مصادرتها. كما نصت التعليمات التي صدرت للسفيرين أنه في حالة إخفاق مساعيهما، يتعيّن التنبيه على رعاياها بالاستعداد لمغادرة الأراضي المصرية والشامية نهائياً، وحدّدت لذلك مهلة شهر واحد، وذلك تمهيداً لقطع العلاقات التجارية من جانبها. وجاء في هذه التعليمات جملة لها أهميتها الخاصة بالنسبة لموضوع الرهبان الفرنسسكان، إذ طلب مجلس الشيوخ منهما « أن يوصيا السلطان خيراً برهبان جبل صهيون وديرهم « Fratres Montis Sion et eorum mon asterium » وهي إشارة توضح ما حل بالرهبان الفرنسسكان في العام السابق وما حدث من انتزاع اليهود للقبو منهم [٤٢].

وكان ططر قد قام وهو بدمشق بخلع السلطان الطفل وانفرد بعرش السلطنة (شعبان – أوائل ذي الحجة ٨٢٤/أغسطس – أوائل ديسمبر ١٤٢١). وفي هذه الفترة القصيرة سعى الرهبان لديه لاستصدار مرسوم ثانٍ يحمل اسمه، غير أن هذا المرسوم قد فقد أيضاً، ولذلك فلا يمكننا الجزم بمعرفة تطورات الحوادث [٤٣].

وكيفما كان الأمر، فلم يكد السفيران يصلان إلى الإسكندرية، حتى علما بوفاته وتولية ابنه الملك الصالح إسماعيل وقيام برسباي بالوصاية عليه، وبينما كان السفيران في انتظار ما عسى أن تتمخض عنه الحوادث في هذه الفترة من فترات الانتقال في التاريخ المملوكي [٤٤]

نشط الرهبان الفرنسسكان فى سلطنة الملك الصالح إسماعيل و نجحوا فى استصدار مرسوم منه فى ١٢ ذى الحجة ٨٢٤/٨ ديسمبر ١٤٢١ . ويبدو أن رغبتهم فى تقرير إعفائهم من مبدأ المسئولية الجماعية فى حالة تعرض المسلمين لغارات قراصنة الفرنج كان الهدف الأول فى مسعاهم كما يدل على ذلك نص المرسوم . هذا فضلاً عن أن المرسوم ينص على عدم إلزامهم بما لم يُلزموا به شرعاً والوصية بهم ومنع من يتعرّض لهم بغير وجه حق[٤٥] .

برسباى

وانتهت فترة الوصاية على الملك الصالح ، التى لم تتجاوز ثلاثة أشهر تقريباً ، باعتلاء برسباى عرش السلطنة فى ٨ ربيع الثانى / أول أبريل ١٤٢١ . وفى أوائل الشهر التالى لسلطنته استقبل سفيرى البندقية ، وفى الثامن منه (٨ جمادى الأولى ـ ٣٠ إبريل) وافق فى خطاب أرسله إلى دوج البندقية ، رداً على الخطاب الذى سلمه له السفيران ، على الغاء المرسوم السابق الذكر الذى أصدره ططر ، كما وافق على إقرار جميع الامتيازات التجارية التى مُنحت للبندقية من قبل بمقتضى معاهداتها السابقة مع سلاطين المماليك،وعلى وجه التخصيص ، بمقتضى المعاهدة التى عقدت مع المؤيد فى عام ١٤١٥ . بل إن برسباى زاد على هـذه الامتيازات بما منحه للبنادقة من امتيازات أخرى ببعض المدن الشامية. ثم أتبع ذلك بإصدار عدة أوامر تنفيذية لوضع هـذا الاتفاق موضع التنفيذ . ولا يعنينا من هذه الأوامر ، سوى أمره إلى نائب القدس بالوصية بالرهبان الفرنسسكان وبدير صهيون[٤٦] . وأما القبو فلا نعلم على وجه التحديد ماذا كان مصيره ؟ وهل تعنى الوصية بالرهبان أن السلطان وافق على استردادهم للقبو من اليهود . وكيفما كان الأمر فإن الحوادث التالية تشير إلى أن القبو قد عاد إلى حوزة الرهبان .

ولم ينقض على ذلك الموقف الودى الذى وقفه برسباى ، رغبةً

منه فى حل هذه الأزمة وإنعاش الحركة التجارية مع الدول الغربية ، سوى ثلاثة أشهر حتى عادت العلاقات إلى التأزم بسبب غارات القبارصة والكتلان على مينائى الإسكندرية وبيروت فى شعبان ٨٢٥/ أغسطس ١٤٢٢ (٤٧) . وكانت هذه الغارات من الشدة والعنف بحيث تعذّر تقدير الخسائر فى الأنفس والأموال ، فضلاً عمن وقع فى أسر القراصنة من التجار والأهالي المسلمين الذين حملوا إلى جزيرتى قبرص ورودس ليقاسوا مرارة الأسر وعذابه إلى أن تقوم السلطات المملوكية بفدائهم أو إلى أن يباعوا فى أسواق الرقيق .

ولهذا أضطر برسباى إلى نقض اتفاقه مع البنادقة وإلى الردّ على هذا التجرّم بتطبيق مبدأ المسئولية الجماعية إزاءهم وازاء جميع طوائف التجار الفرنج(٤٨) : ولم يكن فى هذا الإجراء الانتقامى ما يُشفى الغلة ، أو ما يعوّض هذه الخسائر ، أو ما يضمن إعادة الأسرى من المسلمين ، ولذلك شمل انتقامه حجاج الفرنج ورهبانهم . فأمر بالقبض على ثلاثة عشر من الحجاج الذين كانوا بفلسطين وقنذاك وعلى جميع رهبان دير صهيون ، وكذلك على كلٍ من قنصل جنوه والبندقية بالقدس(٤٩) وبالإضافة إلى ذلك فقد أمر بغلق كنيسة القيامة(٥٠) . ولم يقبل شفاعة سفير فلورنسه فى إطلاق سراح هؤلاء الحجج والرهبان ؛ وكان هذا السفير موجوداً بالقاهرة وقتذاك يفاوضه فى إقامة أول علاقات تجارية بين بلاده والدولة المملوكية . ولكنه لم يلبث أن أمر بالإفراج عنهم ، وبإعادة فتح كنيسة القيامة بعد

تدخل البندقية لديه وتعهدها بالضغط على فرسان الاستبارية والقبارصة لرد هؤلاء الأسرى وما استولوا عليه من متاجر(٥١) .

ولم تستطع البندقية أن توفى بتعهدها ، بل إن القراصنة عادوا لاستئناف غاراتهم فى العامين التاليين(٥٢) . وفى هذه المرة صب برسباى انتقامه على القبارصة والكتلان فقط . فأما القبارصة فلم يجد فى دولته منهم سوى بعض الرهبان الفرنسسكان ، فأمر بالقبض عليهم وسجنهم(٥٣) .

ولم ير برسباى بداً من التفكير فى غزو قبرص باعتبارها وكراً من أوكار القرصنة(٥٤) .

وقد خشى الرهبان ، بعد إتمام فتحها فى عام ١٤٢٦ ، أن يتعرضوا للاضطهاد لما أثاره ذلك الفتح من إذكاء لروح الجهاد فى قلوب المسلمين وازدياد روح الكراهية للفرنج ، ولما أثاره أيضاً من اشتداد الروح الصليبية فى أوربا . لذلك رأوا العمل على تأمين أنفسهم وأموالهم وامتيازاتهم ، وساعدهم على بدء هذا المسعى ماتم من اتفاق بين برسباى وجانوس ملك قبرص على تبعية الجزيرة للدولة المملوكية وتقرير الجزية السنوية عليها . فى عام ١٤٢٧ جاء إلى القاهرة رئيسهم [الأفرا جوان باوكو الراهب كبير طائفة رهبان الفرنج المقيمين بالقدس الشريف ودير صهيون وبيت لحم وعين كارم] يسعى لتجديد المرسوم الذى سبق أن أصدره لهم برسباى فى أوائل سلطنته . ونجح مسعاه فأصدر مرسوماً ثانياً فى ٤ صفر ٨٣١/ ٢٤ نوفمبر ١٤٢٧ . وهذا المرسوم

يعالج بصفة عامة شئون دينهم ودنياهم ، ويعتبر صورة مكررة للمراسيم المملوكية السابقة الصادرة إليهم منذ عهد بيبرس . وهو إن لم يكن يتعرض ، على وجه التخصيص ، لموضوع قبر داود ، إلا أنه يؤكد حقهم فى كل ما لهم عادة به . فقد جاءت به هذه العبارة [.. ولا يعارضوا فى جميع مزاراتهم فى الأماكن التى لهم بها عادة ودخولهم وفعل شرائطهم وأعيادهم التى اقتضى(هكذا) دينهم ..[٥٥]].

إلا أنه لم يكد يمر على هذا المرسوم سنتان حتى نقض برسباى بعض تعهداته . ففى عام ١٤٢٩ جاء إلى القدس أحد أغنياء اليهود الأشكينازي Ashkenazi ، وهم يهود شرق أوربا ، واستطاع عن طريق بذل المال ، أو عن طريق الشراء كما تقول الرواية اليهودية ، إقناع برسباي فى تملّك ذلك القبو الذى يوجد به قبر داود[٥٦] . وقد أثار هذا القرار ثائرة الرهبان الفرنسسكان ، فسارع رئيسهم جوان بلوكو السابق الذكر بإبلاغ هذا النبأ إلى البابا مارتن الخامس . وقام البابا بدوره بإصدار منشور بابوى يحرم على المسيحيين نقل يهود أوربا إلى الأراضى المقدسة على سفنهم مهدداً المخالفين منهم بحرمانهم من الكنيسة . ثم قام جوان بلوكو بإبلاغ هذا المنشور ، بصفة خاصة إلى دوج البندقية للعمل على تنفيذه ، إذ أن البندقية كانت فى ذلك الوقت الميناء الذى يبحر منه الحجاج المسيحيون واليهود بأوربا إلى يافا ، وكانت تخصص سفينتين لنقلهم كل عام . وقد استجاب مجلس الشيوخ لهذا الطلب فأصدر فى جلسته المنعقدة فى ٤ يونيو ١٤٢٩

قراراً يحرّم على ربابنة سفن البنادقة نقل اليهود إلى فلسطين ويهدد كل من يخالف ذلك القرار بأن توقع عليه غرامة مالية مقدارها مائة دوكاه ، وأن يمنع فى نفس الوقت من حق قيادة أية سفينة[٥٧] .

هذا بالإضافة إلى ما أصدره بعض ملوك وأمراء أوروبا من قرارات انتظامية ضد اليهود المقيمين فى بلادهم . مثال ذلك ما أصدره فى ١٨ أكتوبر ١٤٢٩ لويس الثالث ، دوق كالابريا وأنجو ، وهو ابن جوانا الثانية ملكة نابلى وصقلية عن طريق التبنى ، من تقرير جزية مقدارها ثلث دوكاه على كل يهودى ، على أن يتضامن أغنياؤهم مع فقرائهم فى دفعها ، مع التهديد بتوقيع أقصى العقوبة على كل من يخالف هذا القرار[٥٨] . وفى نفس العام رفعت والدته جوانا الثانية مقدار الجزية إلى دوكاة واحدة على كل يهودى ، وخصصت هذه الأموال لتعويض الرهبان الفرنسسكان بدير صهيون عما لحقهم من أضرار[٥٩] .

ولم يكن برسباى مندفعاً فى تحيزه لليهود بما عُرف عنه من حب للمال كما تحاول إظهاره بهذا المظهر الرواية اليهودية ، وإنما كانت علاقاته السيئة وقتذاك بالفرنج عامة عاملاً رئيسياً فى اتخاذ هذا القرار . إذ أن مرسومه الخاص باحتكار تجارة البهار ، الذى أصدره فى محرم ٨٣٢/ أكتوبر ١٤٢٨ ، قد أدى إلى توقف العلاقات التجارية بينه وبين البندقية وجنوة ، وإلى توقيع الإجراءات الانتقامية المعتادة فى مثل هذه الظروف ضد التجار البنادقة والجنوية المقيمين بمصر

وسوريّة . وظلت هذه الأزمة قائمة حتى سويّت عن طريق المفاوضات
فى عام ١٤٣١/٨٣٤ ، بعد أن رأى كل منهم مدى ما أصاب مصالحه
التجارية من خسائر . وأما الـكتلان فكانت علاقاتهم التجارية معه
مقطوعة منذ عام ١٤٢٢ بسبب الغارات التى كان يشنها قراصنتهم
بالاشتراك مع القبارصة على الموانىء المصرية والشامية ثم انفرادهم
بهذا التجرّم بعد فتح قبرص هذا بالإضافة إلى أن الفونسو الخامس
ملك أرغونه قد قبل التعاهد مع اسحاق ملك الحبشة على القيام بحملة
صليبية مزدوجة يشترك فيها الأحباش والـكتلان ضد الدولة المملوكية.
وقد اكتشفت هـذه المؤامرة عند مرور رسول ملك الحبشة
وبصحبته رسل الفونسو الخامس بالقاهرة فى جمادى الأولى ٨/٣٢،
فبراير ١٤٢٩ وهو فى طريق عودته إلى بلاده . ثم اضطر الفونسو
الخامس، بعد فشل هذا المشروع وتحت ضغط الـكتلان الذين أصيبت
مصالحهم التجارية بأضرار جسيمة منـذ أن توقفت العلاقات بين
الدولتين ، إلى قبول وساطة رئيس الفرسان الاستبارية برودس لعقد
الصلح مع برسباى . وقد انتهت هذه المفاوضات بعقد معاهدة بينهما
فى ٧ رمضان ٨٣٣/ ٣٠ مايو ١٤٣٠ [٦٠] .

وفضلاً عن هذه الظروف فقد يسرت الأحوال الداخلية بالدولة
المملوكية ليهود أوربا أمر مسعاهم لدى برسباى . فكبير التراجمة
بالبلاط المملوكى وقتذاك كان مملوكاً من أصل يهودى قشتالى من
مواليد اشبيليّه يُدعى سايم . وقد جاء إلى القدس مع أبيه وهو طفل

ثم بعد وفاته بيع فى سوق الرقيق وأصبح أحد المماليك ، وتبع ذلك
اعتناقه الإسلام وتغيير اسمه . وفى الوقت الذي كان فيه الرحالة الاشبيلى
بيروطافور Pero Tafur بالقاهرة فى عام ١٤٣٥ كان لا يزال يشغل
هذه الوظيفة وعمره وقتذاك ما يقرب من تسعين عاما [٦١] . وهـذا
يدعونا إلى الاعتقاد بأنه كان يقوم أيضاً بمهام هذه الوظيفة فى عهـد
السلطان المؤيد . ومن المحتمل أنه قام بتيسير مهمة اليهود فى انتزاع
القبو الذى يوجد به قبر داود من الفرنسسكان فى عام ١٤٢٠ .

وكان منصب كبير التراجمة فى العصر المملوكى أشبه بمنصب وزير
الخارجية في عصرنا الحالى . فهو الذى يناط به مهمة استقبال الرسل
والسفراء والرحالة والحجاج الأوربيين الذين يفدون إلى القاهرة نظراً
لمعرفته باللغة اللاتينية واللغات الأوربية الأخرى ، فضلاً عن إلمامه
باللغة العربية والتركية بعد تحوله إلى حياة الرق والانخراط فى سلك
المماليك . وهو الذى يستضيفهم نيابةً عن الدولة فى قصره ، إذ لم
يكن يوجد بالقاهرة قناصل للدول الأوربية يتولون مهمة استقبالهم
واستضافتهم ، أو فنادق ينزلون بها كما كان الحال بالإسكندرية . وهو
الذى يقوم بعرض ما يحملون من رسائل إلى السلطان وترجمتها إلى
اللغة العربية أو التركية قبل تشرفهم بالمثول بين يديه حتى تتاح له
فرصة دراستها. ثم هو الذى يصحبهم إلى القصر بالقلعة حيث يستقبلهم
السلطان ويقوم بمهمة ترجمة الحديث المتبادل بينه وبينهم [٦٢] .

وكان له مساعدون من التراجمة يتولون مهمـة الترجمة والإرشاد

للرحالة والحجاج الأوربيين بالأماكن المقدسة التى يزورونها بمصر والشام . ويأتى فى مقدمة هؤلاء التراجمة ترجمان القدس الشريف الذى يتولى مهمة استقبالهم بيافا والقدس وإثبات شخصية كل منهم فى بطاقة خاصة ، ثم يرسل نسخة منها إلى كبير التراجمة بالقاهرة لعرضها على السلطان . وترجمان القدس فى الفترة التى آلت فيها ملكية القبو إلى اليهود كان يدعى نصر الدين وهو أيضاً أحد المماليك ممن ارتدوا عن دينهم الأصلى واعتنقوا الإسلام[٦٣] . وعلى الرغم من أن الرحالة المعاصرين لم يذكروا لنا شيئاً عن جنسيته وعن ديانته الأصلية قبل اعتناقه الإسلام ، فإنه يمكن القول بأنه كان من أصل يهودى أوربى كذلك ، بناء على دراستنا لمن كان يتولى منصب كبير التراجمة فى البلاط المملوكى فى القرن الخامس عشر ، إذ كان معظمهم من يهود أوروبا[٦٤] . وليس ثمّة شك فى أن نصر الدين هذا قام بدور فعّال فى إنجاح مسعى جماعة اليهود الاشكينازى بالتعاون مع سايم كبير التراجمه لدى برسباى .

* * *

وإثارة موضوع النزاع مرة ثالثة فى عهد جقمق فى عام ٨ ٦/١٤٥٢ تعنى أن الفرنسسكان تمكنوا من استعادة هذا القبو من اليهود للمرة الثانية . وليس لدينا أى نص صريح يحدد تاريخ إعادته إليهم سوى ما قرره فى عام ١٤٣١ ماريانو دى نانى دى سيينّا Mariano di Nanni da Sienna أحد الحجاج الإيطاليين[٦٥] من أن

هذا المكان كان بيد الفرنسسكان . ومن الجائز أن استرجاعهم له حدث فى نفس العام ، وذلك بفضل جهود البندقية أو جنوة بعد أن نجحت مفاوضاتهما مع برسباى لاستئناف علاقاتهما التجارية . ومما يؤيد هذا الرأى أن الرهبان كانوا قد انتهزوا عودة العلاقات الطيبة بينهم وبين السلطان ، وقدموا له التماساً لرفع ما ينزل بهم من مظالم على يد السلطات المحلية بالقدس . وبادر السلطان إلى العمل على تأمينهم ، فأصدر فى ١٣ جمادى الآخرة ٨٣٥/١٦ فبراير ١٤٣٢ مرسوماً إلى ولاة الأمور والمتصرّفين بالقدس والرملة وبيت لحم يقضى بمنع هذه المظالم وكف أسباب الضرر عنهم والوصية التامة بهم ، ومعاملتهم بمقتضى الشروط التى نصت عليها المراسيم السلطانية التى بيدهم[٦٦] . هذا وأن الرحالة الأشبيلى بيروطافور ، الذى زار دير صهيون فى عام ١٤٣٥ ، ترك لنا وصفاً تفصيلياً للدير ولجميع الأماكن المقدسة القائمة به . غير أنه لم يشر إلى وجود القبو فى يد الفرنسسكان أو فى يد اليهود[٦٧] ، ويعتبر صمته هذا دليلاً على استعادة الفرنسسكان له وإلا كان امتلاك اليهود له قد أثار انتباهه وملاحظته .

وكيفما كان الأمر ، فقد انقضت بقية عهد برسباى دون أن يحدث ما يثير شكوى الرهبان وتظلمهم ، كما أن السلطان كان كريماً معهم وحريصاً على الاستجابة لمطالبهم الخاصة بعمارة كنيسة عُلّية صهيون والدير . فعندما أنهوا إلى مسامعه أن بعض الأماكن داخل الكنيسة قد تشعّثت وأصبح يُخشى عليها من السقوط ، أصدر أمره

إلى نائب القدس فى ١٥ جمادى الآخرة ٨٣٩/٥ يناير ١٤٣٦ بتمكينهم من ترميم ما تهدّم منها وتلبيس داخل الكنيسة بالشّيد وتبليط أرضها . وقد قابل النائب هذا الأمر بالامتثال وأشرف على تنفيذه .

إلا أن هذا الترميم لم يكن كافياً لحفظ الكنيسة ، فقد تشعّث سقفها وتشقّقت حوائطها ، وتوقع الرهبان سقوطها ما بين وقت وآخر ورأوا ضرورة عمارتها عمارة كاملة . فتقدموا بسؤال إلى بعض الفقهاء هل يجوز لهم عمارتها بما يمنعها ويحفظها من السقوط أم لا ؟ وقد أفتى الفقهاء بجواز ترميمها وحفظها من الهدم ودفع ضررها الحاصل والمتوقع ، وأن الممنوع فقط هو توسيع خطتها والزيادة فى ارتفاعها . وبناءً على هذه الفتاوى سمح لهم بمقتضى المرسوم المؤرخ فى ١٧ شعبان ٨٣٩/ ٦ مارس ١٤٣٦ ، والموجه إلى رئيسهم [افراجا كموا دلفين ابن انطونى Fra Giacomo Delfini figlio di Antoni] بقيامهم ببناء الأجزاء المحتاجة إلى الترميم والعمارة ، وذلك بعد أن قام القضاة بإثباتها ومعاينتها . غير أنهم بعد أن أتموا ذلك ادعى عليهم أحد المسلمين أنهم قد أحدثوا عمارة جديدة بالكنيسة، فسارع مشايخ الإسلام بالتوجه إلى هناك وتأكدوا من أن الرهبان لم يقوموا إلا بإعادة بناء ما هدم وما يخشى سقوطه فقط ، ثم أثبتوا ذلك فى محضر مؤرخ فى آخر شوال/١٦ مايو ١٤٣٦[٦٨] .

وعلى الرغم من هاتين العمارتين ، فإن ما توقعه الرهبان قد حدث بعد ذلك بسنتين . إذ انهدم معظم سقف عُليّة صهيون الذى كان لا يزال

باقياً على أصله القديم ولم يبق منه إلا قطعة ظلت معلّقة ، كما انهدم أكثر حيطانها ، وسقطت خمس قلالى مما كان بالدير ، وخُلع بلاط أرضه وتهدمت عدة أماكن متفرقة بالسور الخارجى له . فكتب الرهبان بذلك قصة إلى السلطان أحالها إلى بدر الدين محمود العينى ، قاض قضاة الحنفية والناظر فى الأحكام الشرعية ، وجاءت فتواه بتاريخ ١١ جمادى الآخرة ٨٤١/١٠ ديسمبر ١٤٣٧ تجيز للرهبان إعادة بناء العُليّه وما انهدم من أماكن أخرى بالدير على هيئة ما كانت عليه أولاً بعد ثبوت معاينتها على يد شهود عدول وتحديد الأجزاء المحتاجة للبناء[٦٩] . وقد قام بعض الشهود بالقدس بإثبات ذلك فى محضر[٧٠] ، وصدّق على شهادتهم وعلى توقيعاتهم القضاة بالقدس وأثبتوا ذلك فى عدة محاضر شرعية[٧١] . وبمقتضى هذه المحاضر ورد مرسوم السلطان إلى القدس فى ١٥ رجب/١٢ يناير ١٤٣٨ يأذن لهم بالبدء فى عملية البناء[٧٢] التى انتهوا منها فى ٧ ذى الحجة من العام التالى/ ٢٠ مايو ١٤٣٩ . وعلى أثر ذلك توجه نائب القدس والقضاة الأربع إلى دير صهيون وتحققوا من أن البناء الجديد جاء مطابقاً لما كانت عليه العليّه والدير من قبل ووفقاً لما نصّت عليه المحاضر الشرعية السابقة[٧٣] .

وفضلاً عن الأهمية الدينية والسياسية لهذه الوثائق فإنها ذات أهمية أثرية خاصة . فقد حدّدت بصفة قاطعة تاريخ إعادة بناء

كنيسة عُليّة صهيون ، وكان بعض الأثريين يرجع ذلك ، بناءً على الشواهد والأساليب المعمارية التى روعيت فى بنائها ، إلى الفترة الأخيرة من القرن الرابع عشر على يد البنائين والصناع القبارصة الذين استقدمهم الرهبان لهذا الغرض(٧٤) .

الفصل الثالث

جقمق

يروى مجير الدين أن السلطان جقمق أمر فى عام ٨٥٦/١٤٥٢ ، وهو العام الأخير من حياته ، بالكشف على الأديرة والكنائس بالقدس وبيت لحم ، وعلى دير صهيون للرهبان الفرنسسكان على وجه التخصيص ، وذلك لهدم ما يكون قد استجد من بناء بها . كما أمر بإخراج القبو الذى يضم قبر سيدنا داود عليه السلام من أيدى الرهبان الفرنسسكان وتحويله إلى مسجد وأن يستقر أمره بأيدى المسلمين . وكان ذلك الاجراء بسعاية أحد شيوخ القدس(٧٥) .

ورواية مجير الدين ، كما سبق أن أوضحت ، مجرد رواية خبرية وتقتصر على هذا القدر البسيط من التفسير . غير أن المستشرق فان برشم Van Berchem تلقّف هذه الرواية وأخذ يدلل عليها تدليلاً مغرضاً لا يتمشى مع الحق والواقع ، ولا يهدف سوى أن يُدمغ جقمق بالتعصب الدينى الشديد(٧٦) .

غير أن تاريخ أهل الذمة بالقدس وخاصة الرهبان الفرنسسكان أثناء عهد جقمق ينقض هذا الاتهام من أساسه ، إذ كانوا على الدوام محل رعايته وحمايته وتسامحه . والأمثلة على ذلك كثيرة .

فاليهود بالقدس كانت تجبى منهم جزية الرؤوس بطريقة جماعية ، وكانت محددة بمبلغ ٤٠٠ دينار (أو دوكاه) سنوياً . إلا أن جقمق أصدر فى السنة الأولى من حكمه مرسوماً يقضى بجبايتها من كل فردٍ على حده ، الأمر الذى أدى إلى عودة كثير من اليهود إلى القدس بعد

أن كانوا قد اضطروا إلى مغادرتها بسبب هذا الإجراء التعسفي السابق[٧٧] .

وفى جمادى الثانية ٨٥٣/ أغسطس ١٤٤٩ أصدر مرسوماً بإلغاء الرسوم التى كانت تجبى من أهل الذمة بالقدس بمناسبة قدوم نائب جديد للمدينة[٧٨] . وفى العام التالى أصدر مرسوماً آخر بإلغاء ضريبة ضمانٍ كانت مفروضة على دير الأرمن[٧٩] .

غير أن فان برشم يفسر أيضاً هذين المرسومين تفسيراً مغرضاً ويربط بينهما وبين حملة الكشف على الأديرة والكنائس بالقدس فى عام ١٤٥٢/٨٥٦ . وهو فى ذلك التفسير يذهب مذهبين : الأول وهو أن السلطان بإصداره لهذين المرسومين كان يمهد للقيام بهذه الحملة، وأنه قصد أن يظهر فى ثوب السلطان العادل الراعى لأهل الذمة بالقدس حتى لايكون لهم أى مبررٌ للشكوى فيما بعد . أو أن الدولة كانت تأخذ باليسار ما كانت تعطيه باليمين، وأن السلطان لم يكن يهدف من وراء هذه الحملة سوى ابتزاز الأموال ، وذلك بأن يسارع أهل الذمةِ بالسعى لإلغاء هذه الاجراءآت عن طريق بذل المال[٨٠] . إلا أن هذا الدافع الأخير لا يتضّح من ثنايا ما ذكره المؤرخون عن حوادث عهد جقمق ، بل إن الاجماع منعقدٌ على تدينه الشديد وطهارة يده[٨١] .

وأما الرهبان الفرنسسكان فقد أسبغ عليهم جقمق رعايته منذ بداية عهده . إذ استجاب لرغبتهم فى إصدار مرسومٍ لهم ، على غرار المراسيم السلطانية السابقة الصادرة إليهم، لتوفير الأمن والطمأنينة

والعدالة لهم[٨٢] . كما أن المراسيم والحجج والمحاضر الشرعية التى صدرت فى عهده والتى سمحت لهم بترميم ديرهم ببيت لحم، وبترميم الدار الخاصة براهباتهم الكائنة بظاهر القدس فى عامى ٨٥٠- ١٤٤٦/٨٥١ - ١٤٤٧ لأكبر دليل على بطلان هذا التفسير[٨٣] .

وكل ما فى الأمر أن هذا التدين الشديد الذى عُرف به جقمق جعله يحرص كل الحرص على تنفيذ ما جاء فى عهد عمر بن الخطاب لبطريق بيت المقدس زمن الفتح العربي خاصاً بوضع أهل الذمة فى بلاد الإسلام . كما أنه يتضح من دراسة مجموعة الوثائق الخاصة بالرهبان الفرنسسكان، ولا سيما ما كان منها متصلاً بموضوع عمارة كنائسهم وأديرتهم ، أن الأمر فيما يتعلق بهم كان يختلف تمام الاختلاف عن المسيحيين الشرقيين . فهم بوصفهم من الأجانب ومن رعايا الفرنج، لم يكن مسموحاً لهم بالقيام بما يغيّر من حالة كنائسهم وأديرتهم أو عمارتها وترميمها إلا بعد موافقة السلطات المملوكية وبعد إصدار الفتاوى والحجج الشرعية من الفقهاء والقضاة التى تجيز لهم ذلك على الوجه الشرعى .

وجقمق لا يختلف عن غيره من سلاطين المماليك سواءٌ مَنْ سبقه أو مَنْ جاء بعده ، من حيث معاملته للرهبان الفرنسسكان حسبما تقتضيه الشريعة السمحاء من وجوب رعايتهم وحمايتهم وفى حدود ما يتمتعون به من امتيازات وإعفاءآت بمقتضى المراسيم الصادرة إليهم .

ويمكننا الجزم ، بناءً على هذه الشواهد وغيرها مما سيأتى ذكره فيما

بعد ، أن الكشف على دير صهيون وإخراج القبو الذى يوجد به قبر نبى الله داود من أيدى الرهبان الفرنسسكان لم يكن بدافع التعصب الدينى أو بدافع الكراهية لهم بوصفهم رهباناً ورجال دين .

وإنما حوادث القدس كانت موجهة ضد الرهبان الفرنسسكان على وجه التخصيص بحكم وضعهم السياسى الذى اكتسبوه بفلسطين، هـذا الوضع الذى طغى على وضعهم الدينى وعلى رسالتهم الدينية فأصبحوا يمثلون من الناحية السياسية طوائف الفرنج فى نظر السلطات المملوكية. وعهد جقمق بالذات شهد إذكاء الروح الصليبية واشتدادها وخاصة بعد فشل الحملات الثلاث التى وجهها لغزو رودس فى أعوام ١٤٤٠ و ١٤٤٣ و ١٤٤٤ (٨٤). وذلك أن نجاح الغرب فى الدفاع عن رودس ، التى كان يعتبرها آخر معقل للصليبيين فى شرقي البحر الأبيض بعـد غزو قبرص فى عهـد برسباى ، قد أحيا مشروعاته الصليبية ضد الدولة المملوكية وشجعه على التفكير فى الانتقال من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم. ثم أن فشل جقمق وفشل المجاهدين المسلمين في غزو الجزيرة التي كانت وكراً من أوكار القرصنة ضد السواحل والموانئ المصريه والشاميه كان من شأنه أن يزيد من روح الكراهية للفرنج . هذه الروح التى أخذت تذكو وتتأجّج بسبب تجرّم القراصنة المتزايد منذ أوائل عهده حتى وصل إلى ذروته فى السنوات الأخيرة منه .

وليس من قبيل الصدف أن تتوافق حوادث القدس مع ازدياد نشاط المتجرّمة فى البحر ضـد موانىء مصر والشام ، ومع تفكير الفرنج الجدّى فى القيام بحملة صليبية ضد الدولة المملوكية بالتحالف مع الحبشة . ثم أن المؤرخ المنصف لا يمكنه أن يغفل ما عُرف به جقمق من تدين شديد دفعه إلى هذا الموقف المتطرف بالنسبة لحوادث القدس . غير أنه من الإنصاف أيضاً أن نقول إن هذا التطرف قد دُفع إليه دفعاً نتيجةً للاعتداء المتواصل وللإثارة الشديدة من جانب الفرنج . أو بمعنىً آخر فإن هذه الحوادث يجب أن تفسرَّ فى ضوء الجو المعاصر المشحون بروح الكراهية الشديدة المتبادلة بين الفرنج والمسلمين .

* * *

فقد شجع توتر العلاقات بين الحبشة والدولة المملوكية ، البابوية وملوك الفرنج على العمل جدياً على ضم الحبشة إلى المعسكر الصليبي وإلى الكنيسة الكاثوليكية . فالحبشة هى التى قامت من جانبها فى عهد ملكها اسحق فى عام ١٤٢٧ بعرض فكرة التحالف مع ألفونسو الخامس ملك أرغونه لتكوين حملة صليبية مزدوجة . هـذا فضلاً عن أن علاقات كلٍّ من اسحق وابنه زرع يعقوب كانت متوترةً على الدوام تقريباً مع كلٍ من برسباى وجقمق . فما تكاد تعود إلى ما يجب أن تكون عليه من حسن الجوار ورعاية المصالح المشتركة بينهما حتى تتجدد عوامل النزاع والقطيعة بينهما التى كانت تسود العلاقات بين الدولتين فى العصر الوسيط (٨٥) . وعلى الرغم من أن

السلطات المملوكية كانت تعمل جاهدةً على منع الاتصال بين ملوك الحبشة والفرنج، فإن الفرنج كانوا على علمٍ تامٍ بتطور العلاقات بين الدولتين، وذلك عن طريق الاتصال بين الرهبان الأحباش والرهبان الفرنسسكان المقيمين سوياً بالقدس، أو عن طريق حجاجهم الوافدين إلى فلسطين وتجارهم الذين يترددون على أسواق مصر والشام. وكان الفرنج بالمرصاد لكل محاولة للتقارب بين الحبشة ومصر، وكانوا يتربصون الأوقات التي تحدث فيها القطيعة بين البلدين للعمل على تحقيق مشروعاتهم.

ففي ١٩ جمادى الأولى ٨٤١/ ١٨ نوفمبر ١٤٣٧ جاء إلى القاهرة رسول ملك الحبشة زرع يعقوب يرجو برسباى إعادة العلاقات الطيبة بين البلدين ويوصى بالنصارى وبكنائسهم، ويخبر بوفاة مطران الحبشة ويلتمس من السلطان أن يصدر الأمر إلى البطريرك القبطى باختيار خلفٍ له. وقد أجيب إلى طلبه وعاد الرسول وبصحبته مطران جديد للحبشة ورسول من قبل البطريرك(٨٦).

إلا أن العلاقات سرعان ما عادت إلى القطيعة بعد وفاة برسباى.

وانتهزت البابوية هذه الفرصة لدعوة زرع يعقوب للاشتراك فى مجمع فلورنسه الذى عقد فى عام ١٤٣٩ بقصد العمل على توحيد الكنيسة المسيحية. ونجحت فى مسعاها ذلك عن طريق الاتصال برئيس رهبان الأحباش بالقدس نيقوديموس Nicodemus الذى أوفد راهبين من الأحباش لحضور هذا المجمع. ويقال فى هذا الصدد

إن الراهبين وافقا على مبدأ توحيد الكنيسة المسيحية(٨٧).

وقد سارع البابا ايوجين الرابع إلى اتخاذ الخطوات الإيجابية لتحقيق هذه الوحدة، فأوفد فى نفس العام لدى زرع يعقوب أحد الرهبان الفرنسسكان يدعى البرتو داسارتانو Alberto de sartano. وجاء الرسول البابوى إلى القاهرة وتشرف بمقابلة السلطان ملتمساً منه أن يمنحه هو ورفاقه جوازاً للمرور إلى الحبشة. ولكن جقمق رفض إجابة طلبه، إذ أن السلطات المملوكية كانت قد قررت، منذ اكتشاف التآمر على سلامتها بين اسحق وألفرنسو الخامس، منع أى اتصال بين الفرنج والأحباش منعاً باتاً، يستوى فى ذلك التجار أو رجال الدين أو المبعوثون السياسيون. وهى بذلك تكون قد عادت إلى تطبيق المبدأ القديم الذى يقض بتحريم ارتياد الفرنج لمنطقة البحر الأحمر، وهو المبدأ الذى تقرر منذ أن قام البرنس أرناط صاحب إمارة الكرك الصليبية بحملته الأولى البرية فى عام ٥٧٧/ ١١٨١ على بلاد الحجاز، ثم بحملته الثانية البحرية فى العام التالى ضد ميناء عيذاب على الشاطىء الغربى للبحر الأحمر(٨٨).

ومن ثمّ عدل الراهب البرتو عن الوصول إلى الحبشة عن طريق مصر فغادرها إلى شبه جزيرة القدم، ومن هناك اتبع طريق طرابيزون والخليج العربى ثم البحر الأحمر. ولكنه توفى فى الطريق، وترك إتمام هذه المهمة لزميل له فى الرحلة، وهو راهب آخر من الفرنسسكان من مدينة فلورنسه يدعى توماسو Tommaso. ولم يقدر لهذا

الراهب هو ورفاقه دخول الحبشة ، إذ وقعوا أسرى فى يد السلطات المملوكية أثناء عبورهم البحر الأحمر ثم نقلوا إلى القاهرة حيث سجنوا بها ، ولم يطلق سراحهم إلا بعد أن افتدوا أنفسهم فى عام ١٤٤٣[٨٩] . وترتب على هذا الحادث أن أحكمت السلطات رقابتها على الطريق بين مصر والحبشة ، كما كان من شأنه أن يزيد روح العداء ضد الفرنج بصفة عامة وضد الرهبان الفرنسسكان على وجه التخصيص .

وعلى الرغم من هذه الرقابة الشديدة فقد وصلت سفارة أثيوبية إلى روما فى اكتوبر ١٤٤١ . وهناك استقبلها البابا ايوجين الرابع استقبالا حافلا ، ثم أصدر فى ٤ فبراير ١٤٤٢ مرسوم الاتحاد بين كنيسة الحبشة والكنيسة الكاثوليكية ، وعاد الرسل الأحباش إلى أكسوم وبصحبتهم رسولين من قبل البابا[٩٠] . غير أن مشروع الوحدة قد فشل عقب مناظرة قامت فى حضرة الملك بين أحد القسس الأحباش وأحد هذين الرسولين . وترتب على ذلك الفشل توقف جهود البابوية مؤقتاً بصدد توحيد الكنيستين وبصدد القيام بحملة صليبية مزدوجة مع الحبشة[٩١] .

وهذا الفشل يفسر رغبة زرع يعقوب فى إعادة العلاقات الطيبة بين البلدين ، وإرساله قاصداً من قبله على يديه هدايا وخطاب للسلطان تشرف بالمثول بين يديه فى يوم ٣ شعبان ٨٤٧/٦ نوفمبر ١٤٤٣ . فأما الخطاب فيفتتحه ملك الحبشة بالإشارة إلى عهود المودة بين

سلاطين المماليك السابقين وأسلافه، وأن القصد من سفارته هذه تجديد هذه العهود .

ويشفع ذلك بطلب الوصية بالمسيحيين ومعاملتهم بمثل ما يعامل به المسلمون فى بلاده ، وهم كثرة إذا ماقورن عددهم بالمسيحيين الموجودين بمصر . غير أنه يتبع هذا الرجاء بتهديد جرى ملوك الأحباش على التلويح به ضد مصر فى العصر الوسيط كلما تأزمت العلاقات بينهم وبين سلاطين المماليك . فيذكر أن النيل ينبع من بلاده وأنه باستطاعته منع مياهه عن أرض مصر ، ولكن لا يمنعه من ذلك إلا تقوى الله . وأخيراً يختتم خطابه بما بلغه من أن نائب السلطنة بالقدس منع الأحباش المقيمين بها من بناء عمارة لهم هناك ، وأنه يرجو السلطان أن يصدر أمره بالسماح لهم بعمارة ذلك المكان قياساً على ما رسم به للفرنج من قبل بالقيام بعمارة لهم بالقدس[٩٢] .

والخطاب معتدل فى أسلوبه ولهجته إذ يعتبر محاولة طيبة لإصلاح العلاقات بين الدولتين ، إلا أنه يضغط على السلطان بوسائل الضغط التقليدية التى كانت تلجأ إليها الحبشة على الدوام من التهديد بمنع مياه النيل عن مصر واضطهاد المسلمين بالحبشة وقتالهم . وكيفما كان الأمر فإن جقمق رفض جميع المطالب التى جاء ذكرها فى هذا الخطاب .

وأرسل جقمق رده على يد قاصدٍ مصرى . وقد أثار هذا الرفض ثائرة زرع يعقوب وعوّل على الانتقام من مسلمى الحبشة ، فأرسل جيشاً لقتال ملكهم شهاب الدين بن سعد الدين الذى مات شهيداً فى

ميدان القتال ، كما أنه لم يسمح للقاصد المصرى بالعودة . وأما جقمق فقد قام عندما بلغته هذه الأنباء ، باستدعاء بطريرك النصارى وأمره بعد أن هدده هو وجميع النصارى ، بأن يكتب إلى ملك الحبشة يطلب منه السماح بعودة القاصد وأن يكف عن قتال المسلمين . وإزاء هذا الضغط أذن زرع يعقوب للقاصد بالرحيل إلى القاهرة فوصلها بعد غياب دام أربع سنوات(٩٣) .

وهكذا لم تؤدى هذه السفارة إلى تحقيق الغرض المنشود ، بل أدت إلى ازدياد القطيعة بين البلدين . ووجد الفرنج فى ذلك الفرصة المناسبة لمواصلة جهودهم لدى ملك الحبشة ، فأسرع رئيس رهبان الفرنسسكان بدير صهيون جندولفو الصقلى Gandolfo de Sicile بإبلاغ البابا أخبار فشل هذه السفارة فى خطابه إليه المؤرخ بالقدس فى أول فبراير ١٤٤٤(٩٤) .

* * *

ولنترك إلى حين موضوع العلاقات بين الحبشة والبابوية لنرى صدى ذلك فى تطور العلاقات بين الدولة المملوكية والفرنج ، وبالتالى أثر ذلك بالنسبة للرهبان الفرنسسكان بالقدس . وليس ثمة شك فى أن هذه العلاقات قد أثارت فى مصر روح الشك والحذر من جانب الفرنج ، بل أدت إلى التفكير فى غزو رودس حتى يُحرم الصليبيون من آخر قاعدة لهم بشرقى البحر الأبيض المتوسط ، ومن ثمّ يتعذر عليهم القيام بأية حملة صليبية .

وكان جقمق قد بدأ عهده بداية طيبة بالاتفاق مع تجار الفرنج واستئناف العلاقات التجارية معهم بعد ما أصابهم على يد برسباى فى الأيام الأخيرة من حياته من سجن وتعذيب ومصادرة بضائعهم بسبب رفضهم شراء البهار بالسعر الذى حدده .(٩٥) وعلى الرغم من هذا الاتجاه الذى كانت تقتضيه مصلحة الدولة وحاجتها الملحة إلى المال ، فإنه عمل فى نفس الوقت على المحافظة على سلامة البلاد والقضاء على عمليات التجسس والتآمر عليها . ولذلك فقد أعلن فى عام ١٤٣٩ ، كما أعلن ططر من قبل ، بأنه لن يسمح لتجار الفرنج بأن يقيموا بدمشق والإسكندرية أكثر من ستة شهور ، وأنه لن يسمح لقناصلهم بهاتين المدينتين بأن يقيموا بها أكثر من عام واحد .(٩٦)

ثم رأى جقمق فى عام ١٤٤٠ ضرووة استغلال عنصر المبادأة بالهجوم للاستيلاء على رودس . وفى الواقع إن توتر العلاقات بين الدولة المملوكية والدول المجاورة لها بالشرق الإسلامى من تيموريين وعثمانيين وإمارات التركمان بآسيا الصغرى ، التى كانت تسير فى فلك هذه أو تلك من الدول الكبرى ، هو الذى صرف برسباى مرغماً عن طرق الحديد وهو محمىّ وتوجيه القوة البحرية التى مكنته من فتح قبرص لغزو رودس . ولهذا آثر عقد الصلح فى عام ١٤٢٧ مع فرسان الاسبتارية برودس عندما جاءوا إلى القاهرة يقدمون ولاءهم له ويتعهدون له بعدم حماية قراصنة الكتلان بجزيرتهم . ثم ساعدت سياسة الوفاق التى بدأها جقمق مع شاه رُخّ سلطان التيموريين ، ومراد الثانى سلطان

العثمانيين ، وغيرهما من أمراء التركمان ، على تهدئة الأحوال فى هذه الجبهة الشرقية (٩٧) . ومن ثمّ فقد انصرف إلى محاولة غزو رودس يريد أن يسطر فى صحائفه مجداً يضارع ماسطره برسباى من قبل. ولكن فرسان الاسبتارية كانوا قد استغلوا الفترة من عام ١٤٢٧ حتى عام ١٤٤٠ فى تحصين الجزيرة وإعدادها للدفاع وتنبيه الأذهان بأوروبا إلى نوايا الدولة المملوكية ، فانهالت عليهم المساعدات والأموال من كل جانب . ولهذا عجزت القوات المملوكية فى محاولاتها الثلاث عن الاستيلاء على رودس (٩٨) . ولسنا هنا بصدد الكلام عن هذه الحملات وإنما نريد بيان أثر ذلك الفشل فى تطور العلاقات مع الفرنج .

فبعد فشل الحملة الأولى صبّ جقمق جام غضبه في عام ١٤٤١ على الرهبان الفرنسسكان المقيمين بدير صهيون وبيت لحم ، فأمر بالقبض عليهم جميعاً وزجهم بالسجن . وسبب ذلك أنه وصل إلى علمه أنهم نقلوا إلى فرسان الاستبارية أخبار الاستعدادات الحربية لهذه الحملة . (٩٩)

كما تعرض تجار البنادقة بمصر والشام لانتقامه ، وذلك لأن أحد البنادقة كان قد اتجه أثناء هذه الحملة بسفينته إلى رودس وعليها أحد عشر من التجار المسلمين ذاقوا ذل الأسر وعذابه على يد فرسان الاسبتارية . فأصدر جقمق أوامره بمنع تجارهم بالإسكندرية من شحن بضائعهم كما فرض عليهم شراء البهار بأثمان مرتفعة ، ولمّا رفضوا ذلك أمر بالقبض عليهم . وقامت البندقية من جانبها تهدد بقطع علاقاتها معه إذا ما تمادى فى إجراءاته الانتقامية ضد رعاياها ، وإذا ما أصر على

الاستمرار فى تنفيذ قراره السابق بعدم السماح لتجار الفرنج بالإقامة فى أراضيه سوى أربعة أشهر من العام ولقناصلهم أكثر من عام واحد. إلا أن جقمق لم يخفه هذا التهديد بل تغالى فى انتقامه ، وأمر بترحيل تجارهم بالإسكندرية إلى القاهرة ليسجنوا بها، كما أمر بالقبض على تجارهم بدمشق وسجنهم بقلعتها. واستمرت هذه الأزمة قائمة منذ أواخر عام ١٤٤٠ حتى أواخر عام ١٤٤٢ إذ بدأت المفاوضات بينهما وقتذاك بفضل وساطة التاجر الفرنسى جاك كير Jacques Coeur ، الذى شهد عهد جقمق اتساع نشاطه التجارى بأسواق الدولة المملوكية وحظوته لدى السلطان. وقد انتهت هذه المفاوضات فى أوائل العام التالى بعد أن تعهد جقمق للبنادقة باحترام حرية التجارة وعدم إجبارهم على شراء البهار . (١٠٠)

وقد كان هذا درساً قاسياً للبندقية، إذ هى الدولة الوحيدة من دول الفرنج التى تعرضت مصالحها للخطر بعد الحملة الأولى ضد رودس . ولذلك فقد حرصت أثناء الحملة الثانية ضدها عام ١٤٤٣ على إظهار حسن نواياها للسلطان . ففضلاً عن امتناعها عن مساعدة رودس ، فإنها أصدرت أوامرها لقادة سفنها بعدم تعرضهم لسفن السلطان ، بل عليهم أن يتجنبوها بتجنب الإبحار إلى رودس فى هذه الفترة وهددت من يخالف منهم هذه الأوامر بتوقيع عقوبة الموت عليهم. (١٠١) كما رفضت أن تسمح بخروج السفن التى كانت تقوم ببنائها فى دار صناعتها لحساب دوق برجنديه وعدم تسليمها إليه حتى لا يرسلها إلى رودس للدفاع عنها . (١٠٢) وفى خطابها إلى البابا المؤرخ فى ٢٣ أغسطس

١٤٤٤ ، رداً على خطابه الذى لامها فيه بسبب هذا الموقف ، أوضحت لقداسته أنها لا تستطيع أن تعرّض رعاياها الكثيرين المقيمين بمملكة السلطان لخطر الموت وأن تضحى بهم من أجل مصالح الفرسان الاسبتارية . هذا فضلاً عن أنها كانت قد اشترطت على دوق برجنديه عدم استخدام هذه السفن ضد السلطان ، وألا يقوم بإرسالها إلى رودس ، وأن الدوق قد قبل هذا الشرط منذ بداية الأمر .(١٠٣)

وانتهت المحاولة الثالثة فى عام ١٤٤٤ بالفشل كالمحاولتين السابقتين ، وقُتل من قتل من المجاهدين المسلمين كما أُسر الكثيرون منهم . وكان على جقمق أن يتخذ من الإجراءآت ما يكفل له استرجاع هؤلاء الأسرى ، فاتجه إلى القدس الشريف قبلة الحجاج اللاتين ومحل إقامة الرهبان الفرنسسكان وأمر بالقبض على هؤلاء وأولئك وجىء بهم إلى القاهرة حيث سجنوا بها كرهائن .(١٠٤) وفى هذه المرة صب انتقامه على تجار الكتلان بالإسكندرية من بين طوائف تجار الفرنج(١٠٥) وذلك لأنه قد ثبت لديه إشتراك سفن الكتلان مع فرسان الاسبتارية فى الدفاع عن رودس.(١٠٦) إلا أن هذه الإجراءآت لم يطل مداها ، فقد نجح التاجر الفرنسى جاك كير للمرة الثانية فى إقرار الصلح بينه وبين فرسان الاسبتارية فى العام التالى .(١٠٧)

* * *

وإذا كان جقمق قد تجرّع مرارة هذه الهزائم المتتالية فإنه تعزّى عنها بأخبار انتصارات السلطان العثمانى مراد الثانى ضد المجريين .

ولا سيما أن أخبار هذه الانتصارات جاءت مقرونة بأن الصليبين كانوا عازمين ، فى حالة انتصارهم على العثمانيين ، على مواصلة الزحف عبر الأراضى العثمانية حتى بيت المقدس لينتزعوه من المسلمين .

ففى ١٦ شوال ٨٤٨/٢٦ يناير ١٤٤٥ ورد الخبر إلى القاهرة بانتصار مراد الثانى على هنياد Hunyade ملك المجر فى موقعة ورنه warna (نوفمبر ١٤٤٤) بعد قتال عظيم استشهد فيه من العثمانيين أكثر من عشرة آلاف أنفس وقتل من المجريين عدد مماثل ، كما قُتل مليكهم وأسر عدد كبير منهم . ثم وصل قاصد من قبل السلطان العثمانى فى ١١ ذى الحجة / ٢١ مارس لإبلاغ نبأ هذا الانتصار إلى جقمق وبصحبته ستة عشر أسيراً من كبار الأسرى هدية له مع غيره من الهدايا الأخرى التى قدمها إليه ويضيف السخاوى معلقاً على هذا النبأ [أن الكفار كان لهم مدة فى التجهز لأخذ بلاد السواحل من المسلمين والتوكل لى الاستيلاء على بيت المقدس والعياذ بالله .. ورام ابن عثمان بإرسالهم أن يعتبر السلطان وعسكره ويعلموا أنهم هم الفرسان الشجعان والرجال الأبطال(١٠٨) .]

ورواية النبأ على هذه الصورة من شأنه أن يثير فى نفس جقمق مرارة الحسرة على فشله فى أن يتوّج حياته بغزو رودس ، وأن يثير فى نفسه أيضاً بواعث الانتقام . وكيفما كان الأمر فإننا لا نجد فى المراجع العربية المعاصرة أى أثر لهذا الشعور أو لهذه البواعث .

وإنما نجد هذا الذى نبحث عنه فى خطاب أرسله رئيس دير رهبان

الاسبتارية القائم على ضفة نهر الأردن إلى البابا ايوجين الرابع فى عام ١٤٤٥ . إذ جاء فى هذا الخطاب أن انتقام جقمق لمن استشهد من إخوانه فى الدين من العثمانيين فى هذه الحرب دفعه إلى محاولة هدم قبر السيد المسيح وهدم كنيسة القيامة وقتل جميع الرهبان الذين يقومون بالخدمة داخلها . فأرسل فى اليوم السادس عشر من أغسطس خمسمائة من المماليك بقصد تنفيذ هذه المهمة . ولكن لم يكد هؤلاء المماليك يدخلون الكنيسة ويلمسون بمعاولهم أحجار القبر المقدس حتى فقدوا أبصارهم . وأما من ذهب بهم التهور إلى أبعد من هذا الحد وواصلوا إتمام مهمتهم على الرغم من فقد أبصارهم ، فقد صعقوا فى لمح البصر . وخرج من بقى منهم على قيد الحياة مذعورين كالأسود الهائجة لا يستطيعون أن يتبيّنوا طريق عودتهم ، مما أثار الرعب والفزع فى قلوب المسلمين من أهالى القدس . وعلى الرغم من ذلك ، فلم يكن هذا العقاب السماوى كافياً لردع السلطان ، فأرسل مرة ثانية عدداً من المماليك ضعف من أرسلهم فى المرة الأولى ، غير أنهم لاقوا أيضاً نفس المصير . وأخيراً جاء السلطان بنفسه لينفذ ما صمم عليه . إلا أنه لم يكد يخطو بقدميه داخل الكنيسة حتى وجد نفسه وقد فقد بصره . ولم يرتد إليه بصره إلا بعد أن دعا الله وأقسم بأغلظ الأيمان على رعاية وحماية الأماكن المسيحية المقدسة ، ثم تقدم بكل خشوع وقبّل قبر السيد المسيح وقدّم النذور للكنيسة[١٠٩] .

وهذه الرواية ، فضلاً عن مغالاتها ومجافاتها لروح الدين الإسلامى

لا تتفق مع ما عرف به جقمق من تدين وتقوى . ويكفى دليلاً على دحضها أن السلطان لم يغادر القاهرة إلى الشام إطلاقاً أثناء سلطنته ، ومثل هذه الرحلات السلطانية إلى الشام لم يغفل المؤرخون أمرها .

وليس أقوى ولا أبلغ من الرد على هذه الافتراءآت الباطلة التى يحاولون إلصاقها بالسلطان جقمق ماتشهد به الوثائق الخاصة بالرهبان الفرنسسكان الصادرة فى العامين التاليين لهذا الحادث المزعوم ، عن مدى تقواه ومدى التزامه جانب الحق وجانب الشريعة المطهرّة السمحاء فى معاملتهم ، ومدى حرصه الشديد على المحافظة على كنائسهم وأديرتهم . وهذه الروح التى عرف بها حقمق ، نلمسها أيضاً لدى المسئولين من رجال الحكم بالقدس الشريف فى عهده ، والناس كما يقولون على دين ملوكهم . فلم يحدث قط أن امتنع السلطان أو أحد رجاله ، من الأمراء أو الفقهاء، عن الاستجابة لأى مطلب للرهبان طالما كان هذا لا يتعدى حدود الشريعة الإسلامية ، أو عن تأمينهم وتحقيق العدالة إزاءهم .

والوثائق فى هذا الصدد كثيرة . ففى ١٨ رجب ٨٥٠/١٩ أكتوبر ١٤٤٦ أجاز ناظر الحرمين الشريفين وقاض القضاة بالقدس لرئيس الرهبان بدير صهيون و دير بيت لحم ترميم بعض الأجزاء المتداعية فى حوائط صبرة الزيتون التابعة لهم بقرية بيت لحم كما كانت عليه أولاً من غير زيادةٍ وأسوةً بالبناء القديم[١١٠] .

وبعد ذلك ببضعة أشهر رفع الرهبان قصة إلى السلطان أنهوا فيها إلى مسامعه أن بعض الأماكن بدير بيت لحم قد تخربت وتهدمت بسبب كثرة الأمطار والأهوية وأنهم يخشون من طارق يتوصل منها إلى داخل الدير . وأنهم كانوا قد أبلغوا ذلك إلى النائب والقضاة بالقدس الذين بادروا بإرسال المهندسين لمعاينة ما تهدم من الدير . كما ذكروا أيضاً أن شخصاً من بيت لحم قد وضع يده على قطعة أرض ملاصقة للدير ومن جملة حقوقه ، كانوا ينتفعون بها فى زراعة ما يلزمهم من الخضروات . ثم أشاروا إلى بعض ما أُستحدث عليهم من مظالم مالية مما لم تجر العادة بجبايتها منهم من قبل، وأن بعض المسئولين يقصد تغيير الترجمان المعيّن لخدمتهم وقضاء مصالحهم دون ما ذنب أو جريرة ، ودون أن يثبت عليه ما يدينه ، وإنما بقصد ابتزاز المال منهم . والتمسوا من السلطان الإذن لهم بإعادة بناء ما تهدم من الدير ، ورفع هذه المظالم عنهم . فأصدر السلطان مرسوماً فى ١١ ذى القعدة ٨٥٠/ ٢٨ يناير ١٤٤٧ إلى الشيخ عبد الرحمن الديرى ناظر الحرمين الشريفين يكلفه بالتحرى عما جاء فى هذه القصة . وقد جاء فى المرسوم هذه العبارة التى لها دلالتها الكبرى [ومرسومنا للمجلس العالى أن يتقدم بالركوب بنفسه ويتوجه إلى الدير المذكور ويكشف الأماكن المذكورة ويعمل فيها ما يقتضيه حكم الشرع الشريف وبرآءة ذمة المجلس العالى عند الله عز وجل ، فإننا نتحقق دينه وخيره وجودته والقصد من ذلك العمل بما تقتضيه الشريعة المطهرة] . [١١١]

وما أن وصل هذا المرسوم إلى الشيخ الديرى حتى بادر بالتوجه لمعاينة ما تهدّم من الدير وأصدر أمره إلى الرؤساء والفلاحين بقرية بيت لحم بتمكين الرهبان من إعادة بنائه على الوجه الشرعى ، وبتسليم قطعة الأرض الملاصقة للدير التى ثبت أنها من حقوقه إلى رئيس الرهبان ، وبكف أسباب الضرر عنهم ثم ثبت ذلك كله فى ثلاث محاضر مؤرخة فى ١١ صفر ٨٥١/ ٢٨ ابريل ١٤٤٧ ، وفى ٢٣ صفر/ ١٠ مايو ، وفى ٢٣ ربيع الأول / ٢٩ مايو [١١٢] .

ومن هذه الوثائق أيضاً ما يدل على مدى تمتع الرهبان بالأمن والطمأنينة فى رحاب عدالة القضاء الإسلامى . مثال ذلك الحكم الذى أصدره لصالحهم فى آخر شهر صفر من نفس العام قاضى القضاة فى إحدى القضايا التى رفعوها ضد أحد الأهالى بالقدس [١١٣] .

وحدث أيضاً فى أواخر هذا العام أن تهدمت بفعل السيول بعض الأماكن بالحائط الشمالى بدير النسوة راهبات الفرنج ، القائم بظاهر القدس تجاه دير أندرياس . وقد طالبت رئيسة الراهبات قاض القضاة الشافعى السماح لها بإعادة بنائه كما كان أولاً ، كما طالبت أيضاً بترميم الحائط القبلى الذى يخش سقوطه ، وذلك حتى يحصل لها ولزميلاتها المقيمات معها بالدير الأمن على أنفسهن وعلى أمتعتهن من السرّاق . وبعد أن تمت معاينة بعض الشهود لحالة الدير وافق قاضى القضاة بمقتضى المحضر المؤرخ فى ١٩ ذى الحجة / ٢٥ فبراير ١٤٤٨ على ترميم الحائطين على الوجه الشرعى [١١٤] . وبعد

ذلك بيومين صدّق نائب القدس ، الأمير تمراز على هـذا المحضر وأصدر مرسوماً بتمكينها من تنفيذ ذلك وعدم التعرض لها(١١٥) .

* * *

وأما العلاقات بين زرع يعقوب وجقمق فقد ازدادت توتراً عن ذى قبل ، بل إن زرع يعقوب عاد إلى تنفيذ مشروع أبيه اسحق من التحالف مع الفرنج للقيام بحملة صليبية عامة ضد مصر .

فالحرب التى شنها ضد المسلمين بالحبشة استمرت بضع سنوات واستشهد فيها ملكهم بدلاى بن سعد الدين وعـدة آلاف منهم(١١٦) .

وتردد صدى كل ذلك بأوروبا . إذ كتب حنّا دى لاستيك Jean de Lastic رئيس فرسان الاسبتارية برودس إلى شارل السابع ملك فرنسا فى ٣ يوليو ١٤٤٨ يخبره بما وصل إلى علمه من أنباء القتال بين المسيحيين والمسلمين بالحبشة ، وهى أنباء صحيحة قام بترجمتها إليه مترجم موثوق به . وتتلخص هذه الأنباء فى أن المسلمين قد حلت بهم هزيمة ساحقة ، وقتل منهم آلاف مؤلفة حتى أن جثث قتلاهم كانت تغطى مساحة واسعة بلغ امتدادها ثلاثة مراحل ، كما أن ملك الحبشة وجه إنذاراً إلى السلطان المملوكى بأنه سيشن حرباً شعواء ضد بلاد الحجاز ، وأنه سيقوم بتحويل مجرى النيل عن مصر(١١٧) .

وعلى الرغم من أن المراجع العربية لم تشر إلى هذا الإنذار ، إلا

أنها أشارت بما يفهم منه صحة ذلك . فقد ذكر السخاوى أن السلطان عقد فى ٢٠ جمادى الأولى ٨٥٢/٢٢ يوليو ١٤٤٨ مجلس القضاء واستدعى بطريرك النصارى وأمر بكتابة إشهاد عليه أن لا يكتب إلى ملك الحبشة بنفسه ولا بوكيله ، لا ظاهراً ولا باطناً ، ولا يولى أحداً فى بلاد الحبشة لا قسيساً ولا أعلى منه ولا دونه إلا بإذنٍ من السلطان ووقوفه على كتابته . وأنه متى خالف ذلك انتقض عهده(١١٨) .

على أن زرع يعقوب عمل على تنفيذ إنذاره هذا . ففى شهر ربيع الثانى ٨٥٤/مايو — يونيو ١٤٥٠ حضر إلى القاهرة قاضى سواكن وأخبر بأن ملك الحبشة جهز أسطولاً من نحو مائتى سفينة لغزو سواحل البلاد الحجازية ، وأنه يريد قطع بحر النيل وتعويقه بحيث لا يصل إلى مصر(١١٩) . وقد دفع هذا التهديد السلطات المملوكية إلى العمل على مواجهة هذا الغزو المرتقب بالتعاون مع المسلمين بالحبشة، فكلفت الأمير جانبك الظاهرى شادّ بندر جدّه بالاتصال بهم ويحث الأمر معهم . وعندما قدم هـذا الأمير إلى القاهرة فى شهر جمادي الأولى ٨٥٦/يونيو ١٤٥٢ كان بصحبته قصّاد ملكهم(١٢٠) .

واتجه زرع يعقوب كما اتجه سلفه من قبل إلى الفونسو الخامس ملك أرغونه ، لتحقيق مشروعه الصليبى . فالعلاقات بين الفونسو الخامس وبين الدولة المملوكية كانت عدائيةً طوال مدة حكمه تقريباً . لا تكاد تعود إلى حالة الوفاق والوئام حتى تعود إلى القطيعة بسبب

تجرّم القراصنة الـكتلان الذين كان يستخدمهم لتحقيق أغراضه السياسية فى السيطرة على البحر الأبيض المتوسط شرقيّه وغربيّه ، وخاصةً بعد استيلائه على مملكة نابلى فى عام ١٤٤٢[١٢١] . ولهذا كانت أسواق مصر والشام مقفولة فى وجه رعاياه من التجار منذ عام ١٤٤٨.هذا فضلاً عما كان يراوده من مشروعات صليبية ضد الأتراك بالتعاون مع القائد الألبانى اسكندر بك[١٢٢] ، أو ضد المماليك بالتحالف مع الحبشة .

وقد خشى حنا دى لاستيك رئيس فرسان الإسبتارية أن تؤدى غارات القراصنة الـكتلان إلى أن تقوم مصر بمحاولة أخرى لغزو رودس . ولذلك سارع بعرض وساطته على مدينة برشلونه ، التى كانت تشرف على تجارة الـكتلان ؛ مُبلغاً إياها النوايا السلمية لجقمق واستعداده لعقد صلح مع الفونسو الخامس ، إذا ما كفّ القراصنة الـكتلان عن غاراتهم على السواحل والموانىء المصرية والشاميه . وقام أعضاء بلدية برشلونه من جانبهم فى ٩ يوليو ١٤٤٨ بإخطار ملـكهم بهذا العرض ، وإحاطته علماً بمدى ما أصاب تجارة الـكتلان من خسائر وأضرار ، وحاثّين إيّاه ، على عقد الصلح . ثم عادوا فكتبوا إليه فى ١٨ يوليو للحصول على موافقته على اختيارهم لأحد تجار مدينتهم يوحنا سبازر Johan Spaser قنصلاً للـكتلان بالإسكندريه[١٢٣] .

غير أن الفونسو الخامس لم يعبأ بهذه المساعى وأمر القراصنة الذين فى خدمته بمواصلة تجرّمهم فى البحر ضد سفن المسلمين ، وخاصة تلك

التى تقوم بالنقل البحرى بين الإسكندرية وطرابلس الغرب[١٢٤] . وأمّا زرع يعقوب فقد واصل بحث مشروع تحالفه معه . فأرسل إليه سفارةً على رأسها راهب حبشى يدعى ميخائيل و بصحبته مترجم من مسلمى صقليه . ومرت السفارة بروما أولاً حيث استقبلها البابا ثم تابعت طريقها بإرشاد أحد أهالى مدينة مسّينا إلى مدينة نابلى لمقابلة الفونسو الخامس ، فوصلتها فى أوائل سبتمبر ١٤٥٠ . وقد أبدى الفونسو الخامس فى ردّه المؤرخ فى ١٨ سبتمبر استعداده لإرسال أسطول يتكون من مائة وخمسين سفينة لمهاجمة السواحل المصرية والشامية إذا ما تقدم ملك الحبشة من جانبه بالزحف بقواته نحو الحدود المصرية الجنوبية وقام بمنع مياه النيل عن مصر[١٢٥] .

وكان العاهل الأسبانى قد أرسل ، قبيل وصول هذه السفارة ، بعض وحدات أسطوله بقيادة أمير البحر برنات دى فلامارى Bernat de Vilamari للقيام ببعض الغارات الاستكشافية لمعرفة مدى مناعة التحصينات بالسواحل والموانىء بمصر والشام . ثم استمرت هذه القوة البحرية ، بعد هذا العرض من جانب ملك الحبشة ، تمارس تجرّمها حتى عام ١٤٥٣[١٢٦] . ومما سجلته المراجع العربية المعاصرة من أنباء هذه الغارات أن عدة مراكب للفرنج تزيد على خمسة عشرة مركباً أخذت تتجرّم فى البحر أمام السواحل والثغور الإسلامية منذ شهر ربيع الآخر ٨٥٤/ مايو — يونيو ١٤٥٠ ، مما دفع السلطات المصرية إلى الاهتمام بتعزيز حماية السواحل والثغور . وعلى الرغم من ذلك ،

فقد ورد الخبر إلى القاهرة فى ٨ شوال/ ١٤ نوفمبر بأن الفرنج هاجموا ثغر رشيد واستولوا من المسلمين على أربعة مراكب موسوقة بالغلال بما قيمته مائة ألف دينار (١٢٧) . وفى ١١ جمادي الآخرة ٨٥٥/١٣ يوليو ١٤٥١ عُلم أن عدة مراكب للفرنج تزيد على عشرين مركباً هاجمت ميناء صور . و بعد ذلك بثلاثة أيام هاجمت مجموعة أخرى من مراكبهم ميناء الطينه (١٢٨) .

ثم عاد الفونسو الخامس إلى الاتصال مرة ثانية بزرع يعقوب. ففى خطابه إليه المؤرخ فى ١٨ يناير ١٤٥٢ يخبره باختيار أحد رجال حاشيته ، ميخائيل دزدريو Micaelem Desiderio ، سفيراً من قبله لدي جلالته ، لإحاطته علماً ببعض الأنباء الخاصة به والتى كلّف السفير بنقلها إليه مشافهةً ، مع رجائه له بإبلاغ السفير أخبار مملكة الحبشة وتيسير وتأمين عودته إلى نابلى (١٢٩) . ومما لا ريب فيه أن هذه الأنباء تتصل بموضوع التحالف ومشروع الهجوم على الدولة المملوكيه . وفى هذه المرة حرص الفونسو الخامس على أن يصل سفيره سالمًا إلى أكسوم ، فآثر تجنب طريق مصر ورسم له بأن يتبع طريق القسطنطينية ، وطرابيزون ، والخليج العربى ثم البحر الأحمر . ولذلك زوّدة بخطابات توصية إلى كلٍ من قنسطنطين الحادى عشر امبراطور القسطنطينية ، وحنا كومنين امبراطور طرابيزون ، وأحد خانات التتار لكى يسمحوا له بالمرور ببلادهم (١٣٠) .

وفى شهر مارس من نفس العام أشيع أن الفونسو الخاص سيبحر إلى جزيرة قبرص على رأس قوة من رجاله لينضم إلى قواته التى تمارس

عدوانها بالمياه المصرية والشامية ، غير أن هذا النبأ لم يتحقق صحته فيما بعد (١٣١) . وفى ٣ يوليو ١٤٥٣ كتب للمرة الثالثه إلى زرع يعقوب، غير أن هذا الخطاب لا يشير أيضاً إلا إلى اسم السفير . أنطونيو مارتينيز Antonio Martinez ، الذى كُلِّف بأن ينقل إلى ملك الحبشة مشافهةً بعض الأخبار الخاصة بمملكة أرغونة و نابلى التى رأى الفونسو الخامس إدخال السرور على جلالته بإحاطته علماً بها (١٣٢) .

ولكن المصادر التى أشارت إلى هاتين السفارتين من قبل الفونسو الخامس إلى زرع يعقوب ، لم تذكر لنا شيئاً عن بقية أخبارهما . فهل قدّر للسفيرين أن يصلا سالمين إلى الحبشة ، وماذا كان رد ملك الحبشة على هاتين السفارتين ؟ هذا فضلاً عن أننا لا نستطيع أن نقطع برأى جازمٍ بصدد ما تشير إليه المراجع من وجود سفيرٍ لملك الحبشة بلشبونه فى عام ١٤٥٢ وتشرفه بمقابلة سميّه الفونسو الخامس ملك البرتغال (١٣٣) . هل يعنى ذلك انصراف ملك الحبشة عن فكرة التحالف مع ملك أرغونه و نابلى والاتجاه إلى التحالف مع ملك البرتغال ؟ أم يعنى أنه يريد أن يضم إلى هذا التحالف بقية ملوك الفرنج ليضمن لمشروعه أكبر قسط من النجاح .

وكيفما كان الأمر فإن زرع يعقوب انصرف عن تنفيذ مشروعه وآثر المسالمة مع مصر وإعادة علاقات حسن الجوار والمودة بين الدولتين. فأرسل قصّاده لدى جقمق ، غير أنهم وصلوا القاهرة بعد وفاته ببضعة أيام ، فتشرفوا بالمثول بين يدى ابنه عثمان الذى خلفه على عرش السلطنة فى ٢١ صفر ٨٥٧/٣ مارس ١٤٥٣ (١٣٤) .

وأما الفونسو الخامس ملك أرغونه ونابلى فقد واصل سياسته العدائية تجاه الدولة المملوكية حتى أدركته الوفاة فى عام ١٤٥٨ . فقد استمر القراصنة الكتلان الذين كان يستخدمهم لتحقيق أغراضه يواصلون تجرّمهم فى البحر ضد سفن المسلمين على طول السواحل الإسلامية الممتدة من تونس حتى آسيا الصغرى[١٣٥] .

* * *

غير أن روح الوحدة الاسلامية والجهاد المشترك إزاء الأهداف الصليبية لم تقتصر فقط على هذه الجبهات الثلاث فى كلٍ من مصر والحبشة والدولة العثمانية ، وإنما شملت أيضاً المسلمين فى مملكة غرناطة بالأندلس . فى هذه الفترة أخذت مملكة قشتالة توجه جهودها لاتمام حركة استرداد أسبانيا من المسلمين والقضاء على مملكة غرناطة آخر الممالك الاسلامية بها والتى كانت قد انكمشت حدودها فى أقصى الطرف الجنوبى بشبه الجزيرة .

وشهد عهد جقمق بداية تبادل السفارات والرسائل بين ملوك غرناطه وسلاطين المماليك طلباً للنجدة والمعونة . وأول هذه السفارات هى التى وجهها إلى جقمق محمد بن نصر بعد انتصار الملك خوان الثانى عليه فى موقعة كاستريل Castril وعقد الهدنة بينهما فى عام ٨٤٣/١٤٣٩[١٣٦] . وقد وصل السفير الغرناطى هو ومن معه من أعضاء السفارة إلى القاهرة فى ٢٤ رجب ٨٤٤/٢٠ ديسمبر ١٤٤٠ ، ثم تشرفوا بمقابلة السلطان وقدموا له رسالة ملكهم التى تتضمن

مافيه المسلمون بغرناطة من الشدة ، وسألوه نجدتهم وإرسال العسكر عوناً لهم . ويذكر السفير فى وصفه لسفارته أن السلطان رد على طلب النجدة بالاعتذار لأن بلادهم بعيدة ولا يمكنه تجهيز عسكر إليهم ، وأنه سيبعث إلى السلطان العثمانى ، مراد الثانى ، يطلب منه نجدتهم . غير أن السفير أجاب عليه بأنهم لجأوا إلى بابه بوصفه [كبير الملوك والسلاطين ، وخديم الحرمين الشريفين] ، وأنه إذا لم يكن فى قدرته تجهيز العسكر إليهم فليعنهم بالمال والعدّه ، فوافق جقمق على ذلك[١٣٧] .

ويعتقد البعض أن جقمق لم يبر بالوعد الذى قطعه على نفسه من نجدة المسلمين بغرناطة بالمال والسلاح[١٣٨] . هذا وأن رسالته إلى محمد بن نصر ، رداً على الرسالة التى قدمها السفير إليه ،وصلت إلينا مبتورة غير كامله . فهى لا تذكر سوى اسم سلطان غرناطه ، ثم تخطره بعد تبادل عبارات الود والدعاء له بالنصر وإحاطته علماً بوصول رسالته ، بأن الرسول المصرى الذى كلّف بالسفر إلى غرناطة سيقوم بإبلاغه الرد مشافهه[١٣٩] .

وإذا كان من المتعذر إرسال نجدة عسكرية من مصر إلى الأندلس نظراً لبعدها ولصعوبة تدبير المراكب الخاصة لنقل الجند إليها ، فقد كان ذلك أمراً مستحيلاً فى ذلك الوقت بالذات . فالسفارة الغرناطية جاءت إلى القاهرة عقب فشل الحملة البحرية الأولى التى أرسلها جقمق لغزو رودس ، وفى الفترة التى كان يستعد فيها لتوجيه الحملة الثانية ضدها[١٤٠] . وفضلاً عن ذلك فإنه ليس من الحكمة فى شيء أن يخاطر

بإرسال مجموعة من السفن المصرية إلى الأندلس والعلاقات بينه وبين ألفونسو الخامس، الذى يسيطر بقواته البحرية على غربى البحر الأبيض المتوسط ، على ما هى عليه من عداءٍ وتربصٍ وتحفزٍ .

إلا أن الرسالة الثانية التى أرسلها إليه ، محمد الأحنف بن عثمان ، الذى خلف محمد بن نصر على عرش غرناطه ، والمؤرخة فى ١٣ جمادى الأولى ٨٥٥/١٣ يونيو ١٤٥١ ، بصدد طلب المعونة أيضاً لتثبت فى وضوحٍ تام أن مصر قد قامت بواجبها الذى تفرضه عليها الأخوّة فى الدين وزعامتها للعالم الإسلامى . إذ أن هذه الرسالة دليل قاطع على أن السلطان قد برّ بوعده ومدّ يد المعونة والنجده ، بقدر ما تسمح به الأحوال والظروف وقتذاك ، إلى المسلمين فى هذا القطر النائى المستصرخ به .

فهذه الرسالة الثانيه التى حملها إليه التاجر أبو عبد الله محمد البنيولى قد جاء بها على لسان سلطان غرناطه هذه العباره [ونحن نوجب التعظيم لتلكم الأبواب الكريمة ، والثناء على ما عندنا من المواهب المتصلة والمنح العميمة ، كافأ الله عنّا ما لها من الحقوق التى قامت المفاخر منها على سوق) . وفيها يبلغ السلطان أن هذا التاجر ومن معه قد أكتروا أحد المراكب إلى الاسكندرية لكى يشحن بها (ييسّره الله تعالى من صدقات المسلمين ونوافل خيراتهم التى يعتمدون بها ما عند الله من الثواب الجسيم والجزاء الذى يخلد فى دار النعيم) . ثم يضيف طالباً منه أن يصدر أمره بالمشاركة (فى وثقه وتفريغه

وفى كل ما يحتاج إليه حتى تتم معونة هـذا الوطن المستصرخ بأبوابكم المتمسك بأسبابكم] ويختم رسالته ذاكراً أن مبلغ كراء المركب المذكور ، فى سفره وعودته ، ثلاثة عشر ألف وخمس مائة دينار من الذهب وهى إشارة بليغة لبيان مدى المشقة التى تكلفها المسلمون لإرسال هذا المركب إلى الإسكندرية لوثقه بالأسلحة والعتاد[١٤١] .

ويبدو أن هذه المعونة لم تصل إلى غرناطة فى الوقت المناسب نظراً للمدة الطويلة التى تستغرقها هذه الرحلة ذهاباً وإياباً . فقد استؤنف القتال بين الغرناطيين والقشتاليين فى شهر فبراير عام ١٤٥٢، وهـو الذى انتهى بهزيمة الغرناطيين فى موقعة البورشونيس Alporchones فى الشهر التالى[١٤٢].

وليس هناك من شك فى أن أخبار هـذه الهزائم المتتالية وما فيه المسلمون بغرناطة من شدة وضيق ، وعجز السلطان عن إمدادهم بالعسكر قد أضاف عاملاً جديداً فى إذكاء روح الكراهية للفرنج فى قلبه .

* * *

وبعد ، فإن هذا العرض المسهب لطبيعة العلاقاتِ بين جقمق والفرنج ليفسر لنا فى وضوحٍ تام حوادث القدس فى أخريات عهده . وهذا التفسير الذى ذهبنا إليه هو الذى تردد على ألسنة كتاب الفرنج ودعاتهم الصليبيين ، ومن هؤلاء جان جرمان Jean German

أسقف مدينة شالون الذى أوفده فيليب الطيب دوق برجنديه فى
مايو عام ١٤٥٢ إلى شارل السابع ملك فرنسا يدعوه ويحثه على
المشاركة فى حملة صليبية عامة ضد الدولتين العثمانية والمملوكيه .

فقد أشارت رسالته التى قدمها إليه إلى الحوادث الأخيرة بالشرق
من فتح قبرص فى عهد برسباى ومحاولات جقمق لفتح رودس ،
وما كان من الدور الذى لعبته سفن دوق برجنديه من إحباط الهجوم
الأخير على رودس . كما ذكرت أن جقمق قد طرد منذ ثلاث
سنوات بطريرك الأقباط وجميع النصارى من مصر ، الأمر الذى
أدى إلى نشوب الحرب بين السلطان وملك الحبشة ! ! ! . وهذه
أخبار غير صحيحه ، ولعله يقصد ما حدث من استدعاء السلطان
للبطريرك أمام مجلس القضاة فى ٢٠ جمادى الأولى ٨٥٢ / ٢٢ يوليو
١٤٤٨ وأخذ التعهد عليه بعدم مكاتبته لملك الحبشه ، وما كان من
نشوب القتال بين المسيحيين والمسلمين بالحبشه . ثم يختم جان جرمان
عرضه بما حدث للرهبان الفرنسسكان بدير صهيون فى العام الماضى
(١٤٥١) من تعرضهم لانتقام السلطات المملوكية والقبض عليهم
والتشهير بهم فى شوارع القدس ، ثم إرسالهم إلى القاهرة ليسجنوا
بها . ولا تخلو رسالته ، فى نهاية الأمر ، من المبالغة فى وصف ما
حل بهم من تشهير وانتقام سواء فى أنفسهم أوفى أموالهم وممتلكاتهم

استدراراً لعطف شارل السابع عليهم واستثارةً للروح الصليبية فى
قلبه حتى ينجح فى مهمته لديه[١٤٣] .

وهذا الذى أشار إليه جان جرمان فى رسالته من اضطهاد الرهبان
الفرنسسكان بدير صهيون ، له أهميته الكبرى فى تفسير حوادث
القدس التى ذكرها مجير الدين الحنبلى والتى أدت إلى انتزاع المسلمين
للقبو الذى يوجد به قبر داود من يد الرهبان .

فالقبض عليهم ثم التشهير بهم حدث فى عام ١٤٥١ ، والحملة
التفتيشية على الكنائس والأديرة التى أمر بها جقمق بسعاية أحد
شيوخ القدس حدثت فى ٢٢ جمادى الآخرة ٨٥٦ / ٣٠ يونيو ١٤٥٢[١٤٤] .
ويمكن الجزم ، بناءً على ما حدث من سوابق ، أن ما حل بالرهبان
الفرنسسكان كان إجراءً انتقامياً أنزلته السلطات المملوكية بهم ،
لا بوصفهم رهباناً ورجال دين ، وإنما لما أصبح لهم من وضع سياسى
كممثلين لجميع طوائف الفرنج . وهذا الإجراء الانتقامى جاء نتيجةً
لتعرض السواحل والثغور المصرية والشامية للغارات التخريبية التى
قامت بها مجموعة كبيرة من سفن الفونسو الخامس ملك نابلى
وأرغونه فى عامى ٨٥٤ — ٨٥٥ / ١٤٥٠ — ١٤٥١ . وهى الغارات التى كانت
بمثابة حملات استكشافية تمهيداً للغزو الشامل للدولة المملوكية
الذى وعد به الفونسو الخامس ، إذا ما قام زرع يعقوب ملك الحبشة
من جانبه ، حسب اتفاقه معه ، بالأطباق عليها بقواته من الجنوب .

هذا فضلاً عما ورد إلى القاهرة ، في هذه الفترة ، من أخبار استغاثة الفرناطيين وما حل بهم من هزائم .

فالتشهير بهم فى شوارع القدس قد أثار مكامن الكراهية فى قلوب المسلمين إزاءهم ، ودفع أحد شيوخهم إلى المجىء إلى القاهرة لحض السلطان على الأمر بالكشف عن الكنائس والأديرة بالقدس وبيت لحم ، فصادف ذلك هوىً فى نفس السلطان الذى فاض قلبه بالحقد والكراهية الشديدة للفرنج . فلم يكن قبول جقمق لسعاية هذا الشيخ مبعثه ما عرف به من تقوى وتدين ورغبته فى ختم حياته بالأعمال الصالحات كما يصور لنا مجير الدين الحنبلى فى روايته لهذه الحوادث . كما لم يكن مبعثه كراهية جقمق لأهل الذمه ، نصارى ويهود ، وتعصبه ضدهم ، أو رغبته فى ابتزاز الأموال منهم كما يذكر فان برشم Van Berchem فى تفسيره لهذه الحوادث . كلاّ ، لم لم يكن هذا الباعث أو ذاك ، وإنما جاءت هذه الحوادث نتيجة لإذكاء الروح الصليبية لدى الفرنج بعد فشل السلطان فى فتح رودس ، ونشاطهم المتزايد فى بحث مشروعات الحملات الصليبية ضد الدولة المملوكية بالتحالف مع الحبشه ، وما تبع ذلك من اشتداد غارات القرصنة على الموانىء المصرية والشاميه . كما جاءت أيضاً نتيجةً لازدياد روح الكراهية للفرنج لما كان يصل إلى مسامع السلطان من أخبار القتال بين المسلمين والمسيحيين بالحبشه ، أو بين بنى العثمانيين والمجريين بالبلقان ، أو بين القشتاليين والغرناطيين بأسبانيا :

هذا فضلاً عما وضح خلال هذا البحث من أن الرهبان الفرنسسكان قد خرجوا عن حدود رسالتهم الدينية ، وتخفّوا فى مسوح الرهبان للتجسس والتآمر على الدولة المملوكيه . فكان منهم الرسل بين البابوات وملوك الفرنج وملوك الحبشة للدعوة لتحقيق الأهداف الصليبيه . كما كانوا حلقة الوصل بين هؤلاء وأولئك عن طريق اتصالهم بالرهبان الأحباش المقيمين معهم بالقدس .

فشعور الكراهية والبغضاء إزاء الرهبان الفرنسسكان وإزاء الفرنج عامةً هو وحده الذى يفسر عنف حملة الكشف على الكنائس والأديرة التابعة لهم بالقدس وبيت لحم ، ويفسر قسوة الإجراءات الانتقامية التى اتخذت ضدهم ، وما حدث من تحويل المسلمين للقبو الذى يوجد به قبر داود إلى مسجد .

ثم أن تحويل هذا القبو إلى مسجد يقوم على أساسٍ من الواقع التاريخى المستمد من تاريخ هذا المكان فى أواخر القرن الثالث عشر . ففى عام ١٢١٧ سقطت كنيسة صهيون التى كان قد أقامها البيزنطيون بهذا المبنى فى القرن الرابع . ولم ينج من الهدم سوى الجانب العربى من المبنى القديم والقبو الذى يوجد به قبر داود فى الجانب الشرقى . وترتب على سقوط الكنيسة اهمال المسيحيين لهذه الأماكن المقدسه ، واقتصر الأمر على أن أصبحت مزاراً لحجاجهم [١٤٥] ودفع ذلك الإهمال المسلمين إلى العناية بهذا القبو ورعايته تعظيماً لنبي الله داود ، فأقاموا به قبلةً وحولوه إلى مسجد . وقد أشار إلى هذه الحقيقة الهامة

أحد حجاج الفرنج، ريكولد دى مونت كروس Ricold de Mont Croce الذى أدى فريضة الحج فى أواخر القرن الثالث عشر، وزار فيما زاره من أماكن مقدسه تلك القائمة فوق جبل صهيون[١٤٦]. غير أن الرهبان الفرنسسكان، بعد أن سمح لهم بإعادة بناء هذه الكنيسة وبناء دير صهيون فى عام ١٣٣٥، أزالوا القبلة التى بالقبو واتخذوا منه مستودعاً لحاجياتهم.

وقد ظل هذا القبو، بعد إخراجه عن أيدى الرهبان الفرنسسكان، مسجداً يذكر فيه اسم الله، ومزاراً ومحجاً للمسلمين واليهود. إذ فشلت جميع جهود الرهبان وملوك الفرنج لدى سلاطين المماليك والعثمانيين من أجل استعادته، كما تدل على ذلك مشاهدات الحجاج الأوروبيين ومجريات الحوادث فيما بعد[١٤٧]:

الفصل الرابع

١- إيبال
٢- خشقدم

إينـال

هذه هى حوادث القدس الشريف وأسبابها وبواعثها ، فما هو رد الفعل الذى أحدثته فى صفوف الرهبان الفرنسسكان بدير صهيون ، وما صدى هذه الحوادث فى أوربا ؟

لقد سارع الرهبان بإبلاغ هذه الأنباء وما تعرضوا له فى أنفسهم وفى أموالهم إلى البابا وملوك الفرنج ، مستنجدين بهم للذود عنهم وحاثّين إياهم على الإسراع بجهودهم فى تجهيز حملة صليبية لاسترداد بيت المقدس ولإنقاذ المقدّسات المسيحيه . وقد جندوا أنفسهم لخدمة هذا الهدف الدينى الأكبر مستغلين مسوح الرهبان وحرية الإقامة والتنقل التى يتمتعون بها فى فلسطين . فكان منهم الرسل الذين أوفدهم البابوات لدى ملوك الشرق المسيحيين يدعونهم إلى التكاتف مع إخوانهم فى الغرب على تنفيذ مشروعاتهم الصليبية .

ولكنهم ، هم أنفسهم ، شأنهم فى ذلك شأن بقية الفرنج ، كانوا يدركون تعذّر تنفيذ مثل هذه المشروعات التى أصبح تحقيقها ضرباً من الأوهام . وانتظاراً لما عسى أن يتم عليه الاتفاق بين ملوك الفرنج، فقد اتجهوا أولاً إلى تأمين كيانهم بفلسطين ، كما اتجهوا فى نفس الوقت إلى الضغط السياسى على السلطات المملوكية أملاً فى أن يوفّقوا فى استعادة القبو الذى انتزع منهم وحوّله المسلمون إلى مسجد .

وما أن استقرت الأحوال السياسية فى الدولة المملوكية بعد الفترة الانتقالية القصيرة الأمد التى أعقبت وفاة السلطان الظاهر جقمق وسلطنة ابنه عثمان ، والتى انتهت بتربع الأشرف إينـال على عرش السلطنه (ربيع الأول ٨٥٧ - إبريل ١٤٥٣) ، حتى بادررا إلى السعى لتجديد ما بيدهم من مراسيم سلطانية لضمان إقرار ما يتمتعون به في الأراضي المسيحية المقدسة من امتيازات وإعفاءآت وحقوق تـكفل لهم حرية التعبد وتأمين أرواحهم وأموالهم[١٤٨] . وعلى الرغم من أن هذا التجديد لهذه المراسيم السلطانية كان مجرد تقليدٍ جـرى الرهبان على اتباعه فى بداية عهـد كل سلطان ، فإنه كان ذا مغزىً خاصٍ عقب حوادث القدس الأخيرة .

ومع ذلك فإنهم لم يقابلوا هـذا التسامح الذى درجت السلطات المملوكية على إسباغه عليهم بالرضاء والاطمئنان ، إذ كانت تسيطر على قلوبهم وعقولهم الروح الصليبية بما تنطوى عليه من كراهية عمياء للمسلمين وتعطش للانتقام منهم . ومن ثمّ فقد دفعهم التعصب الدينى إلى وجوب اتخاذ إجراء انتقامىٍّ عاجلٍ سريعٍ ضد المسلمين الذين يمكن أن تمتد إليهم أيدى ملوك الفرنج بالأذى والاضطهاد والتعذيب، كنوعٍ من المعاملة بالمثل والضغط السياسى على السلطان ... وهـذه الجماعة من المسلمين الذين اتجهت إليهم ضراوة الفرنسسكان لم تـكن توجد إلا فى مملـكة أوروبية واحده، وهى مملـكة البرتغال . إذ حينما استعادها ملوكها فى الزمن السالف، فى عام ٥٤١/١١٤٦ — ١١٤٧ منعوا

رعاياهم المسلمين من الهجرة إلى بلاد إخوانهم فى الدين ، سواءٌ بالممالك الإسلامية بالأندلس أو بشمالى أفريقية، وسمحوا لهم بالبقاء بها على دينهم . ولهذا فقد كتب الرهبان إلى ملك البرتغال الفونسو الخامس (١٤٣٨- ١٤٨١) بهذه الحوادث وطلبوا منه توقيع إجراءآت انتقامية مماثلة لما حلّ بهم بالمسلمين القاطنين فى بلاده ، من اضطهادٍ وتعذيبٍ وهـدمٍ لمساجدهم ومنعهم من إقامة شعائر دينهم .

ورأى عاهل البرتغال أن يسبق اتخاذ هذه الإجراءآت القيام بعمل دبلوماسى ، فدفع رعاياه من المسلمين بمدينـة أُشبونه (لشبونه) إلى مكاتبة السلطان المملوكى الأشرف إينال ، يرجونه السماح للرهبان الفرنسسكان ببناء ما هُدم من كنائسهم وأديرتهم واستعادة القبو الذى انتزع منهم ، إذا ما ثبت أنه من حقوقهم . فقام هؤلاء فى أوائل ربيع الثانى ٨٥٨/إبريل ١٤٥٤ بكتابة قصة بهذا المعنى وبما يتعرضون له من ضغطٍ وتهديدٍ بالتعذيب والاضطهاد ، وأرسلوها إلى السلطان مع رسولين من قبلهم من أهل القرآن العظيم ومن ذوى الحسب الصميم وهما : الفقيه أبو العباس أحمد بن محمد الرُعينى ، والفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمـــد الونداجى : ولم يفتهم ، تأميناً لسلامتهم ولحرية معتقداتهم ، أن يطلبوا من السلطان أن يوقّع على الرهبان أضعاف ما يوقّع عليهم إذا ما تعذر استجابة رجائهم هـذا وتعرضوا لانتقام ملـكهم[١٤٩] .

والباحث لا يجد فى المراجع العربية المعاصرة أى صدىً لهذه

الرساله . وكيفما كان الأمر ، فهو ليس بحاجة لأن يجهد نفسه فى معرفة رد السلطان عليها . فالأسلوب الذى كتبت به القصة يعتبر قطعة رائعة من أدب الدبلوماسيه . وإذا كان المسلمون بمدينة أشبونه ، تحت الضغط والوعيد ، قد استجابوا لرغبة مليكهم ، فقد أوضحوا له ، وهو الذى لا بد أن يكون قد علم بمضمون الرسالة وأقرّها قبل إرسالها ، عنصر التعادل فى هذه القصة ، وأن تعرّضهم لانتقامه سيعرّض الرهبان الفرنسسكان لانتقام أشد وأنكى . وهذه الإشارة فيها الكفاية أيضاً التى تغنى السلطان المملوكى عن الاستجابة لتحقيق هذا الرجاء الذى يحمل فى ثناياه معنى الإيعاز بالرفض . هذا فضلاً عن أن الحقائق التاريخية ومجريات الحوادث فيما بعد تدل على أن هذه السفارة وهذا الأسلوب الجديد من الضغط السياسى لم يغير من واقع الأمر شيئاً وأن القبو ظل مسجداً بيد المسلمين .

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار ما حدث فى عام ١٤٥٢ من بداية الاتصال بين ملك الحبشة زرع يعقوب وملك البرتغال الفونسو الخامس بقصد دعوته إلى الانضمام مع بقية ملوك الفرنج فى تجهيز حملة صليبية عامه[١٥٠] ، ثم هذا الاتجاه السياسى من جانب عاهل البرتغال نحو الاهتمام بالمقدّسات المسيحية بالقدس ، لأدركنا خطورة دخول هذه المملكة ميدان المعترك الصليبى بالشرق الأوسط . هذا فضلاً عما هو معروفٌ من أن محاولات البرتغاليين لاكتشاف سواحل أفريقية الغربية كانت أيضاً فصلاً من فصول الحرب

الاقتصادية الصليبية ضد الدولة المملوكيه . إذ كانت هذه الجهود البحرية تهدف إلى الوصول إلى الحبشة والتعاون معها على القضاء عليها، كما تهدف آخر الأمر إلى الوصول إلى شواطىء الهند وانتزاع تجارة الشرق منها بقصد حرمانها من مصدر ثرائها وقوتها[١٥١] . وكانت الحملات الاستكشافية التى بدأ تجهيزها الأمير هنرى الملاّح منذ عام ١٤١٥ قد وصلت فى تقدمها على الشاطىء الإفريقى حتى منطقة الرأس الأخضر فى عام ١٤٤٦ ثم توقّفت بعض الوقت[١٥٢] .

ولا يعنينا فى هذا المجال سوى بيان الرابطة بين هذه الجهود الصليبية فى كلا الميدانين وقتذاك . فليس ثمّة شك فى أن بداية الاتصال بين الحبشة والبرتغال فى عام ١٤٥٢ ، وإخفاق جهود ملك الحبشة فى دفع ملوك الفرنج إلى تجهيز حملة صليبية مزدوجة ضد مصر ، وكذلك إخفاق مسعى ملك البرتغال بعد ذلك بعامين فى استعادة الحقوق التى يدعيها الرهبان ، كل ذلك قد أشحذهمم البرتغاليين ودفع جهودهم البحرية دفعةً أخرى لتحقيق أهدافهم ، كما دفع البابوية والكنيسة الكاثوليكية إلى إسباغ رعايتها الروحية ومباركتها لهذه الجهود . ففى ٨ يناير ١٤٥٤ أصدر البابا نقولا الخامس منشوراً يبارك فيه خطوات الأمير هنرى الملاّح فى هذا الصدد[١٥٣] . وفى ٧ يونيو من نفس العام منح الفونسو الخامس طائفة الرهبان اليسوعيين (الجزويت) التى يرأسها هذا الأمير الولاية الروحية على بلاد النوبة والحبشه[١٥٤] . وهو ماوافقت عليه الكنيسة الكاثوليكية فيما بعد ، بمقتضى المنشور الذى أصدره

البابا كالكستس الثالث فى مارس ١٤٥٦ ، بل أنها أضافت إلى بلاد النوبة والحبشة جميع البلاد التى اكتشفها البرتغاليون وما سوف يكتشفونه بعد ذلك فى المنطقة الممتدة من غينيا حتى الهند[١٥٥] .

وكان لهذا التأييد الروحى أثره الفعّال فى دفع الأمير هنرى الملاح لاستئناف إرسال الحملات الاستكشافية من جديد . ونجحت الحملتان اللتان أُرسلتا فى عامى ١٤٥٥ و ١٤٥٧ فى مواصلة التقدم على الشاطىء الإفريقى حتى ساحل جامبيا والسنغال . وقد اعتقد البرتغاليون بعد وصولهم إلى هذه النقطة أنهم على وشك الالتفاف حول أفريقيه ، ولذلك صدرت الأوامر لقائد الحملتين اللتين جهزتا فى عامى ١٤٥٨ و ١٤٦٠ ببذل أقصى جهده لمواصلة الملاحة نحو الهند . وكان الأمل قوياً فى تحقيق هذه الأمنية لدرجة أنه أصطحب معه أحد المترجمين ليقوم بمهمة الترجمة بينه وبين الهنود[١٥٦] .

* * *

وأما جهود الرهبان الفرنسسكان فى الدعوة للمشروعات الصليبية فقد باءت أيضاً بالفشل التام . وذلك لأن هذه الفترة تميزت بفتور الروح الصليبية إزاء الدولة المملوكية وإذكاء جذوتها بصفة خاصة إزاء الدولة العثمانية ، بعد نجاح السلطان محمد الثانى فى الاستيلاء على القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ ؛ إذ غدى وسط أوروبا كله تحت رحمة الجيوش العثمانيه . وهذا لا يعنى انصراف المشروعات الصليبية عن مهاجمة الدولة المملوكية وتحقيق هدفها الرئيسى ، وهو إقامه مملكة بيت المقدس

الصليبية من جديد ، بل إنها اتجهت بصفة عامة نحو مواجهة الخطر العثمانى أولاً ، فإذا ما تم القضاء عليه ورُدّ العثمانيون على أعقابهم أمكن للصليبيين مواصلة الزحف عبر آسيا الصغرى نحو سوريّه .

ولذلك شهدت هذه الفترة بعض المشروعات الصليبية العامة التى تقوم على تكتل القوى المسيحية بالشرق والغرب ضد العثمانيين والمماليك فى وقت واحد . وكانت الحبشة أيضاً مدار الرحى فى هذه المشروعات نظراً للدور الهام الذى يمكن أن تؤديه للصليبيين ، وهو الإطباق على مصر من الجنوب .

ومن بين هـذه المشروعات ، فضلاً عن المشروع الذى دعا إليه جان جرمان والذى أشرنا إليه من قبل ، ذلك المشروع الذى كان يدعو إليه البابا نقولا الخامس (١٤٤٧ — ١٤٥٥) . وقد بدأ باتخاذ الخطوات التمهيدية لتنفيذه بإيفاد لودوفيكو دابولونا Ludovico da Bologna ، أحد الرهبان الفرنسسكان ، إلى ملوك الشرق المسيحيين وعلى رأسهم ملك الحبشة ، وذلك لمعرفته التامة بأحوال بلادهم . والمصادر التى تكلمت عن هـذا المشروع لم تذكر الوقت الذى غادر فيه الرسول البابوى روما ، ولـكنها ذكرت أنه عاد من مهمته هـذه عقب وفاة نقولا الخامس وتولية كالكستس الثالث (١٤٥٥ — ١٤٥٨) العرش البابوى . ومن المرجّح أن نقولا الخامس قد اتخذ هـذه الخطوة بعد أن علم بأنباء توتر العلاقات بين مصر والحبشة من الرسول الحبشى ، الراهب ميخائيل ، أثناء مروره بروما عام ١٤٥٠ وهو فى طريقه إلى

نابلى لمقابلة الفونسو الخامس ملك أرغونه و نابلى ليعرض عليه مشروع زرع يعقوب . أو ربما كان ذلك ، وهو الأرجح ، بعد حوادث القدس فى عام ١٤٥٢ واستغاثة الرهبان بالبابا . وقد سافر الراهب لودوفيكو إلى الشرق وإلى الحبشة مرةً ثانيةً وثالثةً فى عهد كالكستس الثالث، ثم عاد من رحلته الثالثة إلى روما فى الأيام الأخيرة من عام ١٤٦٠، حيث استقبله البابا بيوس الثانى و بصحبته عدد كبير من رسل ملوك الشرق المسيحيين وملك الحبشه[١٥٧] .

ومن هذه المشروعات أيضاً، ذلك المشروع الذى دعا إليه البابا بيوس الثانى فى عام ١٤٦٢ . ولم يكن هذا المشروع أسعد حظاً من المشروعات السابقة ، فقد لاقى نفس المصير واضطرت البندقية أن تقوم وحدها بالدفاع عن ممتلكاتها وعن كيانها بعد أن طرقت الجيوش والأساطيل العثمانية أراضيها ومياهها الإقليميه [١٥٨] .

وإذا كانت هذه المشروعات قد فشلت فى مواجهة الخطر العثمانى الجاثم فوق وسط أوروبا ، فإن احتمال تنفيذها ضد مصر وسورية قد غدا سراباً زائلاً . هذا بالإضافة إلى أن العلاقات بين الدولة المملوكية والحبشة قد عادت إلى سيرتها الطبيعية وإلى ما يجب أن تكون عليه من حسن الجوار والمودة ورعاية المصالح المشتركة بينهما ، وخاصة بعد السفارة التى استقبلها السلطان عثمان بن جقمق بعد وفاة أبيه مباشرةً فى أوائل عام ٨٥٧/١٤٥٣ . كما أن صمت المراجع العربية المعاصرة وخلوها عن أية إشارةٍ إلى موضوع العلاقات بين البلدين فى السنوات التالية لذلك حتى

شهر محرم ٨٨٦ / مارس ١٤٨١ ، إنما يعنى بما لا يدع مجالاً للشك أنه لم يحدث ما يعكر صفو هذه العلاقات . بل إن مجريات الحوادث التاريخية لتدل على زوال الدوافع السياسية والدينية التى كانت تتسبب فى قيام القطيعة بين البلدين . فقد هدأت نسبياً الحرب بين ملوك الحبشة وملوك دول الطراز الإسلاميه . [١٦٠]

ومن الملاحظ أيضاً أن الحبشة قد تراخت فى مواصلة جهودها لتنفيذ فكرة القيام بعمل عسكرى مشترك مع ملوك الغرب ضد الدولة المملوكيه : فالمتتبع لتاريخ العلاقات بين الحبشة وأوروبا فى هذه الفترة يجد أنها قد توقفت مؤقتاً عقب السفارة التى أوفدها ملك الحبشة لدى فرانسوا سفورزا دوق ميلانو فى عام ١٤٥٩[١٦١] . ولم تستأنف هذه العلاقات فيما بعد ، إلا فى عام ١٤٨١ ، عندما أوفد ملك الحبشة راهبين من رهبان الأحباش بالقدس لمقابلة البابا سكستوس الرابع.[١٦٢] وقد عاد الرسولان إلى أكسوم وبصحبتهما أحد الرهبان الفرنسسكان[١٦٣] .

* * *

ولم يتبق إذاً للرهبان الفرنسسكان والفرنج من وسائل للضغط على السلطات المملوكية ، سوى الإيعاز للقراصنة بشن غاراتهم ضد الموانئ المصرية والشامية وضد سفن المسلمين فى شرقى البحر الأبيض المتوسط ، وهذا آخر ما تبقى فى جعبتهم من وسائل انتقاميه . غير أن هذه الغارات قد خفت حدتها فى هذه الفترة بدرجة ملحوظه .

ربما كان ذلك يرجع إلى انصراف الكتلان ، وهم الذين كانوا مصدر الشغب بالتعاون مع فرسان الاسبتارية برودس ، إلى استئناف علاقاتهم التجارية مع الأسواق المصرية والشامية بعد ما أصابها من توقف وانقطاع معظم سنوات عهد الفونسو الخامس ملك أرغونه ونابلى . وهو الذى عرف بعدائه الشديد للمسلمين وبمشروعاته الصليبية وباستخدامه للقراصنة الكتلان فى تحقيق أهدافه السياسيه . فقد حرصت مدينة برشلونه، التى كانت تشرف على نشاط التجار الكتلان على استئناف هذه العلاقات فى السنوات الأخيره من عهده . وقد أتاحت وفاته فى عام ١٤٥٨ الفرصة لها لتحقيق مصالحها التجاريه ، فعاد التجار الكتلان إلى سابق نشاطهم بجانب التجار البنادقة والجنوية بأسواق مصر وسوريّه [١٦٤] . ولذلك فإننا لانجد فى المراجع المصرية المعاصرة إلا إشارات قليلة جداً لحوادث تعبّث متجرّمة الفرنج ، وهى إشارات لا نلمس فيها تواتر أعمال العنف والتخريب ، والأسر والقتل، كما كان يحدث من قبل . مثال ذلك ماحدث فى أخريات عهد الأشرف إينال ، من إغارة الفرنج على السواحل المصرية فى شعبان ٨٦٣/يونيو ١٤٥٩ ، وخروج تجريدة لتعقبهم ثم العودة ببعض أسراهم فى محرم ٨٦٤/أكتوبر — نوفمبر ١٤٥٩ . ثم تلا ذلك انتقام السلطات من الجنوية الذين حامت حولهم الشبهات ، فقبضت على تجارهم وعلى قنصلهم بالإسكندريه . وقد أدت هذه الغارة إلى اهتمام المسئولين باتخاذ الإجراءآت لحماية السواحل من تجرّمهم ، فكلفت بعض المماليك فى

جمادى الأول ٨٦٥/فبراير — مارس ١٤٦١ بالكشف عن مكان على ساحل البحر الأبيض لإقامة برج حربى [١٦٥]

* * *

وهكذا فشلت جميع جهود الرهبان الفرنسسكان ، كما لم تتح لهم المقادير وقتذاك أية فرصة يمكن استغلالها لصالحهم ، وما أكثر ما كانت تتأزّم العلاقات بين الدولة المملوكية والفرنج . ومن ثمّ فقد طويت صفحات عهد الأشرف إينال دون أن يوفقوا فى استعادة القبو الذى يوجد به قبر داود عليه السلام . بل إن السلطان ، حرصاً منه على رعاية المسجد الذى أقيم به وعلى دوام بقائه يذكر فيه اسم الله ، قد قرر مايلزم له من الأموال لخدمته وصيانته ودفع رواتب القائمين على أمره [١٦٦]

خشقدم

وبعد فترة انتقالية قصيرة تعودتها الدولة المملوكية عقب وفاة كل سلطان ، آلت السلطنة إلى الظاهر خشقدم (١٨ رمضان ٨٦٥ — ١٠ ربيع الأول ٨٧٢/ ٢٧ يونيو ١٤٦١ — ١٩ أكتوبر ١٤٦٧) . وفى عهد هذا السلطان كثرت المراسيم والحجج الصادرة لصالح الرهبان الفرنسسكان ، تقرّهم على ما بيدهم من امتيازات وحقوق ، وتحرّم التعرضّ لهم بأذىً أو بمكروه ، أو تقضى لصالحهم فى بعض المنازعات المحلية بينهم وبين أهالى القدس. ولا تشير المراجع ، أوروبية أو عربية، إلى أى صدام أو خلاف بينهم وبين السلطان ، كما لم يحدث أن أثار الرهبان مرة أخرى موضوع هذا القبو أثناء سنوات سلطنته . وكل ما نعلمه عن المسجد الذى أقيم به أن خشقدم أقر صرف ما كان قد تقرر من أموال لصيانته ورعايته فى عهد سلفه[١٦٧] .

وأول ما صدر لصالحهم حجّة صادرة من قضاة القدس فى ١١ صفر ٨٦٦/ ١٥ نوفمبر ١٤٦١ تقضى بأحقيتهم فى نزاع قام بينهم وبين أحد الأهالى[١٦٨] . وما كادت دعائم السلطنة تثبت للسلطان القائم حتى سارعوا بالمطالبة باستصدار مرسوم عام وفق ما جرى العرف على اتباعه مع كل سلطان جديد ، فتحرّر لهم المرسوم المؤرخ فى ٢١ ربيع الأول ٨٦٦/ ٢٤ ديسمبر ١٤٦١ ، حسب ما بيدهم من مراسيم سلطانية

سابقة[١٦٩] . وفى هذا العام أيضاً حكم قضاة القدس لصالحهم فى ثلاث منازعات تخص شئون معاشهم ودنياهم[١٧٠] . ثم عادوا مرة ثانية يطالبون بتجديد المرسوم الأول، فجدّد ذلك بمرسومٍ ثانٍ فى ٢٨ صفر ٨٦٩/ ٣٠ أكتوبر ١٤٦٤[١٧١] . كما أصدر الأمير أحمد بن عبد الرحيم العينى فى ١٣ رمضان ٨٧٠/ ٢٩ ابريل ١٤٦٦ مرسوماً إلى الفلاحين بقرية بيت لحم ، وكانت جاريةً فى إقطاعه ، يأمرهم بكف أسباب الأذى والضرر عنهم والوصيّة التامة بهم[١٧٢] . وسمح لهم كذلك بمقتضى حجة صادرة من قضاة القدس ومؤرخة فى ١٨ رجب ٨٧١/ ٢٣ فبراير ١٤٦٧ بترميم حائط دير صهيون ، وذلك بناءً على ما كان قد تقرّر فى عهد السلطان جقمق فى عام ٨٥١/ ١٤٤٨ وحسبما أفتى به القضاة والفقهاء وقتذاك[١٧٣] .

ولئن دلت هذه المراسيم وهـذه الحجج على مدى ما يتمتع به الرهبان من رعاية وأمان وعدل ، سواء من قبل السلطات المحلية بالقدس أو من قبل السلطات المركزية بالقاهره ، فإن مسعاهم لاستصدار المرسوم الثانى (٨٦٩- ١٤٦٤) لمما يثير الانتباه . وحيث أن جميع هذه المراسيم السلطانية الممنوحة لهم ليست سوى مجرد صورة منسوخةٍ الواحدة عن الأخرى ، تكرر نفس الامتيازات والحقوق ، وتحوى نفس المواد والبنود ، فليس ثمة شك من أن يكون قد حدث ما يستوجب مطالبتهم باستصدار هذا المرسوم ، ولم يكد يمضى على المرسوم الأول سوى ثلاث سنوات . فإما أن يكونوا قد تعرضوا فعلاً لاضطهادٍ

أو لتضييقٍ عليهم ، وإما أنهم قد أحسوا احتمال حدوث ذلك بسبب حادث من الحوادث التى طالما تقع بين المسلمين والفرنج ، والتى تثير النفوس وتؤجج روح العداء والتعصب الدينى فى كلا المعسكرين الصليبى والاسلامى. ذلك أن صدور هذا المرسوم الثانى لا يُفهم منه سوى أنه تأكيدٌ وضمانٌ جديد فى ظروفٍ معينةٍ ، من قبل السلطان القائم لتأمين حياتهم وحرية تعبدهم .

وإذا ما استقصينا تاريخ العلاقات الخارجية مع الفرنج أو مع الدول الإسلامية فى عهد خشقدم فإننا لانجد سوى حادثين ، من الممكن والمحتمل ، كما حدث فى ظروف مماثلة سابقة ، أن يكون لهما أثر مباشر على كيان هؤلاء الرهبان ، شأنهم فى ذلك شأن بقية الفرنج ، تجاراً وقناصلاً ، المقيمين بأراضى الدولة المملوكيه . هذان الحادثان هما : تجدد القتال بين القشتاليين والغرناطيين فى أسبانيا واستنجاد سلطان غرناطة بالظاهر خشقدم ، وإغارة فرسان الاسبتارية على بعض سفن كانت تحمل جماعة من التجار المغاربة إلى بلادهم أثناء مرورها بالقرب من جزيرة رودس . وكلا الحادثان يتفق وقوعهما وقت استصدار هذا المرسوم الثانى على وجه التقريب .

* * *

فالحركة الصليبية ، وإن كانت قد لفظت أنفاسها الأخيرة فى الشرق الأوسط ، فإنها قد استعرت عن ذى قبل ضد مملكة غرناطه ، آخر الممالك الاسلامية بالأندلس . إذ أن انكماش حدودها بعد انتصارات

القشتاليين السابقة المتتالية[١٧٤] ، قد أضرم روح الجهاد فى المعسكر الصليبى بأسبانيا لتوجيه الضربة القاصمة للقضاء على بقايا دولة الإسلام هناك . وإذا كان هذا هو حال ملوك قشتاله من تحفزٍ وتربصٍ للجولة الأخيره ، فإن البيت النصرى ، وهو البيت المالك بغرناطه ، قد رزىء بخطب داخلى أفدح خطراً على كيانه من ذلك الخطر الخارجى الذى يطرق أبوابه بعنف ويهدده بالزوال . فقد دب الانقسام بين أفراده الكثيرين الطامعين فى العرش ، وبدت هذه الظاهرة ، التى نلمسها على الدوام فى السنوات الأخيرة من حياة الدول ، واضحة جلية فى حياة مملكة غرناطة التى كانت قاب قوسين أو أدنى من السقوط . بل إن التنافس على العرش لم يقتصر على الأخوة وأبناء العمومة فحسب ، وإنما شمل الآباء والأبناء أيضاً ، الذين كانوا يتحاربون ويتداولون التربع على العرش الكسيح بقصر الحمراء . وفى سبيل التمتع بصولجان الحكم لم يتورعوا عن استعداء ملوك الإسبان ضد بعضهم بعضا ، أو مهادنتهم ودفع الجزية لهم وهم صاغرون .

وإن مجرد النظرة العابرة إلى القائمة الطويلة المضطربة لملوك غرناطة فى القرن الأخير من وجودها لتكفى لابراز هذه الصورة المتداعية لمملكة قد تقرر مصيرها المحتوم . ومما يزيد فى إبراز هذه الصورة أن تحقيق أسماء هؤلاء الملوك ، والتثبت من سنوات حكمهم قد أجهد المشتغلين بتاريخ الأندلس بوصفه جزءاً من تاريخ غرناطة

يتحتم جلوه لكى يستقيم كتابة تاريخها فى هذه الفترة الأخيرة من حياتها [١٧٥] .

وهكذا كانت الظروف والأحوال مواتية لكى يواصل القشتاليون الزحف وتضييق الخناق على الغرناطيين عاماً بعد عام، لا يتيحون لهم وقتاً لاسترداد أنفاسهم وتنظيم صفوفهم ولم شملهم . يشلون حركتهم بالمناوشات والحروب المحلية، وينتزعون منهم البلد بعد البلد، والحصن بعد الحصن، حتى ما إذا ماتمت استعدادات الحرب الشاملة يشنون عليهم هجوماً عاماً لتوجيه ضربة قاضية وإحراز نصر حاسم .

وهذا هو ما حدث فى عام ١٤٦٢ عندما تقدم هنرى الرابع، ملك قشتاله، على رأس جيوشه، وأنزل الهزيمة بالغرناطين فى موقعة ماردونو Mardouo التى نشبت فى ١١ أبريل . هذه الهزيمة التى فتحت الطريق أمامه للاستيلاء على جبل طارق ومدينة « الجزيره » القائمة عند سفحه، وهى المدينة التى تعرف أيضاً بمدينة جبل الفتح [مدينة الفتح الأول، والمعقل الذى عليه الاعتماد والمعوّل] . وهكذا فقدت غرناطة هذا الموقع الاستراتيجى الهام والميناء البحرى الذي كان لايزال فى حوزتها منذ أن نجحت فى استعادته من مملكة قشتاله فى عام ١٣٣٣ [١٧٦] . وبذلك يكون قد تم تطويق غرناطة من الشمال ومن الجنوب، والتحكم فى صلاتها بشمالى أفريقيه . وقد هلل القشتاليون لهذا الفتح الأكبر، وسارعوا بأن أزالوا عن المدينة كلمة الإسلام والتوحيد

وعمّروا مآذنها بالنواقيس والصلبان . وأما المسلمون فقد ملأت هذه الفجيعة قلوبهم تفطراً ونفوسهم تفكراً وعبرة .

وواصل القشتاليون الزحف ينتزعون من الغرناطيين ما يمكنهم انتزاعه من الحصون والمعاقل الرابضة على حدود المملكه . فانتزعوا حصن اللقوق، وهو [حصن عينه لأرض الكافرين مراعيه، وأذنه لسماع أخبارهم واعيه]، وكذلك حصن أرجذونه [المعقل الذى شهاب عزازته متألق، وكفّ منعته بالسماء متعلق، ينظر أرض العدى عن كثب، ويلاحظ العدو إذا وثب، ويحذر من مكائده، وينذر من مراصده [١٧٧]] .

وإزاء هذا البلاء الأعظم، عادت غرناطة على لسان سلطانها، سعد المستعين بالله، إلى الاستنجاد مرة أخرى بسلطان مصر الظاهر خشقدم، فى رسالة مؤرخة فى شهر جمادى الأولى ٨٦٨ / يناير - فبراير ١٤٦٤ . وقد بعث إليه بهذه الرسالة على يد الشيخ أبو عبد الله محمد بن الفقيه، يستصرخ به ويستغيث بنصرته بوصفه [أمير المؤمنين وولىّ المسلمين، وناصر الدين، والقائم على أصوله]، ومشيراً فيها إلى سابق المعونة التى قدمتها مصر من قبل إلى غرناطة، وإلى الأبواب السلطانية التى امتد نوالها المتواصل عليها [١٧٨] .

وإذا كانت المراجع العربية المعاصرة لم تذكر لنا شيئاً من أخبار هذه السفارة، فمما لا ريب فيه، بناءً على الشواهد السابقة [١٧٩]، أن مصر بادرت بتقديم المدد والمعونة، من الأسلحة والعتاد،

حسب ما تفرضه عليها حقوق الأخوّة فى الدين والتزاماتها إزاء المسلمين قاطبةً بوصفها قلب الإسلام ومعقل العروبة .

ولكن هيهات أن يكون لهذه المعونة أى وزن فى الوقت الذى كانت تمر فيه غرناطة بفترة من أحلك فترات تاريخها . إذ كانت مسرحاً للحرب الأهلية بين السلطان سعد المستعين بالله وابنه أبو الحسن على؛ هذه الحرب التى استمرت سجالاً بينهما مدة طويلة والتى انتهت بوفاة السلطان الأب وانفراد ابنه بالسلطنة(١٨٠) .

* * *

وأما الحادث الثانى الذى يحتمل أن يكون قد دفع الرهبان لاستصدار هذا المرسوم موضع التعليق ، فهو أن فرسان الاسبتارية قاموا فى صيف عام ١٤٦٤ بالاستيلاء على ثلاثة سفن تابعة لجمهورية البندقية ، كانت محملة بالمتاجر لبعض التجار المراكشيين ، وذلك أثناء إبحارها قرب جزيرة رودس وهى فى طريقها من الإسكندرية إلى المغرب الأقصى . وكان هذا التجرّم من جانبهم انتقاماً لما قام به المماليك من تخريبٍ لأملاكهم بجزيرة قبرص بسبب مناصرتهم للملكة الشرعية شارلوت فى حرب الوراثة التى قامت فى هذه الجزيرة بينها وبين أخيها الدعىّ جيمس . وهى الحرب التى انتهت باستقرار جيمس على عرش المملكة بفضل إقرار السلطنة المملوكية ، صاحبة السيادة على الجزيرة ، لحقه فى العرش ومساعدتها له حربياً . وقد بلغت قيمة المتاجر التى استولى عليها الفرسان زهاء مائة ألف دينار ، فضلاً عن وقوع جميع

من كان بهذه السفن من المسلمين فى أسرهم(١٨١) . ويذكر المؤرخ أبو المحاسن أن السلطان ، عندما علم بهذا النبأ ، أمر بالقبض على جميع تجار البنادقة المقيمين بسائر أرجاء المملكة مع مصادرة أموالهم وبضائعهم . وإزاء هذا الإجراء الانتقامى المضاد ، اضطر دوج البندقية إلى التدخل لدى رئيس الفرسان ، بل إلى استخدام القوة الحربية ضدهم حتى وافقوا على إرجاع هذه المتاجر وهؤلاء الأسرى ، فوصلوا إلى ثغر الاسكندرية فى شهر ربيع الآخر ٨٦٩/ديسمبر ١٤٦٤. وكان نجاح خشقدم موضعاً لزهوه وفخره فى حديثه مع أبى المحاسن ، فيسأله « هل وقع لملكٍ من ملوك مصر مثلها » ثم يضيف « سألنى جماعة من الفرنج السكوت على هذه القصة ويدفعون لى مائتى ألف دينار فلم أرضى إلا برد ما أخذوه وإطلاق الأسرى(١٨٢) .

* * *

وأخيراً فإن الفترة الزمنية الواقعة بين تاريخ تحرير رسالة سلطان غرناطة (جمادى الاولى ٨٦٨) وبين تاريخ صدور المرسوم الثانى للرهبان الفرنسسكان (صفر ٨٦٩) تكفى لوصول الرسول الغرناطى وتشرفه بمقابلة السلطان وعرضه على مسامعه مدى ما فيه المسلمون بغرناطة من ضيق وكرب ولا يخالجنا أدنى ريب، إذا ما نظرنا بعين الاعتبار إلى روح العصر ، فى أن هذه الرسالة قد أثارت لدى السلطان روح الاخوّة والوحدة الإسلامية ، وأهاجت فى نفسه مكامن الحقد والكراهية للفرنج عامةً . ومن الجائز أن يكون السلطان قد هدّد

باتخاذ بعض الاجراءآت الانتقامية المعتادة ضد الفرنج المقيمين فى دولته ، وعلى وجه التخصيص ، ضد الرهبان الفرنسسكان بدير صهيون . وهذه الاجراءآت ، كما أوضحنا من قبل ، من الوسائل الدبلوماسية الفعّالة التى كان يلجأ إليها سلاطين المماليك فى الضغط على دول الفرنج . ومما يزيد في قوة هذا الرأى ، أن استغاثة الغرناطيين قد جاءت فى الوقت الذى حدثت فيه غارة فرسان الاسبتارية على السفن التى كانت تقل التجار المراكشيين . ولا يخالجنا أدنى ريب فى أن انتقام السلطان كان سيمتد إلى جميع الفرنج ، تجاراً ورهباناً ، إذا ما فشل البنادقة فى مسعاهم لرد المتاجر والأسرى .

ويمكن القول إذاً ، بناءً على هذه الشواهد ، وإن أعوزتنا الأدلة الحاسمة بسبب صمت المراجع ، أن الخوف من التعرّض لانتقام السلطان هو الذى دفع الرهبان إلى استصدار هـذا المرسوم الثانى موضع التفسير .

الفصل الخامس

قايتباى

ثم جاء عهد قايتباى (٨٧٢ — ٩٠١/١٤٦٨ — ١٤٩٦) فكثرت أسباب الاحتكاك بالفرنج . إذ تعددت حوادث القرصنة ضد السواحل والموانىء المصرية . كما اشتدت قبضة جيوش فرديناند وإيزابلا ، ملكى أرغونه وقشتاله بعد أن تم اتحاد المملكتين تحت لوائهما ،[١٨٣] فى زحفها الأخير للقضاء على مملكة غرناطة آخر الممالك الإسلامية بالأندلس، وتحقيق هذه الأمنية العزيزة على نفوس الأسبان والتى ظلوا يكافحون من أجلها عدة قرون . وقد دفع ذلك سلطان غرناطة إلى الاستغاثة وطلب النجدة العاجلة من قايتباى ، كما فعل أسلافه من قبل من الاستنجاد بكلٍ من جقمق وخشقدم .

وفضلاً عن ذلك فقد طرأ على تاريخ العلاقات بين الدولة المملوكية والفرنج عامل جديد له خطورته القصوى . وذلك أن جم سلطان، أخ بايزيد الثانى ومنافسه على عرش السلطنة ، قد حلت به الهزيمة أمام قوات أخيه بآسيا الصغرى واضطر إلى الالتجاء إلى فرسان الاسبتارية بجزيرة رودس . وقام هؤلاء بالتحفّظ عليه ونقله إلى أحد قصورهم بجنوب فرنسا إلى أن يتم اتفاق الفرنج بشأن تقرير مصيره، وليكون بعيداً عن محاولات كلٍ من العثمانيين والمماليك لاستعادته[١٨٤]. وذلك لأن نجاح أحد الفريقين فى استعادته قد غدى عنصراً حيوياً من عناصر اكتساب الحرب الضروس الدائرة بينهما[١٨٥]. ومن ثمّ رأت البابوية، صاحبة الرأى الأعلى فى تقرير مصيره ، استغلال هذا العامل لمساومة

قايتباى على تحقيق مطالب الرهبان الفرنسسكان واستعدادتهم لهذا القبو.

وفيما عدا هذه العوامل الخارجية المتصلة بعلاقة الدولة المملوكية بالفرنج، والتى كان ينعكس صداها على كيان الرهبان الفرنسسكان فى فلسطين بحكم وضعهم الدينى والسياسى، لم يكن هناك ما يدعو إلى إساءة معاملتهم واضطهادهم. فكانوا محل الرعاية والأمان والعدل، واهتمام الدولة بإزالة أسباب شكواهم ورفع المظالم عنهم واستجابتها التامة لمطالبهم فيما يختص بعمارة كنائسهم وأديرتهم وترميم ما تخرّب منها. فقد حصلوا فى عهد قايتباى على عدة مراسيم سلطانية وعلى عدة حجج من السلطات القضائية بالقدس تعالج شئون دينهم ودنياهم، وتشهد بمدى السماحة التى كانوا يعاملون بها. هذا فضلاً عما شهد به الحجّاج الغربيون من أن الرهبان الفرنسسكان كانوا على الدوام محلاً لرعاية السلطان، وعلي وجه التحصيص، محلاً لرعاية الدوادار الكبير يشبك من مهدى، أعظم الأمراء نفوذاً ومقاماً فى دولته إلى أن وافته المنية فى عام ٨٨٥ / ١٤٨١ [١٨٦].

وفى الوقائع كان قايتباى مثالاً لرجل الدولة العادل الحازم، الذى يحرص كل الحرص على إقامة قواعد العدالة بالنسبة لجميع المواطنين ولجميع المقيمين بدولته على اختلاف هيئاتهم وطوائفهم وعقائدهم. وليس أدل على ذلك، فى هذا المقام، من هذا المثال الذى يضربه لنا المؤرخ ابن إياس. فقد أمر السلطان، فى شهر رمضان ٨٧٩/فبراير-مارس ١٤٧٥، بقدوم قاضى القدس إلى القاهرة، هو وجماعة من أعيان

المدينة مكبّلين بالحديد، عندما علم بما نُسب إليهم من التسبّب فى هدم معبد لليهود بالقدس. وبعد أن عُرضت الدعوى أمام مجلس القضاة صدر الحكم بإعادة المعبد إلى ما كان عليه وتسليمه ثانيةً لليهود [١٨٧].

وانقضت أربع سنوات، منذ بداية سلطنته، دون أن يفكر الرهبان فى تجديد ما بيدهم من مراسيم سلطانية سابقة، حسبما جرت العادة بذلك فى أول عهد كل سلطان. ربما كان ذلك لشعورهم بالاطمئنان والأمان، حتى وقعت بعض الحوادث الفردية من العامة أو من المماليك من التشويش والاعتداء عليهم، دعتهم إلى التماس صدور مرسوم للقضاء على أسباب الشكوى وردع المعتدين. وقد استجاب قايتباى لمطلبهم، وصدر ذلك المرسوم المؤرخ فى ٨ ذى القعدة ٨٧٦/١٧ ابريل ١٤٧٢ يؤكد إقرار مالهم من امتيازات وحقوق ويمنع أسباب الأذى عنهم [١٨٨].

ثم بدأت عوامل تغيّر السلطات عليهم تظهر فى الافق، فقراصنة الفرنج عادوا إلى شن غاراتهم على الثغور والسواحل المصريه. ففى عام ٨٧٧ / ١٤٧٢ - ١٤٧٣ قبض نائب الاسكندرية على جماعة منهم كانوا يتجرّمون بالشواطىء القريبة من الثغر، ثم أرسلهم إلى القاهرة حيث أمر السلطان بسجنهم [١٨٩]. وقد استدعى ذلك اتخاذ الاجراءآت الكفيلة بحماية السواحل من تعبّثهم، فخرجت على الفور إلى جهة الطينة تجريدة عسكرية لتعقبهم. وعند وصولها إلى هناك وجدت عدة مراكب للفرنج تقطع البحر على مراكب المسلمين بين مصر وسوريّه، إلا أنها استطاعت الاستيلاء على أحد مراكبهم وأسر من عليها من الفرنج [١٩٠].

وفى شهر محرم من العام التالى / مايو ١٤٧٣ وردت الأنباء إلى القاهرة بتجرّم الفرنج بسواحل الاسكندرية وأنهم أسروا من المسلمين تسعة رجال ، ثم تحولوا إلى ثغر دمياط يخرّبون وينهبون . فبادر السلطان بتجهيز قوة بحرية بقيادة أحد الأمراء مقدمى الألوف لمطاردة هؤلاء القراصنة أينما ساروا فى البحر الأبيض (١٩١) . وعلى الرغم من ذلك، فقد تمكنوا من مواصلة عدوانهم الاجرامى . ففى شهر رمضان ٨٨٠/ ديسمبر ١٤٧٥— يناير ١٤٧٦ شن القراصنة البروفنساليون غارة على ميناء الاسكندرية وقاموا بأسر بعض كبار تجارها ، منهم ابن عُليبه تاجر السلطان ، ثم توجهوا بهم إلى بلاد الفرنج . وإزاء هذا الإصرار وهذه الحملة الإجرامية المنظمة لم يسع السلطات المملوكية إلا أن تقابل هذا العدوان بالقبض على جميع تجار الفرنج المقيمين بالاسكندرية مع مصادرة أموالهم ومتاجرهم ، وإلزامهم بمكاتبة ملوك الفرنج لاطلاق سراح التجار المسلمين (١٩٢) . غير أن هذه الاجراءآت التحفّظية ضد تجار الفرنج ، وهذا السعى من جانبهم لم يؤديا إلى تسوية هذه الأزمة، مما دفع السلطان إلى زيادة الضغط من جانبه لدى ملوك الفرنج . فأمر فى أول محرم ٨٨١/٢٦ أبريل ١٤٧٦ بالقبض على جميع الرهبان الفرنسسكان المقيمين بدير صهيون وبيت لحم وكنيسة القيامة وإرسالهم إلى القاهره (١٩٣) . وكان لهذه الخطوة الثانية أثرها السريع، إذ استجاب البروفنساليون لوساطة رئيس الفرسان الاسبتارية وأطلقوا سراح التجار المسلمين بعد أن اشتروا أنفسهم — على قول ابن إياس—

« بمال له صورة وقد جرى عليهم أمور يطول شرحها حتى خلصوا من بلاد الفرنج ، واستمر ابن عُليبه من يومئذٍ مريضاً إلى أن مات بعد مده (١٩٤) » .

وواضحٌ تماماً أن هذا الإجراء الذى تعرض له الرهبان ، لم يكن الدافع إليه ، كما يزعم بعض الكتاب الأوروبيين الذين أعماهم التعصب عن ذكر الأسباب الحقيقية التى دفعت السلطات المملوكية إلى اتخاذه ضدهم ، هو مجرد شعور الكراهية إزاءهم والرغبة فى التنكيل بهم. (١٩٥) وإنما كان إجراءً اضطرت الدولة ، كما اضطرت فى ظروفٍ مماثلة من قبل ، إلى اتخاذه ضدهم لإجبار الفرنج على إعادة أسرى المسلمين بعد أن فشل إجراؤها الأول إزاء تجارهم . كما كان هذا الإجراء ضرورياً لإجبار قراصنة الفرنج على إيقاف غاراتهم على السواحل والموانىء الإسلاميه . وما أن زال هذا الخطر، لم يعد هناك ما يدعو إلى التضييق عليهم ، فأطلق سراحهم وعادوا إلى أديرتهم يباشرون شئون دينهم ودنياهم فى ظل التسامح الذى يعاملون به . وليس أدل على ذلك من دراسة الوثائق الخاصة بهم . فقد حكم قضاة القدس لصالحهم فى قضيتين مدنيتين رفعتا منهم ضد بعض الاهالى ، كما تشهد بذلك الحجتان الصادرتان فى عامى ٨٨٣ و ٨٨٤ /١٤٧٨و١٤٨٩ (١٩٦) .

وعندما تقدموا يطلبون الإذن لهم بعمارة سقف كنيسة المهد ببيت لحم، الذى أوشك على السقوط بسبب كثرة الأمطار وتمادى السنين ، سارع السلطان إلى العمل على تحقيق هذا المطلب . فأصدر فى ١٣ ربيع الأول

٨٨٥ / ١٣ إبريل ١٤٨٠ مرسوماً إلى نائب القدس يأمره بتمكينهم من
عمارة سقف الكنيسة على الوجه الشرعى وعلى هيئة ما كان عليه أولاً
ووفقاً للفتاوى التى أفتى بها القضاة والفقهاء من قبل زمن السلطان
برقوق وابنه فرج [١٩٧] . كما قام قضاة القدس فى ٦ شوال / ٩ ديسمبر
بتحرير حجة بذلك لتكون بمثابة أمرٍ تنفيذيٍّ ببدء العمل [١٩٨] .

* * *

ومضت السنوات والرهبان يعيشون فى سلامٍ لا يعكر صفو
حياتهم ولا يعوقهم عن أداء رسالتهم الدينية شىءٌ ما ، حتى أخذت
تتوارد على القاهرة أخبار هزائم الغرناطيين أمام جيوش فرديناند
وايزابلا فى هجومها الأخير على مملكة غرناطه [١٩٩] . ففي شهر ذى
القعدة ٨٩٢ / نوفمبر ١٤٨٧ تسلمَّ قايتباى رسالة من صاحب غرناطة
ينهى فيها إلى مسامعه أن فرديناند وايزابلا قد أوشكا على الاستيلاء
على مملكته ، وأنه يستغيث به ويتوسل إليه إرسال تجريدة تعينه
على قتالهم . ويضيف ابن إياس ، فى روايته لهذا الخبر ، أن السلطان
طلب من قسس كنيسة القيامة بالقدس مراسلة ملك نابلى مهدداً إيّاهم
وبقية ملوك الفرنج بالقبض عليهم وغلق كنيسة القيامة [٢٠٠] .

ورواية الخبر على هذه الصورة، ربما يفهم منه أن المؤرخ المصرى قد
خلط بين إسم فرديناند الأول ملك نابلى وبين سميّه فرديناند الثانى
ملك أرغونة وزوج إيزابلا ملكة قشتاله [٢٠١] . وحقيقة الأمر أن
إرسال الرهبان إلى ملك نابلى قد فرضته الأحوال السياسية المعاصرة

وطبيعة علاقات الدولة المملوكية بهذا العاهل . اذ كانت تسيطر على
الجو السياسى وقتذاك مسألة على جانب كبير من الأهمية ، وهى مشكلة
العرش القبرصى وتجدد النزاع عليه ، بعد وفاة ملك قبرص جيمس الثانى
فى عام ١٤٧٣ . وهو النزاع الذى نشب بين زوجته كاترين كورنارو إحدى
شريفات البندقية ، وأخته شارلوت التى كانت قد أقصيت عن العرش .
واشتد هذا النزاع بعد وفاة وريثه ابنه الطفل جيمس الثالث فى العام التالى .
وكان فردیناند الأول ملك نابلى يطمع فى استغلال هذا النزاع لإجلاس
أحد أبنائه ، دون الونزو Don Alonzo على عرش الجزيرة عن طريق
تزويجه بالأميرة شارلا إحدى بنات الملك المتوفى ، أو عن طريق
تبنّى شارلوت له ، أو بتزويجه أخيراً من كاترين كورنارو بعد وفاة
الأميرة التى كانت مرشحة للزواج به . وكانت جمهورية البندقية
بدورها تطمع فى وضع يدها على قبرص بحجة حماية حقوق « ابنتها »
كاترين كورنارو فى العرش . وفى هذا الصراع لجأ فردیناند الأول
ملك نابلى إلى السلطان قايتباى بوصفه صاحب السيادة الشرعية على
الجزيرة وصاحب الكلمة العليا فى تقرير مصير العرش القبرصى [٢٠٢] .

هذا ومن جهة أخرى . فإن رواية ابن إياس تنقصها الدقة فيما
يختص باسم صاحب غرناطه . فالذى أوفد هذه الرسالة إلى قايتباى ليس
هو سلطان غرناطة أبو عبد الله محمد (الحادى عشر) بن على ، الذى آثر
مهادنة فردیناند وايزابلا وكان وثيق الصلة بهما ، وإنما هو عمه محمد
(الثانى عشر) بن سعد الزّغل الذى انشق عليه واستقل بشطرٍ من

أراضى المملكة يتكون من وادى آش ومالقه وحمل راية الجهاد . ويبدو أنه أرسل هذه الرسالة بعد استيلاء الأسبان على مالقه فى العام السابق (٨٩١/ ١٤٨٩) وبعد أن خشى ضياع بقية ممتلكاته (٢٠٣) .

غير أن المراجع الأوروبية تمدنا بمزيد من التفاصيل. فالسلطان قايتباى قد كلف رئيس ديرصهيون، الراهب انطونيو ميلان Antonio Millan ، وكان بمحض الصدفة قشتالياً ، هو وأحد الرهبان الإيطاليين بهذه المهمة الدبلوماسية لدى فرديناند الأول ملك نابلى ، والبابا أنوسنت الثامن ، وفرديناند وإيزابلا ملكى أرغونه وقشتاله . إذ فضلاً عن المصالح المشتركة بين ملك نابلى وقايتباى ، فهناك رابطة القرابة التى تجمع بينه وبين فرديناند ملك أرغونه . كما أن توجيه هذه السفارة لدي قداسة البابا ، والتهديد باضطهاد الرهبان الفرنسسكان وغلق كنيسة القيامة وغيرها من الكنائس والأديرة بفلسطين لا يخلو من أهمية كبرى . فهذا التهديد سيثير البابا لا محالة فى ذلك وسيدفعه لاستخدام نفوذه الروحى فى إقناع فرديناند وايزابلا بإيقاف الهجوم على غرناطة والكف عن اضطهاد المسلمين الذين آلت رعويتهم إليهما فيما انتزعوه من أراضى من مملكة غرناطه .

وغادر الرسولان القدس فى أواخر عام ٨٩٢/١٤٨٧ إلى نابلى حيث قابلا فرديناند الأول ، ثم إلى روما حيث تشرفا بالمثول بين يدى البابا . وبعد ذلك واصلا الرحلة إلى أسبانيا حتى وصلا إلى معسكر فرديناند الثانى أمام أسوار مدينة بسطه (بازه) فى أواخر عام ٨٩٤/

١٤٨٩ ، وعرضا على مسامعه تهديدات قايتباى ورسالتى البابا وفرديناند الأول ملك نابلى إليه وإلى زوجته . غير أن حماسهما الدينى للإجهاز على مملكة غرناطة آخر الممالك الإسلامية بأسبانيا ، وتحقيق هذا الحلم الذى طال انتظار الأسبان له بعد أن أصبحت غرناطة قاب قوسين أو أدنى من السقوط ، قد طغى على تفكيرهما ، فرفضا الاستماع إلى هذه الوساطة وواصلا الهجوم الذى انتهى بسقوطها بعد ذلك بثلاث سنوات(٢٠٤) .

وعلى الرغم مما قامت به مصر من مسعى دبلوماسى لتدارك سقوط غرناطه ، فإن المقرى ، مؤرخ الأندلس ، يذكر أن الفقيه أبا عبدالله بن محمد بن الأزرق (المتوفى عام ٨٩٥/١٤٩٠) — ويبدو أنه هو الذى قام بحمل رسالة صاحب غرناطة إلى قايتباى — حاول أن يستنهض عزائم السلطان لاسترجاع الأندلس ولكنه « كان كمن يطلب بيض الأنوق أو الأبيض العقوق » . وهى إشارة كافية الدلالة على إعراض السلطان عن الاستجابة لهذه الاستغاثة(٢٠٥) .

وفى الواقع كان إرسال قوة حربية من مصر إلى الأندلس أمراً متعذراً فى هذه الفترة نظراً لأن الحرب المملوكية العثمانية التى بدأت فى عام ١٤٨٣ واستمرت حتى عام ١٤٩١ كانت على أشدها ، وكانت الدولة المملوكية تخشى الهزيمة فى هذه الحرب التى يترتب عليها ضياع كيانها ووجودها . فضلاً عن استحالة إرسال هذه القوة عن طريق البحر بسبب الحاجة إلى السفن اللازمة لحماها وبسبب سيطرة

الفرنج البحرية على حوض البحر الأبيض المتوسط ولا سيما على الجزء الغربىّ منه . كما أن إرسالها عن طريق البر لم يكن أمراً عملياً. وهذه الأسباب هى التي جعلت معونة الدولة المملوكية لغرناطة ، عندما استنجدت بها من قبل فى عهد السلطان جقمق وخشقدم ، تقتصر على إمدادها بالسلاح والعتاد والأموال[٢٠٦] . وهذا مالاشك فى حدوثه أيضاً من جانب قايتباى بالإضافة إلى هذا المسعى الدبلوماسى . غير أنه للأسف الشديد لم يكن لهذه المعونة أىّ أثرٍ فعال ، وذلك أن روح الانقسام والتفكك والتخاذل قد سادت البيت النصرى حتى فى أحلك اللحظات وآخرها فى حياة غرناطه .

* * *

وإذا كان فرديناند وإيزابلا قد ضربا عرض الحائط بتهديدات قايتباى ، فهل نفّذ السلطان وعيده للرهبان الفرنسسكان وللعالم المسيحى ؟ لم يحدث شيء من هذا ، إذ أن مجريات الأمور السياسية تطورت خلال العامين الأخيرين تطوراً أفقد هذا التهديد أهميته السياسية وأعطى للبابا فرصة السيطرة على الموقف ، وذلك أن البابا أنوسنت الثامن كان قد نجح فى مفاوضاته مع ملك فرنسا شارل الثامن بصدد نقل جم سلطان من القصر الذي كان يعيش فيه فى جنوب فرنسا إلى روما .فغادر جم فرنسا فى ٨ نوفمبر ١٤٨٨ ووصل إلى روما فى ١٣ مارس ١٤٨٩ ليستقر به المقام فى القصر البابوى. وخشى قايتباى أن يكون هذا بدايةً لتسليمه إلى أخيه السلطان بايزيد الثانى ولذلك

ركز اهتمامه الدبلوماسى لإقناع البابا بتسليمه إليه ، وخاصةً أن العثمانيين والمماليك كانوا يستعدون للجولة الثالثة والأخيرة فى هذه الحرب الناشبة بينهما منذ سنوات [٢٠٧] .

وظهر صدى هذا التحول فى الموقف السياسى بالقدس . إذ بادر الرهبان إلى انتهاز هذه الفرصة السياسية واستغلالها لكسب مكاسب جديدة لهم . ففى شهر صفر ٨٩٤ / فبراير ١٤٨٩ أقاموا كنيسة محدثة بالقرب من دير صهيون ، فوق المكان الذى يزعمون أن به مقام السيدة مريم عليها السلام . وهذا المكان هو الذى عاشت به السيدة مريم مدة الأربعة عشر عاماً التى أعقبت رفع ابنها السيد المسيح إلى حين وفاتها . ويقال إن بناءهم لهذه الكنيسة قد تم بمساعدة نائب القدس الأمير دقماق الأشرفى عن طريق بذل المال له [٢٠٨] .

وبناء الكنائس المحدثة فى بلاد الإسلام أمرٌ لا يجيزه الشرع بمقتضى عهد عمر بن الخطاب لبطريق بيت المقدس زمن الفتح العربى ، ولا يسمح بعمارة القائم منها إلاّ على هيئة ماكانت عليها أولاً وبالقدر الذى يحفظ كيانها ويمنعها من السقوط [٢٠٩] . كما أن العرف قد جرى بالنسبة للرهبان الفرنسسكان، على وجه التخصيص، على ألاّ يقوموا بأى ترميم أو عمارة لكنائسهم إلاّ بعد استصدار مرسوم سلطانى ، وبعد استصدار الفتاوى والحجج الشرعية من قضاة القدس وفقهائها التى تأذن لهم بذلك وتجيزه .

غير أنهم ، فى هذه المرة ، خرجوا على هذه القاعدة الشرعية وعلى

ذلك العرف ، ثم أتبعوا هذه الخطوة بالمطالبة باستعادة ملكيتهم للقبو موضع النزاع . وقد استجابت السلطات المملوكية للنظر فى هذا المطلب ؛ ففى شهر شعبان من نفس العام / يوليو ١٤٨٩، ورد إلى القدس مرسوم على يد قاصدٍ من قبل الأمير الكبير أزبك يتضمن شكوى الرهبان من أن القبو يعتبر من حقوق ديرهم ، وأنه كان مدفناً لموتاهم . كما يتضمن المرسوم عدم صحة مازعمته جماعة من المسلمين من أن به قبر سيدنا داودعليه السلام،وأن بعض العلماءقد أفتى بأنه من استحقاق الرهبان ، وأنه لايجوز أن يكون مسجداً لكونه كان مقبرة ، ويطلب من المسئولين بالقدس تسليمه إليهم وعدم معارضتهم فى ذلك . غير أن المجلس الذى انعقد لبحث هذا الموضوع انصرف دون أن يصل إلى حل له .

وواقع الأمر أن السلطات المملوكية كانت ترغب فى إرضاء البابا وقتذاك ، واقتضت الضرورة أن تتخلى للرهبان الفرنسسكان عن هذا المكان المقدس الذى يدّعون ملكيتهم له فى سبيل تحقيق هدف أكبر يتعلق بكيان الدولة ذاتها فالمماليك ، على الرغم من انتصارهم السابق على العثمانيين فى عام ١٤٨٦ وفى على ١٤٨٨ ، كانوا يخشون الهزيمة فى الجولة الثالثة ، علماً منهم بقوة العثمانيين الصاعدة وشعوراً منهم بالمتاعب الداخلية التى تعانيها الدولة بسبب الافتقار إلى المال اللازم لمواصلة هذه الحرب (٢١٠) . وكانوا يرون استعادة جم سلطان خير ضمانٍ لكسب هذه الحرب ، أو على أقل تقدير ، لإلقاء الرعب فى قلب

أخيه السلطان بايزيد الثانى وإجباره على وقفها .

فما أن علم السلطان قايتباى بوصول جم سلطان إلى روما حتى سارع بإرسال سفيرٍ من قبله لاقناع البابا بتسليمه إليه أو لأحد أعداء السلطان العثمانى ، كملك نابلى أو ملك المجر ، لكى يتحقق له النصر النهائى على العثمانيين ولكن السفير المصرى أخفق فى مساعيه نظراً لأنه كان يوجد بروما ، فى نفس الوقت ، سفير من قبل بايزيد الثانى يبذل نفس الجهود . واكتفى البابا بمباركة جهود قايتباى فى حربه ضد العثمانيين وتشجيعه على المضى فيها ، أملاً فى إضعاف شوكتهم وانتظاراً للوقت الذى تجتمع فيه كلمة ملوك الفرنج على القيام بحملة صليبية ضد الدولة العثمانية . وكانوا يتوقعون نشوب الحرب الأهلية داخل الأراضى العثمانيه إذا ماتقدم جم سلطان على رأس القوات الصليبية كمطالب بحقه فى عرش السلطنه . كما وجد البابا فى الابقاء على جم سلطان فى قبضته فرصة ذهبية لمساومة قايتباى فى الحصول على بعض المكاسب للكنيسة الكاثوليكية بفلسطين. فأوفد رسولاً من قبله إلى القاهرة لمقابلة السلطان، وقد تمت المقابلة الأولى بينهما فى يوم ٦ أغسطس ١٤٨٩ . ونحن نرجح وجود الرسول البابوى بالقاهرة خلال شهر يوليو، إذ كانت الأصول الدبلوماسية تقضى بأن يقابل القصّاد والرسل والسفراء كبار رجال الدولة أولاً ،مثل كاتب السر الشريف والأمير الكبير والدوادار الكبير، وذلك لبحث الموضوعات التى سيتناولها البحث قبل التشرف بمقابلة السلطان . ولذلك فإن صدور هذا المرسوم من جهة الأمير الكبير أزبك (يوليو ١٤٨٩) بخصوص تحقيق مطلب الرهبان الفرنسسكان ، أمرٌ

اقتضته الضرورة الدبلوماسية لنجاح السلطان في مباحثاته مع الرسول
البابوى بشأن تسلّم جم سلطان . ثم تشرف الرسول البابوي بمقابلة
السلطان للمرة الثانية فى ١٦ سبتمبر وبحضور الأمير تغرى بردي
كبير التراجمة بالبلاط المملوكى .

ويبدو أن المباحثات بينهما كانت توحى بالأمل بصدد استعادة
جم سلطان . إذ أنه بعد سفر الرسول البابوى من الإسكندرية فى
شهر نوفمبر ١٤٨٩ على القطائع الجنوية ، (٢١١) عاد الأمير الكبير
أزبك إلى إثارة موضوع القبو مرةً ثانيه . فعند وصوله إلى مدينة
الرملة بفلسطين على رأس الحملة الثالثة التى جردها قايتباى إلى آسيا
الصغرى ضد الجيوش العثمانية ، والتى خرجت من القاهرة فى ٢٢
ربيع الثانى ٨٩٥ / ١٥ مارس ١٤٩٠ (٢١٢) ، كتب مرسوماً ثانياً إلي
مشايخ الإسلام والقضاة ببيت المقدس يقضى بإعادة النظر فى موضوع
استحقاق الرهبان لهذا القبو وتسليمه إليهم إذا ما ثبت حقهم فى ذلك
على الوجه الشرعى . فانعقد المجلس بالمدرسة التنكزية يضم مشايخ
الإسلام والقضاة وناظر الحرمين ونائب القدس ، وانتهى باتخاذ قرارٍ
بأن هذا المكان (به محراب إلى جهة القبلة وأنه بأيدى المسلمين
من تقادم السنين) ، ثم كتب المجتمعون بذلك محضراً وأرسلوه
إلى السلطان . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل كتب شيخ الإسلام
الكمالى بن أبى شريف كتابين إلى السلطان ، أحدهما خاص بالكنيسة
المحدثة التى أقامها الرهبان فوق مقام السيدة مريم ، والثاني خاص

بالقبو الذى يقال أن به قبر سيدنا داود . كما انهالت الشكاوى منهم
ومن جمهور المسلمين بالقدس على السلطان ضد نائب القدس وناظر
الحرمين ، الأمير دقماق الأشرفى ، واتهموه بالجور والظلم وأنه هو الذى
سمح للرهبان الفرنسسكان بإقامة هذه الكنيسة المحدثة بما
بذلوه له من أموال . فضلاً عن أنه سمح لنفسه ، دون الرجوع إلى
السلطان أو إلى السلطات القضائية بالقدس ، كما جرت العادة بذلك ،
بإصدار مرسومٍ فى ١٧ ذى الحجة ٨٩٤ / ١١ نوفمبر ١٤٨٩ بتمكين
الرهبان من ترميم سور دير بيت لحم (٢١٣) .

واقتضى رأى قايتباى ، إزاء هذا الاصرار من جانب الرأى العام بالقدس ،
وإزاء هذه الاتهامات الموجهة إلى النائب وناظر الحرمين ، إرسال
أحد الخاصّكية إلى القدس وبيده مرسوم شريف بالتحرى عن أمر
النائب وتحقيق شكوى الرعية منه ، ومرسوم شريفٍ ثانٍ إلى الشيخ
الكمالى بن أبى شريف بتفويضه فى النظر فيما يحتاج إليه المسجد
الأقصى من العمارة وفى النظر فى موضوع الكنيسة المحدثة وموضوع
قبر سيدنا داود . فأما النائب فقد أقيمت عليه البيّنة من الأهالى ببلد
سيدنا الخليل وبالقدس وثبت ظلمه وجوره على الرعية ، وثبتت إداناته
فى بعض الأمور التى وجهت إليه . ثم اجتمع مشايخ الإسلام والقضاة
ومن انضم إليهم من جموع الأهالى فى محراب المسجد الأقصى يوم
الخميس آخر جمادى الآخرة ٨٩٥ / ٢٠ مايو ١٤٩٠ لبحث قضية الرهبان .
وتوالت الاجتماعات ، وكان آخرها الاجتماع الذى عقد فى ٢ رجب / ٢٢

مايو بدير صهيون بحضرة الرهبان الفرنسسكان . وبسؤال هؤلاء قرروا أنهم بنوا القبة المذكورة اعتماداً على أن القبر المنسى يوجد تحتها كما يدل على ذلك المحضر الذى بيدهم . إلاّ أنه ثبت بالبحث أن هذا القبر المنسى يوجد فى مكان آخر فى حاكورة بالقرب من القبة وأن أمره مجهول لايعلم ماهو ، وأن القبة المذكورة بنيت فوق المكان الذى يدّعى الرهبان أنه مقام السيدة مريم عليها السلام ، وقد أقيمت على صفة الكنائس . وبما أنه ثبت أن هذه الكنيسة محدثة فى دار الإسلام فقد تقرر هدمها وألزم رئيس دير صهيون بتنفيذ ذلك .

والقبر المنسى هذا الذى جاء ذكره فى رواية مجير الدين مؤرخ القدس هو الذى يعرف عند المسيحيين باسم محراب مريم Oratoire de Marie ، وهو غير المكان الذى توفيت فيه ثم رفعت منه إلى السماء بعد إغفاءة قصيرة حسب اعتقاد الكاثوليك . وأما هذا المكان الثانى فيعرف لديهم باسم المضجع Dormition ويوجد قريباً من المكان الأول من ناحية الشمال ، ونظراً لتقاربهما فقد اختلط أمرهما على الحجّاج الكاثوليك . وقد اعترف الكتاب الأوربيون الذين اهتموا بدراسة الأماكن المسيحية المقدسة بالقدس بصحة ماجاء فى قرار مشايخ الإسلام خاصاً بهذا القبر (٢١٤).

وأما القبو الذى يقال أن به قبر داود عليه الإسلام ، فقد تحرّر من أمره أنه استقر بأيدى المسلمين بمقتضى مرسوم السلطان جقمق فى عام ٨٥٦/ ١٤٥٢ وُبنى به وقتذاك قبلةٌ إلى جهة الكعبة ، وأنه لم يثبت

ما يقتضى استحقاق الرهبان لتملّكه ولا مايسّوغ إخراجه عن أيدى المسلمين . ثم كتب المجتمعون محاضر بما تحرّر من أمر القبة والقبر ، ومن أمر النائب وأرسلوها إلى السلطان (٢١٥) .

ويمكن القول بأن المرسوم الثالث الذى أصدره السلطان (جمادى الآخرة ٨٩٥/ مايو ١٤٩٠) قد اضطر إلى إصداره تجاوباً مع شعور الرأى العام الإسلامى بالقدس وهياجه ضد الرهبان وضد النائب والناظر على الحرمين الشريفين ومن الجائز أن يكون السلطان قد تحمس لاتخاذ قرار نهائى حاسم فى موضوع القبة والقبر بعد أن فقد الأمل فى إمكان تسليم البابا جم سلطان له ، أو بعد أن زالت مخاوفه من جانب العثمانيين وتأكد من النصر عليهم وهو ما تم فعلاً (٢١٦) .

وإذا كنا قد لمسنا ، خلال هذا العرض للحوادث ، الدور الذى قام به المشايخ والفقهاء من تعبئة الرأى العام الإسلامى بالقدس للحيلولة دون عودة تملّك الرهبان لهذا المقام المقدس ، وكذلك الدور الذى قام به بعض ملوك الفرنج والبابوية من تهديدٍ وضغطٍ ومساومةٍ من أجل استعادة الرهبان لهذا المكان ، فلا يمكننا أن نغفل دور اليهود فى ذلك النزاع . لقد كان اليهود فى عهد كلٍ من السلطان المؤيد شيخ وبرسباى خصوماً للرهبان فى هذا النزاع ، وتمكنوا من تملّك القبو مرتين . وإذا كانوا قد فشلوا فى استغلال حوادث القدس ضد الرهبان فى عهد السلطان جقمق لصالحهم ، فلا أقلّ من أن يعملوا على حرمانهم

منه . وقد أشرنا من قبل إلى أن مقابلة الرسول البابوى الثانية للسلطان فايتباى قد تمت فى ١٦ سبتمبر ١٤٨٩ بحضور الأمير تغرى بردى كبير التراجمة بالبلاط المملوكى ليقوم بمهمة الترجمه. فمن هو تغرى بردى هذا ؟

إنه كما يذكر الحاخام مسحولام Meshullam ، الذي حجّ إلى بيت المقدس عام ١٤٨١ ، أحد اليهود الأسبان الذين ارتدوا عن اليهودية واعتنقوا الإسلام بعد أن انخرط فى سلك المماليك . وقد أهّلته معرفته للغات ، التى يتكلم منها سبع ، لأن يتولى هذا المنصب بالبلاط المملوكى [٢١٧] .

ويتفق معه فى الرأى بيير مارتير دى أنجيرا Pierre Martyr D'Anghiera الذى جاء إلى القاهرة فى عام ١٥٠١ — ١٥٠٢ سفيراً من قبل فرديناد وإيزابلا ملكى أرغونه وقشتاله لدى السلطان الغورى . غير أنه يضيف إلى ذلك مزيداً من التفصيل عن قصة حياته . فيروي أن أباه من يهود مدينة بلنسيه يدعى لويس دى براتو Louis de Prato . وقد ولدله ابنه هذا بمدينة مون بلانكو Monblanco ، إحدى المدن الواقعة على الحدود بين المسلمين والمسيحيين بأسبانيا . ثم ألحقه أبوه وهو صغير السن بالعمل مع أحد ربابنة السفن، غير أن السفينة التى كان يعمل عليها تحطمت بالقرب من الشاطىء المصرى بعد أن هبّت عليها عاصفة هوجاء ، فوقع فى أسر السلطات المملوكية وظل به مدة ثلاث سنوات قاسى خلالها أهوالاً شديده . وتبع تحرّره اعتناق الإسلام وأصبح

أحد المماليك وتسمىّ باسم تغرى بردى الذى عُرف به . وما لبث أن ترقَّى إلى مرتبة الإمرة وعُين فى هذه الوظيفه [٢١٨] .

غير أن الرحالة الألمانى بريدنباخ Breydenbach [٢١٩] وزميله فيلكس فابر Felix Faber [٢٢٠] اللذّين زارا القاهرة وقاما بتأدية فريضة الحج فى عام ١٤٨٣ يعطيان صورة واضحة عن شخصيته . فهو من يهود صقليّه ، ولمّا بلغ مبلغ الشباب انخرط فى سلك الكهنوتية ووصل في مراتبها إلى مرتبة الحاخاميّه . إلاّ أنه سرعان ما تحول عن اليهودية إلى المسيحية وتردد على مدارس اللاهوت بروما حيث ألمّ إلماماً تاماً بالديانة المسيحية أهّلته لأن يُرسّم قسيساً . وبعد أن قام بأداء هذه الوظيفة بعضاً من الوقت فرّ هارباً إلى مصر . ولكى يحقق آماله العريضة فى المجد والجاه لم يكن أمامه سوى أن ينخرط فى سلك المماليك ، واقتضى ذلك ارتداده عن المسيحية واعتناقه الإسلام . ونظراً لمعرفته لعدد كبير من اللغات ، وأهمها اللغة اللاتينية ، فقد عيّن كبيراً للتراجمه. ثم يضيف كل منهما إلى هذه الصورة المتقلبة الانتهازية صورةً أخرى عن جشعه وعن مدى استغلاله لمنصبه فى جمع المال .

وتغرى بردى بحكم أصله اليهودى وبحكم وظيفته بالبلاط المملوكى، التى سبق أن أوضحنا مدى أهميتها [٢٢١] ، لابد من أن يكون له دورٌ فعالٌ فى توجيه مجرى الحوادث . حقاً لم يظهر اليهود على مسرح الحوادث أثناء هذه الأزمة فى عهد فايتباى ، وإنما كانوا من غير شك يرقبون تطور الأمور . وكانوا يعملون ، على أقل تقدير ، على حرمان الرهبان الفرنسسكان

من استعاده تملك القبو بعد أن وُفقوا فى اخراجه عنهم فى عهد كلٍ من السلطان المؤيد و برسباى. إذ كيف نتصور أن يكون اليهود بعيدين عن هذا النزاع والقبر الذى بداخل القبو قبر نبيهم داود عليه السلام . لقد كان اليهود، عندما تجدّد هذا النزاع للمرة الأخيرة فى عهد السلطان سليمان العثمانى، هم الذين ألبّوا الرأى العام الاسلامى بالقدس وأثاروها فتنةً هوجاء ضد الرهبان الفرنسسكان. ونحن وإن كنا لا نملك الدليل على إبراز هذا الدور الخفىّ لتغرى بردى، إلاّ أن معرفتنا ببقية تاريخ حياته ، وبمدى نفوذه فى توجيه سياسة الدولة ، ثم أتهامه أخيراً بالخيانة والتآمر على سلامتها مع الفرنج فى عهد الغورى، كل هذا يجعلنا نلمس خطورة شخصيته ومدى الدور الذى يمكن أن يؤديه لصالح أبناء جنسه (٢٢٢) .

* * *

وبعد أن فشلت هذه المحاولة لم ير الرهبان بداً من الاستسلام والانتظار لفرصة أخرى ملائمه. وأما السلطات المملوكية فقد استمرت فى رعايتها لهم حسبما تقضى به سماحة الدين الحنيف ، تدفع عنهم أسباب الظلم ، وتوفرّ لهم الضمانات الكفيلة باستمرارهم فى تأدية رسالتهم الدينيه . وهذا ما تشهد به الحجج والمراسيم الصادرة لهم فى السنوات الباقية من سلطنة قايتباى :

فى ١٧ جمادى الأولى ٨٩٧ / ١٧ مارس ١٤٩٢ حكمت السلطات القضائية بالقدس لصالحهم فى إحدى القضايا المرفوعة منهم ضد أحد الأهالى. (٢٢٣) وفى محرم ٨٩٩/ أكتوبر ١٤٩٣ طالب رهبان الجورجان (٢٢٤) بأن يكون لهم حق الإقامة مع رهبان الفرنسسكان

فوق نصف جبل طورزيتا ، وهو الجبل الذى صعد منه عيسى عليه السلام إلى السماء حين رفعه الله إليها ، والذى يعرف بجبل الصعود . كما طالبوا بأن يكون لهم حق المرور لإقامة الشعائر الدينية عند المذبح القائم فوق الجبل مكان مصعد عيسى والمعروف بالجُلْجلة أو بالساهره (٢٢٥) . وكان هذا الحق قد تقرر لطائفة الرهبان الفرنسسكان بمقتضى المرسوم الصادر لهم من السلطان الأيوبى العادل الثانى فى عام ٦٣١/١٢٣٣ ، وبمقتضى المراسيم الأخرى المؤيدة لذلك والصادرة بعد ذلك من قبل سلاطين المماليك (٢٢٦) ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان هذا المكان موضعاً للتنازع بين طوائف الرهبان المختلفه . وآخر تطورات هذا النزاع ما حدث فى عام ٨٨٠/١٤٧٥ من تداوله بين رهبان الأرمن والجورجان والفرنسسكان . وقد جاء قرار قضاة القدس، عندما نظروا مطالب رهبان الجورجان الأخيرة ، مؤيداً لأحقيّة رهبان الفرنسسكان فى الانفراد وحدهم بالإقامة فوق هذا الجبل (٢٢٧) .

وعندما اشتدت وطأة السلطات المحلية فى جباية الأموال منهم ومن الحجّاج اللاتين، التمسوا من السلطان تأكيد المراسيم السابقة التى بأيديهم حتى يرتدع من يتعرض لهم بظلمٍ أو بسوءٍ . وقد استجاب السلطان لالتماسهم هذا ، فأصدر فى ٩ رجب ٩٠٠/١٥ أبريل ١٤٩٥ مرسوماً إلى النوّاب والأمراء من المماليك بالقدس وبغيرها من مدن فلسطين يؤكد فيه من جديد وجوب احترام ما يتمتع به الرهبان الفرنسسكان من امتيازات وإعفاءات مالية ، كما يؤمّن الحجاج اللاتين أثناء إقامتهم فى ضيافة الرهبان الفرنسسكان ويوفر لهم حرية تأدية شعائر

الحج[٢٢٨] وفى مرسوم ثانٍ فى ٤ ذي الحجة من نفس العام/٢٦ أغسطس عاد السلطان إلى التنبيه على المسئولين بفلسطين من وجوب إعفاء الرهبان من دفع «موجب الخفر» الذى كانت تجبيه السلطات من الحجّاج اللاتين عند دخولهم فلسطين وعند زيارتهم للاماكن المسيحية المقدسه[٢٢٩]. ومن المعلوم أن الدولة المملوكية، نظراً لحاجتها الملحة إلى المال، كانت تتذرع بجباية هذا «الموجب» بحجة حماية الحجّاج، لأن حق إعفائهم من دفع رسوم الحج كان أمراً مقرراً منذ أيام السلطان صلاح الدين الأيوبى[٢٣٠]. ويبدو أن هذين المرسومين لم يكن لهما أثر فعّال من حيث ردع المسئولين من أمراء المماليك بفلسطين وامتناعهم عن جباية الأتاوات والمقرّرات منهم. ولذلك عاد السلطان فأصدر مرسوماً ثالثاً فى ٣٠ جمادى الأولى ٩٠١/١٥ مارس ١٤٩٦ لتذكيرهم بما للرهبان من حقوق[٢٣١].

ومما هو جدير بالذكر، أن ننوّه فى هذا المجال بأن هذه المظالم المالية التى كان يتعرض لها الرهبان الفرنسسكان والحجّاج اللاتين، لم يكن مبعثها التعصب الدينى ضدهم أو الكراهية لهم، وإنما كان ذلك من مفاسد النظام المملوكى. وليس أدل على ذلك مما كان يتعرض له الحجّاج المسلمون من جباية المكوس سواء ببلاد الحجاز أو عند عودتهم إلى القاهرة أو إلى دمشق[٢٢٢]. فقد كانت حاجة الدولة الملحة إلى المال، والجشع فى جمعه وابتزازه سواء من جانب السلاطين أو من جانب الأمراء ظاهرةً واضحةً فى عهد سلاطين الجراكسه.

الفصل السادس

الغـــورى

وانقضت بضعة سنوات بعد وفاة قايتباى (١٤٩٦/٩٠١) حتى آلت السلطنة أخيراً إلى قانصوه الغورى (٩٠٦ — ١٥٠١/٩٢٢ — ١٥١٦).[٢٣٣]

وليس فى هذه الفترة الانتقالية ما يخص علاقة الرهبان الفرنسسكان بالدولة المملوكية سوى ما قد تقرر ،حسبما جرى العرف عليه، من الإذن لهم فى عام ٩٠٣ / ١٤٩٧ — ١٤٩٨ بترميم ما تهدّم من دير صهيون[٢٣٤]، وكذلك الإذن لهم فى العامين التاليين بعمارة بعض الأماكن فى كنيسة القيامة التى أصابها ضرر بليغ بسبب السيول[٢٣٥].

ثم جاء عهد الغورى مليئاً بأسباب الاحتكاك بينه وبين الفرنج. ففضلاً عن الأسباب السابقة التى كانت تحركها القوى الصليبية ضد الدولة المملوكية ، من تآمرٍ مع الحبشة ، ومن غارات القراصنة على ثغورها وسواحلها ، ومن استنجاد المسلمين بغرناطة فى السنوات الأخيرة من استقلالها وما حدث من اضطهادهم وإجبارهم بحد السيف على اعتناق المسيحية ، فقد جَدّ فى الموقف السياسى عاملان خطيران هددا الدولة بالزوال والسقوط : هذان العاملان هما نجاح البرتغاليين فى الالتفاف حول أفريقيّة ووصولهم إلى شواطىء الهند فى عام ١٤٩٢، وما ترتب على ذلك من فرضهم الحصار على السفن المتجهة ببضائع الشرق الأقصى إلى البحر الأحمر ، وتهديدهم بلاد الحجاز والمقدّسات الإسلامية بالغزو والتخريب . ثم ظهور قوة الصفويّين بالشرق

الأدنى تدفعها أطماعها التوسعيّة وخلافها المذهبى مع الدولة المملوكية إلى التحرش بها والتطلع إلى التحالف مع الفرنج ضدها .

وفى غمار هذه الحوادث ، وتحت ضغط هذه الأعاصير التى تهب على الدولة من كل مكان ، كان الضغط على الرهبان الفرنسسكان والتهديد بتعذيبهم ، والتلويح بغلق كنيسة القيامة ، هى وبقية الكنائس الكاثوليكية الأخرى بفلسطين ، فى وجه حجّاج الفرنج ، آخر مافى طوق الدولة وقدرتها من وسائل دبلوماسية ، بعد أن أعوزتها السبل والوسائل للدفاع عن كيانها .

غير أنه من الملاحظ أن الرهبان الفرنسسكان ، على الرغم من الفرص الكثيرة التى أتاحتها لهم الأزمات العديدة فى هذه الفترة بين الفرنج والسلطان الغورى ، لم يحاولوا استغلال هذه الفرص من أجل استعادة القبو الذى يضم قبر داود عليه السلام والذى يدّعون أنه من حقوقهم . وفى الواقع إن ميزان القوى كان قد رجح فى جانب الفرنج بعد أن تحولت قوافل التوابل على يد البرتغاليين إلى أسواق لشبونه ، بدلاً من أسواق جدة ودمشق وبيروت والقاهرة والإسكندريه . والبرتغاليون بهذا العمل قد حققوا دوراً خطيراً من أدوار الكفاح الصليبى ، ألا وهو حرمان الدولة المملوكية من مصدر ثرائها وقوتها . ثم انتقلوا بعد ذلك إلى توجيه الضربات القاصمة ضدها فى البحر الأبيض وفى البحر الأحمر ، فى تعاونٍ تامٍ مع فرسان الاسبتارية بجزيرة رودس ، وحسب خطةٍ موضوعةٍ منظمه .

ففى الوقت الذى يقوم فيه البرتغاليون بمهاجمة السفن الهندية المتجهة نحو جدّه ، والتجرّم فى البحر الأحمر ، كان قراصنة الفرنج وعلى رأسهم فرسان الاسبتاريه يقومون بنفس هذه المهمة فى البحر الأبيض . وذلك بقصد شل الحركة التجارية مع الموانىء المصرية والشامية وإعاقة السلطان عن بناء القوة البحرية اللازمة لمحاربة البرتغاليين . ومن ثمّ ، فقد أضحى استعادة الأراضى المسيحية المقدسة أملاً وشيك التحقيق . غير أن أملهم هذا سرعان ماتلاشى كالسراب ، بعد أن آلت السيادة على مصر والشام والحجاز إلى الدولة العثمانية بعد انتصارها على المماليك .

* * *

وقد هبت العواصف فى بادىء الأمر من ناحية المغرب . فبعد سقوط غرناطة فى عام ٨٩٧/ ١٤٩٢ انتقل فردينان وإيزابلا إلى مهاجمة السواحل المغربية ، يراودهما أمل استعادة شمالى افريقيه كما استعادوا أسبانيا [٢٤٦] . وقابل سلاطين المسلمين وأمراؤهم بالمغرب هذا العدوان بتوحيد صفوفهم والتحالف فيما بينهم ، ثم كاتبوا الغورى وطلبوا منه الانضمام إلى هذا الحلف ، والقيام من جانبه بطرد تجار الفرنج المقيمين بدولته وغلق كنيسة القيامة فى وجه حجّاجهم .

وما أن ترامت هذه الأنباء إلى فرديناند حتى بادر إلى العمل على إحباط مساعيهم ، فأوفد فى عام ١٥٠١ بيير مارتيردى انجيرا Pierre Martyr D'Anghiera سفيراً لدى الغوري . ووصل السفير إلى الإسكندرية فى

٢٣ ديسمبر ، إلاّ أن الغورى رفض فى بادىء الأمر ، تحت ضغط المسلمين واليهود الذين هاجروا من أسبانيا إلى مصر ، إعطاءه جوازاً للمرور والسماح له بالتوجه إلى القاهرة لمقابلته . فقد ذكروا للسلطان أن الحاشية التى بصحبته ليست كبيرة العدد ، وأنه لا يحمل أى هدايا له مما يعتبر إهانة لمقامه السلطانى . ولكن السفير تمكن بفضل وساطة قنصل الفرنسيين والكتلان بالإسكندرية من تذليل هذه العقبة ، فغادر الاسكندرية إلى القاهرة في ٢٦ يناير ١٥٠٢ ووصلها فى أول فبراير حيث كان فى أستقباله تغرى بردى كبير التراجمه . وتغرى بردى هذا ، كما أوضحنا من قبل ، من أصل يهودى أسبانى ، ومع ذلك فقد قام بتمهيد الجو لدى السلطان لاستقباله . وربما كان ذلك تحت تأثير المال وقد عرف عنه الجشع فى جمعه .[٢٣٧]

وفى المقابلة الأولى التى تمت فى اليوم التالى لوصوله ، وفى حضور رجال الدولة ، نجح السفير ، بفضل مهارة تغرى بردى في ترجمة الحديث الذى دار بينه وبين السلطان ، فى إقناع السلطان بحسن معاملة مليكه للمسلمين الذين آثروا الاقامة بأسبانيا ، وأنه يسّر الهجرة لمن رغب منهم فى الرحيل إلى شمالىّ إفريقية . ثم استقبله السلطان للمرة الثانية فى يوم ٢٦ فبراير بحضور تغرى بردى فقط ، وفى هذه المقابلة الخاصة وفّق السفير فى الوصول إلى اتفاق مع السلطان بخصوص عمارة كنيسة القيامة التى كانت قد أصيبت ببعض الأضرار منذ بضع سنوات مضت ، وكذلك عمارة بعض الكنائس الأخرى بالقدس والرملة وبيت لحم وبيروت . كما حصل على وعد من السلطان بتخفيف الرسوم

التى تجبى من الحجّاج اللاتين ، وعدم فرض الأتاوات والمقررات المالية عليهم ، وعدم التعرّض لهم بظلامة أو بسوء . ثم غادر القاهرة إلى الإسكندرية ، ومنها أبحر عائداً إلى أسبانيا فى أوائل شهر إبريل [٢٣٨] .

ونحن لا نرى أثراً لهذا الاتفاق فى المراجع العربية ، سواء من حيث الإشارة إليه أو من حيث تنفيذ ما نص عليه . وربما كانت رغبة السفير فى التهويل من أمر نجاح سفارته هى التى دفعته إلى هذه المبالغة ، وإظهار فرديناند فى ثوب حامى الفرنج وحامى المقدّسات المسيحية ، وربما كان تنفيذ ذلك الاتفاق مشروطاً بإيقاف حركة اضطهاد المسلمين بأسبانيا وهو ما لم يشر إليه السفير . وإذا ما رجعنا إلى الوثائق الخاصة بالرهبان الفرنسسكان ، لما لهم من صفة تمثيل الكنيسة الكاثوليكية بفلسطين ، لوجدنا أن ما أصدره السلطان من هذه الوثائق فى هذه الفترة مؤرخ بعد مغادرة السفير لمصر بحوالى عام ونصف ، وهذا مما يجعلنا نعتقد بأنه لا صلة إطلاقاً بين أسباب وظروف إصدارها وهذا الاتفاق . ففى ١٤ ربيع الثانى ٩٠٩/١٦ أكتوبر ١٥٠٣ صدر مرسوم يسمح لهم بإقامة دير بالرملة [٢٣٩] ، وفى ١٠ جمادى الأول من نفس العام /٣١ أكتوبر صدر مرسوم ثانٍ يقر جميع ما لهم من امتيازات وإعفاءات على حكم ما بيدهم من مراسيم سلطانية سابقة [٢٤٠] . وكيفما كان الأمر ، فما لبثت أن وردت إلى القاهرة أخبار جديدة عن اضطهاد المسلمين بالأندلس ، مما جعل هذا الاتفاق حبراً على ورق [٢٤١] .

هذا بالإضافة إلى أن البرتغاليين ، بعد أن ثبتت أقدامهم على شواطىء الهند ، بدأوا يهاجمون السفن المحملة بالبضائع الهندية إلى جدّة لقطع كل اتصال بها وتحويل متاجر الشرق الأقصى إلى أسواق لشبونه . ثم أخذ تجرّمهم فى المحيط الهندى يشتد عاماً بعد عام . ففى عام ١٥٠١ أغرق الأسطول البرتغالى فى ميناء كاليكوت Calicut بالهند بعض سفن التجار المصريين ، ومن بينها سفن تابعة للسلطان الغورى كانت على وشك الإبحار إلى جدّه (٢٤٢) .

وترتب على ذلك أن شحّت البضائع الهندية فى موانىء الدولة المملوكية وارتفعت أسعارها . ويكفي للدلالة على ذلك أن سفن البندقية لم تستطيع أن تحمل فى عام ١٥٠٢ من موانىء مصر والشام سوى نصف الكمية التى تعودت أن تحملها من قبل ؛ هذا فى الوقت الذى أعوز المال التجار البنادقة فى عام ١٤٩٨ لشراء جميع كميات البهار الموجودة بها . وقد تأثرت أسواق البندقية تأثراً كبيراً بهذا النقص واضطر التجار الألمان الذين يفدون إليها لشراء التوابل إلى التحول عنها إلى أسواق لشبونه (٢٤٣) . ففى أوائل سبتمبر عام ١٥٠٣ عاد فاسكو دى جاما إلى لشبونه من رحلته الثانية إلى الهند ، وكان على ظهر سفنه حمولة كبيرة من البهار لاتقل عن خمسة آلاف قنطار . الأمر الذى أدى إلى انخفاض سعره بأسواقها فأصبح يتراوح ما بين ٢٠ و ٤٠ دوكاه (العملة الذهبية للبندقية) .

ولكى نلمس ماأصاب الدولة المملوكية والبندقية من أضرار بسبب انصراف التجار الأوربيين عن أسواقها ، يكفى أن نذكر أن قنطار الفلفل فى مناطق إنتاجه بالهند كان يتراوح ثمنه بين ½ ٢ و ٣ دوكاه، ثم يرتفع بأسواق الإسكندرية إلى ٨٠ و ١٠٠ و ١٢٠ دوكاه حسب حالة العرض والطلب وحسب ماتفرضه حاجة السلطان إلى المال (٢٤٤) .

وإزاء مالحق البندقية من خسائر تجارية ، فقد أرسلت أحد مواطنيها ، بندتو سانوتو Benedetto Sanuto ، بماله من خبرة تجارية اكتسبها من اشتغاله بالتجارة بدمشق فترة طويلة ، رسولاً لدى الغورى لبحث الأخطار الناتجة عن تحويل البرتغاليين لتجارة البهار إلى أسواق لشبونه ، ومطالباً إيّاه بتخفيض ثمن البهار وبتخفيض الرسوم التى تجبى من تجار الفرنج . كما كان مكلفاً أيضاً بمطالبته بأن يقوم بإرسال سفراء من قبله لدى سلاطين الهند يدعوهم لقطع علاقاتهم التجارية بالبرتغاليين . إلاّ أن الغورى أوضح للرسول أنه ما لم تقم البندقية بمشاركته فى هذه الجهود وإمداده بالأخشاب والأسلحة اللازمة لبناء أسطول يتمكن به من مطاردة البرتغاليين في المحيط الهندى ، فهو عاجز عن مجابهة هذه الأخطار وحده . وهكذا عاد الرسول إلى البندقية فى سبتمبر ١٥٠٣ يحمل هذا الاقتراح لحكومته (٥٤٢) .

وبينما هذه المباحثات تدور في القاهرة، وردت الأخبار بأن فاسكو دى جاما هاجم أمام ساحل مالابار بالهند سفينة كبيرة ملكاً للغورى

كانت محملة بالبهار وعليها عدد كبير من الحجاج الهنود فى طريقهم إلى جده . وبعد معركة شديدة بينها وبين الوحدات البرتغالية استقرت السفينه بما فيها وبمن عليها فى قاع البحر(٢٤٦) . ومن ثم فقد اضطر السلطان إلى العودة إلى سياسة الضغط على البابا وملوك الفرنج ، وذلك لعجزه عن اتخاذ أى إجراء آخر . فكلف رئيس رهبان الفرنسسكان بدير صهيون ، الأخ مورو دى سان برناردينو Fra Mauro di San Bernardino ، ومعه راهبان آخران لإبلاغ دوج البندقية ، والبابا جوليوس الثانى ، وفرديناند وإيزابلا ملكى أرغونه وقشتاله ، وفرديناند ملك البرتغال أنه ما لم تتوقف حملة اضطهاد المسلمين بالأندلس وإرغامهم على اعتناق المسيحية ، وما لم يكف البرتغاليون عن تجرمهم العدائى فى مياه المحيط الهندى ، فإنه سيقوم من جانبه مضطراً ومكرهاً بقتل جميع الفرنج المقيمين بدولته تجاراً ورهباناً ، كما سيقوم بغلق كنيسة القيامه .

ووصل الرهبان الثلاثة إلى البندقية فى أوائل عام ١٥٠٤ . إلا أن البندقية مع اعترافها بمدى ما أصابها من خسائر من جراء احتكار البرتغاليين لتجارة البهار ، فقد أبدت عجزها عن اتخاذ إجراء ما ، سواء من حيث إمدادها المصر بالمعونة الحربية أو من حيث قيامها بعمل دبلوماسى لدى ملكى أسبانيا ولدى ملك البرتغال ، خوفاً من اتهام الفرنج لها بالخيانه . وفى الواقع إن هذا التحفظ من جانب البندقية قد أملته عليها دبلوماسيتها ذات الوجهين ، التى تميزت بها علاقاتها مع الدول الإسلامية ومع دول

الفرنج . ولذلك كانت حريصة على عدم التورط مع الغورى فى القيام علانية بأى عمل ، أو أى إجراء يتعارض مع الأهداف الصليبية ، وذلك على الرغم من جزعها الشديد على ضياع سيادتها التجارية بأوروبا . ومن ثم فقد اكتفت بإبداء المقترحات والحلول التى تمكن السلطان من القضاء على خطر البرتغاليين . هذا فضلاً عن أنه فى هذه الفترة التى جاءت فيها سفارة الرهبان كانت البندقية فى انتظار عودة سفيرها برناردينو جيوفا Bernardino Giova الذى أوفدته لدى الغورى ليعرض عليه مشروع حفر قناة السويس(٢٤٧) .

ثم واصل الرهبان سفرهم إلى روما حيث تشرفوا بمقابلة البابا وأبلغوه فحوى رسالتهم . وليس هناك من شك فى أن تهديدات السلطان قد أفزعت قداسته ، وأنه رأى وجوب التدخل لحماية حجاج الفرنج وللعمل على أن تظل كنيسة القيامة مفتوحة فى وجوههم . ومن ثم فقد زودهم بكتابين إلى كل من ملكى أسبانيا وملك البرتغال . غير أن المراجع المعاصرة التى روت أخبار هذه السفارة لم تشر إلا لجواب ملك البرتغال على كتاب البابا إليه . وفى هذا الرد أوضح ملك البرتغال لقداسته أنه ليس ثمة داع لأن ينزعج لهذا التهديد الذى جرت الدولة المملوكية على توجيهه لملوك الفرنج كلما ألم بها خطب أو حادث جلل ، إذ هو يأمل بفضل الله وعونه أن يوفق يوماً ما فى الاستيلاء على مكة والمدينه . ولذلك فهو يرجو قداسته

ألا يُعير هذا التهديد أية أهمية نظراً لحرص السلطان على الإبقاء
على العلاقات التجارية مع تجار الفرنج والسماح للحجّاج اللاتين بزيارة
كنيسة القيامة وبقية المقدّسات المسيحية الأخرى للحصول على
الرسوم التى تجبى منهم . وإنما يتوسل إليه أن يعمل من جانبه على أن يحلّ
الوئام والوفاق بين ملوك الفرنج ، ويناشدهم ضم جهودهم إلى جهوده
فى مشروعه لاستعادة الأراضى المسيحية المقدسه .

وهكذا فشلت سفارة الرهبان ، كما لم يقم الغورى من جانبه ،
للأسباب السالفة التى ورد ذكرها فى خطاب ملك البرتغال ، بتنفيذ
وعيده . وإنما اكتفى بأن صبّ جام غضبه على تجار الفرنج ، ولا
سيّما البنادقة منهم ، وطَرَح عليهم شراء البهار بأثمان مرتفعه . غير أن
قائد سفن البنادقة رفض شحن ما طُرح على مواطنيه من أحمال البهار ،
وغامر بالخروج إلى عرض البحر دون الحصول على إذن من سلطات
ميناء الإسكندرية ، مما عرّض سفنه للضرب بنيران المدافع . إلا أنه
نجح فى الإفلات من مرماها وتمكن من الإبحار عائداً إلى البندقيه .
وعلى أثر ذلك الحادث قبضت سلطات الثغر على قنصل البنادقة
وعلى جميع تجارهم وأرسلتهم إلى القاهرة للتحفّظ عليهم بسجونها .
كما أمر السلطان بمصادرة متاجرهم بكلٍ من مصر وسوريه [٢٤٨] .

وشُغل الغورى عن ذلك بالاهتمام بالتجهّز لمحاربة البرتغاليين الذين
اشتدت وطأتهم فى مياه المحيط الهندى وأوشكوا على الانتقال بتجرّمهم
إلى مياه البحر الأحمر وتهديد كيان الدولة تهديداً مباشراً . فخرجت من

القاهرة فى ٤ أكتوبر ١٥٠٥ تجريدة من المماليك بقيادة الأمير حسين
الكردى وبصحبتها عدد كبير من البنّائين والصنّاع للإبحار من السويس
على رأس أسطول يتكون من زهاء خمسين سفينة . وعند وصولها إلى
جدّه شرع الأمير حسين فى إقامة سور وبناء عدة أبراج حول المدينه .
وكان أسطول البرتغاليين الذى يتكون من عشرين سفينة قد أبحر
من المياه الهندية واستولى على جزيرة سوقطره التى تشرف على مدخل
البحر الأحمر أمام القرن الأفريقى . ثم عبر باب المندب وبدأ لأول
مرة يقوم بعملية استكشاف لهذه المنطقه . فأغار على ميناء عدن ،
ومنها تحول إلى سواكن بقصد الاتصال بملك الحبشة والاتفاق معه
على تحويل مجرى نهر النيل ومنعه من الجريان إلى مصر ، ثم أبحر
متجهاً نحو جدّة بقصد إنزال قواته على شاطىء الحجاز . غير أنه ما أن علم
بوجود هذا الأسطول المصرى الضخم فى مياه جدّة حتى سارع بالانسحاب
بسفنه من مياه البحر الأحمر . وأما الأمير حسين فقد تقدم على رأس
وحداته البحرية لمطاردته ، واتجه نحو سواكن ومنها إلى عدن ثم إلى
شواطىء الهند . وهناك تمكن فى بادىء الأمر من إنزال الهزيمة
بالأسطول البرتغالى فى صيف عام ١٥٠٨ فى موقعة شول Chaul
على الشاطىء الغربى للهند . غير أنه ما كادت النجدة تصل للبرتغاليين
فى العام التالى ، حتى تقدموا لمهاجمة الأسطول المصرى وألحقوا به
هزيمة ساحقة فى ٣ فبراير ١٥٠٩ ، انتهت بإغراق جميع وحداته فى
خليج ديو [٢٤٩] .

وأتبع البرتغاليون انتصارهم الساحق هذا بفرض الحصار الشديد على جميع السفن الهندية المتجهة نحو البحر الأحمر ، وقد تمكنوا فعلاً من قطع الاتصال البحرى بين الموانى الهندية وجدّه [٢٥٠] . وفى نفس الوقت اتجهوا إلى الاستيلاء على القواعد التجارية الأخرى التى تتحكّم فى تجارة الشرق الأقصى . فاستولوا فى عام ١٥١١ على ميناء مَلَقه فى الجنوب الشرقى من آسيا ، وهى القاعدة التجارية التى تصبّ فيها منتجات الصين والهند الصينية وجزر الهند الشرقيه [٢٥١] . وفى العام التالى تقدم ألفونسو دالبوكرك على رأس الأسطول البرتغالى نحو البحر الأحمر للمرة الثانيه . إلّا أنه أضطر بسبب سوء الأحوال الجوية لترك فكرة مهاجمة عدن وجدّه للعام الذى يليه ، فتحول عنهما إلى هُرْمز على رأس الخليج العربى حيث تمكن من الاستيلاء عليها [٢٥٢] .

وما أن وصلت إلى الحبشة أخبار انتصار البرتغاليين على الأسطول المصرى وتثبيت أقدامهم بالهند ، وسيطرتهم البحرية على مياه المحيط الهندى ، حتى أخذت ملكتها هيلانة تفكر جدياً فى مشروع الحرب الصليبية العامة ضد مصر بالتعاون معهم . وبينما كان الفونسو دالبوكرك فى ميناء دابل بالهند ، وفد عليه رسول من قبلها يدعى ماتيو ، وهو أحد الأرمن الذين كانوا فى خدمتها . وقد جاء يعرض عليه رغبة مولاته فى أن يزوّج أولادها من بنات ملك البرتغال ، وكذلك رغبتها فى التحالف معه للقيام بعمل مشترك للاستيلاء على الحجاز ومصر . وسافر ماتيو بصحبة دالبوكرك إلى لشبونه فوصلها فى عام ١٥١٤ ، ثم

عاد إلى الحبشة وبصحبته سفير ملك البرتغال دون رودريجو دى ليما Don Rodrigo di Lima . إلّا أن ماتيو توفى قبل دخولهما ميناء مصوع ببضعة أيام فى عام ١٥٢٠ ، وأما السفير البرتغالى فقد مكث بالحبشة خمسة أعوام بحث أثناءها فكرة القيام بالحرب المشتركة وفكرة تحويل مجرى نهر النيل عن مصر [٢٥٣] .

* * *

وصاحب تعبث البرتغاليين وتجرّمهم فى مياه المحيط الهندى والبحر الأحمر ، نشاط الفرسان الاسبتارية فى المياه الشرقية للبحر الأبيض المتوسط ، وقيامهم بشن سلسلة من الغارات على السفن المصرية وهى محملة بالبضائع وبالأخشاب والعتاد اللازم لبناء السفن . والقصد من ذلك عرقلة المجهود الحربى الذى تقوم به الدولة لمواجهة خطر البرتغاليين . ومن الثابت أنه كان هناك اتفاق بين الفرسان الاسبتارية وملك البرتغال على خطة العمل فى مهاجمة الدولة المملوكيه [٢٥٤] .

ففى عام ١٥٠٥ هاجم الفرسان الاسبتارية إحدى السفن التابعة للسلطان فى ميناء قبرص واستولوا عليها واقتادوها إلى جزيرة رودس . وقد أعتقد الغورى أنهم قاموا بهذا العدوان بإيعاز من البنادقة نظراً للخلاف القائم بينه وبينهم منذ العام الماضى بسبب إجبارهم على شراء البهار باالثمن المرتفع الذى حدّده ، الأمر الذى دفعه إلى إعادة القبض على قنصلهم وتجارهم بالإسكندرية بعد أن كان قد أفرج عنهم . فسارعت البندقية بأن أرسلت سفيراً إلى القاهره لحل هذه الأزمة ،

غير أن السفير وافته المنيّة أثناء قيامه بالمفاوضات مع السلطان .

وكان الغورى بدوره حريصاً على الوصول إلى اتفاقٍ مع البنادقة ، فأوفد إليهم فى شهر إبريل ١٥٠٦ الأمير تغرى بردى كبير التراجمة لهذا الغرض ، ولمباحثتهم فى موضوع إمداده بالأخشاب والأسلحة لبناء قوة بحرية تمكّنه من متابعة الحرب ضد البرتغاليين . وفى طريقه إلى البندقية مرّ تغرى بردى بجزيرة رودس للتفاوض مع رئيس الفرسان الاسبتارية فى أمر استعادة السفينة المصرية وما كان عليها من متاجر . غير أنه لم ينجح فى هذه المهمة وإنما تمكّن من شراء عدد كبير من أسرى المسلمين بالجزيرة وكان معظمهم من المغاربة ، وبلغ مجموع ما دفعه ثمناً لخلاصهم نحواً من خمسين ألف دينار[٢٥٥] .

ثم واصل رحلته إلى البندقية ، وهناك انتهت المفاوضات إلى عقد اتفاق تجارى بينها وبين الغورى . وأمّا فيما يختص بطلب المساعدة الحربية فإن حكومة البندقية — تحت ضغط الرأى العام الذى كان يميل إلى إمداد مصر بهذه المساعده — قد قامت بتكوين لجنة عرفت « بلجنة البهار » عهدت إليها بحث الوسائل التى تمكنها من إجابة هذا المطلب . وانتهت اللجنة من بحثها باتخاذ بعض القرارات التى قامت الحكومة بإرسالها إلى قنصلها بالإسكندرية لإبلاغها إلى السلطان . وبمقتضى هذه القرارات أشارت عليه البندقية ببعض الوسائل التى يستطيع الاعتماد عليها فى بناء الأسطول دون أن يؤدى ذلك إلى إظهارها أمام الأوروبيين بمظهر الدولة التى تساعده علانية . وأخيراً

رحل تغرى بردى من البندقية إلى فلورنسه حيث عقد اتفاقاً تجارياً مماثلاً ، ثم عاد إلى القاهرة فى سبتمبر عام ١٥٠٧ بعد غيبةٍ دامت ثمانية عشر شهراً[٢٥٦] .

وأما حوادث القرصنة فقد تتابعت وتلاحقت . ففى شهر ذى القعدة ٩١٤ / فبراير — مارس ١٥٠٩ هاجم الفرنج ميناء الطينه شرقىّ دمياط . وشاءت الظروف أن السلطان كان قد أرسل أحد الأمراء لعمارة الأبراج بهذه المنطقة ، فتمكّن هو ومن معه من المماليك ، ومن انضم إليهم من الخفراء ، من الانتصار عليهم والاستيلاء على مركبهم وأسر من كان به من رجالهم وإرسالهم إلى القاهره[٢٥٧].

وحدث أيضاً فى العام التالى أن هاجم فرسان الاسبتارية خمسة سفن فرنسية كانت قادمة من الاسكندرية أثناء عبورها لمياه رودس، وكانت هذه السفن تحمل عدداً من المغاربة وأفراد عائلاتهم إلى بلادهم . فأمّا السفن فقد أطلقوا سراحها بعد أن أسروا جميع من عليها واستولوا على متاجرهم التى بلغت قيمتها زهاء ٤٠ ألف دينار . وقيل فى هذا الصدد أن ربابنة السفن الفرنسية كانوا على اتفاقٍ سابقٍ مع الفرسان الاسبتارية على مهاجمة سفنهم واقتسام الغنائم معهم . وكان لا مناص من أن يبادر الغورى باتخاذ الاجراءات الانتقامية المعتادة لضمان عودة المغاربة واسترجاع بضائعهم وأموالهم ؛ فأمر بالقبض على قنصل الفرنسيين بالاسكندرية فيليب دى بيرتز

Philippe De Peretz وعلى جميع تجارهم بهـا مــع مصادرة متاجرهم [٢٥٨] .

ثم بلغت الحملة ذروتها عندما هاجمت سفن الفرسان الاسبتارية فى أواخر أغسطس سنة ١٥١٠ بقيادة أمير البحر البرتغالى ، أندريه دامارال André d'Amaral ، ثمانية عشر سفينة مصرية فى خليج إياس . وهذا القائد كان يشغل فى نفس الوقت وظيفة كبير المستشارين لهيئة الفرسان [٢٥٩] . وكانت هذه السفن على وشك الإبحار إلى مصر محملة بالأخشاب اللازمة لبناء الأسطول الثانى الذى يعتزم الغورى بناءه بعد فقد الأسطول المصرى فى معركة ديو البحرية فى العام الماضى . وكانت الخسارة فادحة ؛ فلم تنج من هذه السفن سفينه واحدة ، فقد شبّت النيران فى بعضها ، وغرق البعض الآخر ، ثم سُحبت البقية الباقية منها بما عليها من أخشاب وعتاد إلى رودس . بل إن الفرسان استولوا أيضاً على الأخشاب التى كانت معدة على الشاطىء للنقل . ويكفى لإظهار مدى هذه الكارثة التى قضت على المجهود الحربى الذى تقوم به مصر وقتذاك ، ما ذكره المؤرخ ابن إياس تعليقاً على هذا الخبر ، إذ يقول [فلما بلغ ذلك السلطان تنكّد إلى الغاية وامتنع عن الأكل يومين . وقد تزايد شر الفرنجة فى هذه السنة وكثر تعبثّهم بالناس فى البحر الرومى « البحر الأبيض » والبحر الهندى والأمر إلى الله تعالى] .

وقابل السلطان هذا الخطب الفادح بأن أصدر أمره فى ١٣ جمادى الآخرة ٩١٦ / ١٧ سبتمبر ١٥١٠ بإلقاء القبض على جميع تجار الفرنج المقيمين بالإسكندرية ودمياط مع مصادرة أموالهم والتحفّظ على متاجرهم ، وكذلك على جميع الرهبان الفرنسسكان المقيمين بدير صهيون وبكنيسة القيامة وكانوا نحواً من عشرين راهباً . وعندما حضر الرهبان إلى القاهرة أغلظ لهم القول وطلب منهم مكاتبة ملوك الفرنج لإعادة السفن التى استولى عليها الفرسان بما كان عليها من رجال ، مهدداً إيّاهم وأمم الفرنج قاطبةً بغلق كنيسة القيامة وبشنقهم . وأتبع السلطان ذلك التهديد بأن أرسل رسولاً إلى القدس ليتولى غلق كنيسة القيامة والاحتياط على ما للفرنج بها من أموال . وتضيف المراجع الأوروبية أن السلطات المحلية بالقدس أجبرت رئيس الرهبان على تسليم الأموال المخبّأة بدير صهيون ، فسلّم لها أربعة آلاف دوكاه . هذا فضلاً عن الاستيلاء على ما كان يوجد بالدير وبالكنيسة القائمة بداخله من تحف وذخائر بلغت قيمتها خمسة آلاف دوكاه [٢٦٠] .

غير أن المؤرخين الأوروبيين يتجاهلون كل ما حدث ، ويتخذون من ذلك الاجراء، الذى يتسم بالصفة المالية البحتة بقصد الحصول على بعض التعويضات ، مبرراً لأن يلصقوا بالغورى تهمة الاعتداء على الكنائس . ومع ذلك فالحقائق التاريخية كفيلةً بالرد على هذه التهمة ؛ فالغورى شأنه فى ذلك شأن أسلافه من السلاطين ، كان حريصاً على رعاية

شئون الرهبان الدينية وعلى حماية كنائسهم وأديرتهم . فقد سمح لهم من قبل ، فى ٧ شوال ٩١٤/ ٢٩ يناير ١٥٠٩ بإعادة عمارة سقف كنيسة بيت لحم[٢٦١] ، كما سمح لهم فى شهر محرم ٩١٦/ ٢١ ابريل ١٥١٠ بترميم دير صهيون[٢٦٢] .

وكيفما كان الأمر فلم يتوقف تجرّم قراصنة الفرنج وتعبثهم على الرغم من عنف هذه الإجراءات الانتقامية ضدهم وعلى الرغم من هذا التهديد الموجّه إلى الغرب المسيحى قاطبةً . ففى ٢٧ ربيع الأول ٩١٧/ ٢٤ يونيو ١٥١١ دخل القاهرة زهاء مائتين من أسرى الفرنج كان قد ألقى القبض عليهم وهم يغيرون على سواحل بحيرة البرلّس[٢٦٣] .

* * *

وفضلاً من هذه الأخطار الخارجية التى تهز كيان الدولة ، فقد حاقت بها المتاعب من كل جانب ، وبلغ تآمر الفرنج على استقلالها ووجودها ذروة الخطر ، سواءٌ مع أعدائها فى الخارج أو مع الخونة داخل البلاد الذين رفعتهم من حياة الرق والحرمان إلى حياة السادة الأمراء . فالبندقية قد وجدت فى أطماع الشاه إسماعيل الصفوى التوسعيّة خير حافز لاستثارته ضد الدولة المملوكية ودفعه للتآمر معها عليها . وذلك ما نجحت فى تحقيقه ؛ ففى شهر جمادى الأولى ٩١٦ / سبتمبر ١٥١٠ جاءت الأخبار من نائب البيره[٢٦٤] بأنه قبض

على جماعة معهم كتب من الشاه إلى بعض ملوك الفرنج بأن يكونوا معه على سلطان مصر ، وأن يزحفوا بسفنهم من ناحية البحر فى الوقت الذى يتقدم فيه بجيوشه من ناحية البر[٢٦٥] .

وتفصح لنا المراجع الأوروبية عن حقيقة هذا التآمر الذى جرت عادة المؤرخين العرب على إلصاقه بالفرنج عامةً دون تمييز . فهؤلاء الذين قبض عليهم ، هما إثنان من القبارصة كانا يحملان مكاتبات إلى جمهورية البندقية وإلى كلٍ من قنصلها بدمشق : توماسو كونتارينى Tommaso Contarini ، وقنصلها بالإسكندرية : بيترو زينو Pietro Zeno . وقد أثارت هذه المكاتبات مخاوف السلطان نظراً للعلاقات التى تربط هذين القنصلين بفارس . فقنصل البندقية بتبريز ، عاصمة ملك الصفويّين وقتذاك، كان أحد أفراد عائلة كونتارينى . وأما بيترو زينو فتربطه صلة النسب بحسن الطويل الذى يمتد نسب الشاه إسماعيل إليه[٢٦٦] . ولذلك سارع الغورى فأصدر أمره بالقبض على قناصلة البندقية بالإسكندرية ودمشق وطرابلس . وعندما عُرضوا عليه بالقاهرة فى ٢٣ ذى القعدة ٩١٦/ ٢١ فبراير ١٥١١ احتد عليهم وهدّدهم بالشنق ثم رسم بالتحقيق معهم ، كما تلا ذلك إلقاء القبض على جميع تجار البنادقة والتحفّظ على أموالهم وبضائعهم[٢٦٧] .

وتحالف البندقية مع فارس ليس بالأمر الجديد فى تاريخها الدبلوماسى . فقد تحالفت من قبل ، منذ ثلث قرن تقريباً ، مع حسن الطويل الذى كان قد غدى قوةً كبرى فى غربى آسيا بعد أن تمكّن

من تصفية المنافسين له من بقايا سلاطين التيموريين وأمراء التركمان من قبيلة الشاه السوداء . وكان العداء المشترك للسلطان العثمانى محمد الفاتح هو الدافع لهذا التحالف بينهما وذلك بعد أن أصبحت أطماعه التوسعيّة فى آسيا وفى أوروبا تهدد كيانهما[٢٦٨] .

غير أن الأمر الجدير بالبحث هو تحالف البندقية مع الصفويّين خلفاء حسن الطويل فى هذه المنطقة ضد الدولة المملوكيه . ونحن وإن كنّا نجهل الأسباب التى دفعت الدولتين إلى هذا التآمر، إلّا أنه يمكننا الإدلاء ببعض التفسيرات التى تستمد أصولها من مجريات التاريخ المعاصر وقتذاك . فربما كانت البندقية قد ضاقت ذرعاً بإجراءآت السلطان الانتقامية ضد تجارها . هذا فى الوقت الذى لم تعد أسواق مصر والشام تكفى لإمدادها من متاجر الشرق الأقصى بما يكفل لها مصالحها التجارية ويجعلها تحتفظ بالسيادة التجارية التى انفردت بها دون منازع فى حوض البحر الأبيض المتوسط فى القرن الخامس عشر . وربما دفعتها هذه الأسباب إلى التفكير فى إحياء الطريق التجارى الذى يمر بالخليج العربى وبلاد العراق بالتعاون مع الصفويّين . ولكن إحياء هذا الطريق لا يتأتّى إلّا إذا أصبح للصفويّين منفذ على البحر الأبيض، وهذا ما تقف أملاك الدولتين المملوكية والعثمانية حائلاً دون تحقيقه . وكيفما كان الأمر ، فقد قضى البرتغاليون على هذا الأمل باستيلائهم فى العام التالى (١٥١٢) على قاعدة هُرْمز التجارية الواقعة على رأس الخليج العربى[٢٦٩] .

كما يحتمل أن تكون البندقية ، سيدة البحار فى ذلك الوقت ، قد فكرت فى الاستيلاء على مصر بعد أن لمست مدى ما تعانيه الدولة المملوكية من أسباب الضعف والانهيار، وبعد أن رأت تطور الأحداث الأخيرة فى البحر الأحمر والبحر الأبيض وأن البرتغاليين على وشك الإنقضاض عليها . والبندقية بما لها من قوة بحرية ، فى قدرتها أن تتصدّى للبرتغاليين وتنتزع منهم السيطرة على تجارة الشرق الأقصى ، فتكتمل لها أسباب السيادة العالمية فى الشرق والغرب . ولم يكن مشروع حفر قناة السويس الذى عرضته البندقية على الغورى سوى الوسيلة التى تمكنها من أن تنفذ بأساطيلها الحربية والتجارية إلى مياه البحر الأحمر والمحيط الهندى .

وفى نفس الوقت الذى وردت فيه إلى القاهرة أخبار تآمر البندقية مع الشاه إسماعيل ، ورد أيضاً نبأٌ من شريف مكة بأنه ألقى القبض على ثلاثة من الفرنج دخلوا مكة متخفّين فى زى الأروام . وليس ثمّة شك فى أن هؤلاء كانوا من البرتغاليين الذين تمكنوا من التسلل إلى بلاد الحجاز[٢٧٠] .

كما نُمى إلى علم السلطان فيما بعد، فى ١١ محرم ٩١٧/١٤ إبريل ١٥١١ ، تواطؤ تغرى بردى كبير التراجمة مع ملوك الفرنج ، وأنه كاتبهم بأحوال المملكة ، من عجز السلطان على تجهيز حملة بحرية ، ومن

خلو السواحل من التحصينات الحربيه . ولذلك أمر السلطان بإلقاء القبض عليه والترسيم على بيته وعلى أمواله(٢٧١) .

* * *

وهكذا أشتد الخطب بالسلطان وشعر بالأخطار تهدّد الدولة من كل جانب، والتآمر يحيق بها للاجهاز عليها، فضلاً عما تعانيه الدولة من قلة الأموال وعجزٍ عن مواجهة مشروع التسلح وبناء الأسطول وعمارة الأسوار والأبراج . ولم يكن هناك مفرٌّ من أن يلجأ السلطان إلى العثمانيين، طالباً منهم أن يبيعوا له ما يلزمه من أخشاب وعتاد، ومناشداً إيّاهم مساعدته فى العمل على المحافظة على المقدّسات الإسلامية والإبقاء على راية الإسلام خفّاقةً عزيزة الجانب . وقد وجد فى السلطان العثمانى بايزيد الثانى خير من يلبى نداء الاسلام، فسرعان ما وصلت إلى ميناء بولاق فى شهر شوال ٩١٦/فبراير ١٥١١ عدة سفن عثمانية تحمل الأخشاب والحديد والبارود والبنادق والمجاديف والسهام والحبال والمراسى وغيرها من العتاد قُربى إلى الله دون ما ثمنٍ أو مقابل(٢٧٢) .

وأمّا مع الفرنج فلم يكن أمام الغورى سوى حل واحدٍ لا بديل له ولا مفرّ منه، ألا وهو مواصلة تهديدهم بشنق تجارهم وقناصلهم والرهبان الفرنسسكان المسجونين بالقاهرة، وكذلك التهديد بغلق كنيسة القيامة وبقية المقدّسات المسيحية بفلسطين . وواضحٌ أن القصد من ذلك التهديد لم يكن سوى مجرّد استثارةٍ للبابا وللملوك

الفرنج ودفعهم إلى التدخل لإجبار القراصنة على الكفّ عن نشاطهم الإجرامى ضد السواحل والثغور الاسلامية فى البحر الأبيض، حتى يتمكّن من التفرغ لبناء الأسطول ومواجهة تجرّم البرتغاليين فى المحيط الهندى والبحر الأحمر .

وكان الغورى قد ضاق ذرعاً بالبندقية وبسياستها ذات الوجهين، وفقد الأمل نهائياً من حيث إمكان مساعدتها له بعد ما عرف من أنباء تآمرها ضده . ومن ثمّ فقد أعطى أذناً صاغيةً لقنصل الفرنسيين بالاسكندرية فيليب دى بيرتز Philippe de Peretz الذى أقنعه بأن ملك فرنسا، لويس الثانى عشر، هو وحده من بين ملوك الفرنج الذى يستطيع مساعدته . إذ فضلاً عن عظمة فرنسا فى ذلك الوقت، فإن وزيرها كان أخاً لرئيس الفرسان الاسبتارية امرى دى امبواز Aimery d'Amboise ، وفى وسعه وفى مقدوره أن يضغط عليه لاعادة السفن التى استولى عليها الفرسان فى خليج إياس، وأن يحمله على الكفّ عن أعمال القرصنة ضد الدولة المملوكية .

وفى هذا الأثناء رست بميناء الاسكندرية خمسة مراكب لتجارٍ من مدينة راجوزا، فمنعتها سلطات الميناء من مغادرته . واختارت واحدةً منها لتحمل راهبين من الفرنسسكان مزوّدين بخطاب من قِبل القنصل الفرنسى إلى رئيس الفرسان برودس يعرضان عليه تهديدات السلطان ويتوسلان إليه إرجاع سفن السلطان ومَنْ فى أسره من المسلمين .

ولكنه أصاغ السمع عن هذه التوسلات ورفض إعادة السفن ، وأما الأسرى فقد اشترط لاعادتهم فداءهم بالمال [٢٧٣] .

ولذلك فقد تقرر ، بناءً علي مشورة القنصل الفرنسى ، إرسال رسول إلى لويس الثانى عشر يعرض عليه، مقابل قيامه بالوساطة لدى رئيس الفرسان، معاهدة تقرر حرية التجارة للتجار الفرنسيين فى موانئ مصر والشام ، وفتح كنيسة القيامة والسماح للحجّاج الغربيين بزيارة الأراضى المقدسه . ووجد لويس الثانى عشر فى هذا العرض، ولا سيما ما كان خاصاً منه بالأراضى المقدسة ، ما يعيد إلى فرنسا مكانتها الدينية التى كانت تتمتع بها منذ الحروب الصليبية بوصفها الدولة التى قامت بالدور الأكبر في الحركة الصليبيه . كما يمكّنها من أن تنتزع من البنادقة والجنويّة حق حماية المسيحيين اللاتين بالأراضى المقدسة ، ذلك الحق الذى كانتا تتمتعان بة فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى على وجه التخصيص [٢٧٤] .

وسارع لويس الثانى عشر بإرسال أندريه لوروى André le Roy سفيراً لدى الغورى لبحث هذه المقترحات . ووصل السفير الفرنسى إلى القاهرة فى ١١ محرم ٩١٨/٢٩ مارس ١٥١٢ وقوبل بما يليق به من الحفاوة والاكرام . وبعد أن استراح من عناء السفر ، تشرّف بمقابلة السلطان وقدم إليه ما بعث به إليه مليكه من هدايا . ثم كُلّف السفير بالسفر إلى رودس لبحث موضوع إعادة السفن والأسرى ، ولكنه عاد إلى القاهرة دون أن يوفق فى مهمته . ومن ثمّ أصبحت

مقترحات الغورى التى عرضها على لويس الثانى عشر غير ذات موضوع .

وعلى الرغم من إخفاق جهود السفير الفرنسى ، فقد استمر السلطان فى إكرامه وفى الترحيب به ، واستجاب لرغبته الخاصة فى أن يسمح له بزيارة دير سانت كاترين بسيناء وكنيسة القيامة بالقدس . فغادر القاهرة فى طريقه إليهما فى ٢٦ ربيع الآخر/١١ يوليو [٢٧٥] .

وكانت البندقية قد علمت ، عن طريق عملائها ، بنبأ هذا الاتصال بين الغورى ولويس الثانى عشر ،فبادرت هى الأخرى بالتدخل حفظاً لحقوقها ولامتيازاتها التى تتمتع بها فى أراضى الدولة المملوكيه . واختارت لسفارتها لدى الغورى ، دومينيكو ترفيزان Domenico Trevisan ، أحد شيوخها المحنّكين الذى اشتهر بمهارته السياسية وبنجاحه فى المهمات السياسية العديدة التى كلفته بها الجمهورية من قبل . ووصل السفير البندقى إلى القاهرة فى ٢٣ صفر ٩١٨/١٥ مايو ١٥١٢ [٢٧٦] مكلفاً بإزالة الجفاء بين الدولتين وعقد معاهدة تجارية بينهما ، وتبرئة دولته من تهمة التآمر مع الشاه إسماعيل الصفوى ، والسعى لدى السلطان لفتح كنيسة القيامة والسماح للرهبان الفرنسسكان بالعودة إلى ديرهم .

وفضلاً عن اعتماد البندقية على مهارة سفيرها وما حمّلته إيّاه من هدايا ثمينة للسلطان ولكبار رجال الدولة ، فإنها أتبعت سفره بإرسال سفنها إلى الإسكندرية لاستعادة نشاطها التجارى ، مما كان مدعاة لسرور السلطان الذى كان فى مسيس الحاجة إلى المال . وفيما يختص بالتواطؤ مع الشاه إسماعيل ، فإن السفير أعلن براءة الجمهورية من هذا

التآمر . وأمّا عن قنصل دولته بالإسكندرية بيترو زينو المتهم بالتآمر، فإنه أعلن استعداد البندقية للتحقيق معه وتوقيع العقاب الذى يستحقه عليه إذا ما ثبتت خيانته . بل إن السفير ، إرضاءً للسلطان وتهدئةً لثورته ، ذهب إلى أبعد من هذا . إذ قام بنفسه ووضع الحديد فى يد القنصل والتمس إرساله إلى البندقية ليحقق معه هناك .

وبهذه الدبلوماسية الرفيعة نجح السفير البندقى فيما فشل فيه زميله الفرنسى، وتمكن من إقناع السلطان بإطلاق جميع تجار الفرنج والرهبان الفرنسسكان وفتح كنيسة القيامه . كما نجح فى عقد معاهدة تجارية مع الغورى ، وهى آخر المعاهدات التى عقدتها البندقية مع سلاطين المماليك . وفى هذه المعاهدة احتفظت دولته بجميع الامتيازات الممنوحة لتجارها من قبل، كما احتفظت بحقها فى نقل الحجّاج الأوروبيين إلى يافا وحق حمايتها لهم بفلسطين . إلّا أن هذه المعاهدة تضمّنت أيضاً شرطاً تعهدت البندقية بمقتضاه بتخصيص عدد من سفنها لمطاردة القراصنة فى المياه الشرقية للبحر الأبيض وتطهيرها من تعبّثهم وتجرّمهم . وقد خلدت ريشة المصور البندقى الشهير جنتيل بللينى Gentil Belline استقبال الغورى للسفير البندقى ، ولا تزال اللوحة الأصلية لهذه الصورة محفوظةً فى متحف اللوفر بباريس .

ومما ساعد على نجاح السفير البندقى فى مهمته ، وصول سفير من قبل الشاه اسماعيل إلى القاهره فى ٢٥ يونيو من نفس العام [٢٧٨] . ويبدو أنه جاء بقصد تبرئة الشاه من تهمة التآمر مع البندقية ، وإن كانت

المراجع المعاصرة لا تشير إلى ذلك . وقد آثر الغورى قبول الأمر الواقع فيما يختص باستحالة استعادة السفن والأسرى من الفرسان الاسبتارية ، فاكتفى بعودة تجار البنادقة إلى أسواق دولته والتأكد من عدم تآمر البندقية مع الصفويّين ضده ، وبعودة الحجّاج الأوروبيين إلى زيارة الأراضى المقدسه . إذ كانت الدولة حريصةً على ما تجبيه منهم من رسوم ومكوس ، وعلى ما تحصل عليه من مكاسب مالية بعودة النشاط التجارى إلى أسواقها فى هذا الوقت الذى اشتدت فيه الحاجة إلى المال لمواصلة التسلح وإقامة التحصينات الدفاعيه . وأخيراً غادر سفير البندقية القاهرة إلى القدس فى يوم ٢ أغسطس لزيارة كنيسة القيامة ولزيارة الرهبان الفرنسسكان بدير صهيون بعد عودتهم إليه [٢٧٨] .

وكان ملك الكرج (الجورجان) قد انتهز هذه المحنة التى تعرّض لها الرهبان الفرنسسكان ، فأرسل سفيراً إلى القاهرة يطالب بإلغاء الحكم الذى أصدره قضاة القدس فى عام ١٤٩٣ خاصاً بأحقّية الرهبان الفرنسسكان وحدهم فى الإقامة فوق جبل الصعود [٢٧٩] . ووصل السفير إلى القاهرة فى ١٤ أغسطس ١٥١١ وأقام بها ما يقرب من سنة كامله . إلّا أن نجاح سفير البندقية فى مهمته أدى إلى صعوبة الفوز بمطلبه ، وإقرار هذا الحق لطائفة رهبان الجورجان دون غيرهم . وكان الغورى قد أمر قضاة القدس بإعادة بحث هذا النزاع ، فجاء حكمهم

فى ربيع الأول ٩١٨/ يونيو ١٥١٢ قاضياً بإعطاء رهبان الجورجان حق الإقامة مع رهبان الفرنسسكان فوق نصف جبل الصعود، مع السماح لهم بالمرور إلى الجلجُلة التى توجد فوق النصف الثاني من الجبل لاقامة شعائرهم الدينيه[٢٨٠]. ثم قضى السفير شهراً آخر بالقاهرة يزور معالمها الأثرية، وبعد ذلك غادرها عائداً إلى بلاده[٢٨١].

وتحقيقاً للعدالة والمساواة بين بقية طوائف الرهبان الأخرى المقيمة بالقدس من ملكانيين ويعاقبه وجورجان وحبوش وروم وقبط، وبين طائفة الرهبان الفرنسسكان فقد أصدر الغورى مرسومه المؤرخ فى ٩ محرم ٩١٩/١٧ مارس ١٥١٣. وينص هذا المرسوم على إعفاء هذه الطوائف من دفع الرسوم المقررة التى كانت تجبى منهم عند دخولهم فلسطين، سواء فى يافا أو فى غزّه أو فى اللّد، وعند زيارتهم لكنيسة القيامة وغيرها من الأماكن المقدسه. كما نص المرسوم على ألّا يطالبوا بدفع موجبٍ أو أية أتاوات ومقرّرات، ومنع من يتعرّض لهم بأذىً أو بمكروهٍ أو يُحدِث عليهم حادث أو يجدّد عليهم مظالمه[٢٨٢].

* * *

ومضت السنوات الأخيرة من عهد الغورى دون أن يحدث أى نزاع جديد بينه وبين الفرنج، إذ توقفت أعمال القرصنة ضد السواحل والثغور المصرية والشامية بالبحر الأبيض المتوسط. وقد سمح له الهدوء فى

هذه الجبهة بالتفرّغ لمجابهة خطر البرتغاليين فى مياه البحر الأحمر والمحيط الهندى.

وكان البرتغاليون قد تقدموا بأسطولهم فى عام ١٥١٣ نحو البحر الأحمر وهاجموا عدن وسواكن. كما نجحوا فى الاستيلاء على جزيرة كَمَران، وأشتد تهديدهم لجدّه. وفى هذا الوقت العصيب تمكن الغورى من الانتهاء من بناء الأسطول وإنزال وحداته بميناء السويس التى أبحرت منها فى العام التالى بقياده الأمير حسين الكردى نائب جدّه لمطاردة الأسطول البرتغالى. وما أن لمس البرتغاليون قوة الأسطول المصري حتى سارعوا بالانسحاب من مياه البحر الأحمر، فتتّبعهم الأمير حسين إلى شواطىء الهند. غير أنه لم يستطع إنزال الهزيمة بهم، فبعث يطلب المدد من السلطان. وقامت حملة بحرية ثانية من السويس بقيادة الريس سليمان العثمانى لمعاونته. وعلى الرغم من ذلك، فلم توفّق هذه القوة البحرية الضخمة فى الحصول على انتصارٍ حاسمٍ على البرتغاليين الذين كانت قد توطدت أقدامهم فى الهند، وإن كانت قد نجحت فى إبعاد خطرهم مؤقتاً عن البحر الأحمر. وأخيراً عاد القائدان إلى جدّه بعد أن كان قد تقرر مصير الدولة المملوكية عقب هزيمة الغورى فى موقعة مرج دابق[٢٨٣].

وترتب على هذا الصراع بين المصريين والبرتغاليين فى مياه المحيط الهندى أن ضعف النشاط التجارى بين شواطىء الهند وميناء جدّه، وهذا أدى بدوره إلى انصراف تجار الفرنج عن أسواق مصر والشام

إلى أسواق لشبونه . ففى عام ٩٢٠/١٥١٤ يعزو ابن إياس اشتداد الأزمة المالية بمصر إلى خراب بندر الإسكندرية وبندر جدّه وبندر دمياط (بسبب تعبّث الفرنج على التجار فى بحر الهند ، فلم تدخل المراكب والبضائع إلى بندر جدّه نحواً من ستة سنين[٢٨٤]) . كما يذكر بمناسبة زيارة الغورى للاسكندرية فى نفس العام (أنه لم يكن بثغر الإسكندرية يومئذٍ أحدٌ من أعيان التجار لا من المسلمين ولا من الفرنج ، وكانت المدينة فى غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجَوْر القبّاض ، فإنهم صاروا يأخذون من التجار العُشْر عشرة أمثال فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول إلى الثغر فتلاشى أمر المدينة وآل أمرها إلى الخراب[٢٨٥]) . وفى عام ٩٢٢/١٥١٦ يقرر (أن التجار امتنعوا عن دخول بندر جدّه وآل أمره إلى الخراب وعزّ وجود الشاشات من مصر والأزر والأَنطاع ... وكذلك بندر الاسكندرية وبندر دمياط ، فامتنعت تجار الفرنج عن الدخول إلى تلك البنادر من كثرة الظلم وعزّ وجود الأصناف التى كانت تجلب من بلاد الفرنج[٢٨٦]]. ويلاحظ أن المؤرخ ، فى هذه الفترة الأخيرة من حياة الدولة المملوكية ، لم يتكلم عن البهار والتوابل التى كانت تعتبر السلعة الرئيسية من بين بضائع الشرق الأقصى ؛ إذ كانت قد تحولت بصفة نهائية إلى أسواق لشبونه ، وإنما تكلم عن الشاشات والأَزر والأَنطاع التى تُهم سواد الشعب .

وهكذا كانت الأقدار أقوى من عزيمة الغورى الذى كان كبير الأمل فى الانتصار على البرتغاليين لو لم يتحرك العثمانيون ضده . وكان الغزو العثمانى مفاجأةً أيضاً للفرنج ، ومخيّباً لآمالهم بعد أن نجحوا فى حرمان الدولة المملوكية من مصدر ثرائها وقوتها ومَنَعتها ، وأوشكوا على الانقضاض عليها . فقد آلت السيادة على الأراضى المسيحية المقدسة إلى الدولة العثمانية التى كان لها من أسباب القوة والعظمة الصاعدة ما مكنها من أن تقف إزاء الفرنج ومطامعهم الصليبية ، وإزاء إدعاءآت الرهبان الفرنسسكان ، موقفاً أكثر صلابةً وأكثر حزماً من موقف الدولة المملوكيه[٢٨٧] .

الملاحق

(١)

Décision du Sénat

Séance du 4 Juin 1429

Jean "Belocho", gardien du couvent des Frères mineurs au Mont Sion, à presenté au gouvernement vénitien des bulles qui défendent, sous peine d'excommunication, de conduire les Juifs sur des vaisseaus chrétiens. Cette décision avait été prise par le Pape, parce que les Juifs de Palestine. en payant l' emir et autres officiers, avaient abtenu qu' on leur restituât " capellam David et aliorum regum et prophetarum ". D'aprés la demande du frère gardien, le sénat se rallie à cette mesure; les patrons qui porteront des Juifs vers le pays du Soudan seront frappés d'une amende de 100 ducats et perdront le droit de commander un vaisseau.

JORGA : Notes et extraits, 1, p. 492.

(٢)

The Graves Of Kings

On Mount Zion, near the sepulchre of the Kings, the Franciscans have a large church. The sepulchrc of the Kings also belonged to them a long time ago, but a rich Ashkenazi, who came to Jerusalem, wished to purchase the graves from the King, and so involved himself in strife with the ecclesiastics, and the Arabs then took the graves away from them and have even since retained in their own keeping.

When it became known in Venice that the graves had been taken from the Catholics through Jews who had come from the Christian lands, an edict was puplished that no Jew might travel to Jerusalem through Venice ; but the edict is now repealed, and every year Jews come in the Venitian galleys, aud even in the pilgrim ships, for there is really no safer and shorter way than by these ships. The galleys perform the voyage from Venice here in forty days at the most.

ADLER : Jewish travellers. (Obadiah, 1438), P. 243.

(٣)

المالك محمد
بن
ططر

السلطانى الملكى الصالحى الناصرى اعلاه الله تعالى وشرفه وانفذه وصرفه ان يحملوا رهبان دير صهيون عُليّة القدس الشريف على عادتهم وان لا يطلبوا بما يؤخذ من المسلمين فى البحر ولا بما يجده الفرنج فى البحر وان لا يلزموا بما لا يلزمهم شرعا وحمل الامر فى ذلك على الوجه الشرعى والوصية بهم ومنع من يتعرض اليهم بغير وجه حق فليعقد هذا المرسوم الشريف كل واقف عليه وناظر إليه .

وليعمل بحسبه ومقتضاه . والخط الشريف شرفه الله تعالى اعلاه

ان شاء الله تعالى

كتب فى ثانى عشر الحجة الحرام

سنة اربع وعشرين وثمانية

حسب المرسوم الشريف

الحمدلله رب العالمين وصلواته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه

حسبنا الله ونعم الوكيل

RISANI ; XIV Documento ; pp 116–118.

(٤)

دير صهيون

محضر شرعى ١١٠ جمادى الآخره ٨٤١ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين

شهوده الواضعون خطوطهم آخره ، ومن سيكتب عنه باذنه من اهل العلم الشافى فيما يشهدون به انهم يعرفون جميع الدير الكاين بظاهر القدس الشريف المعروف بدير صهيون وله حدود اربعة ثلاثة منها للفلاة وواحد وهو الرابع لمقابر الفرنج وغيرهم من النصارى المذكور فى فصل السؤال المسطر اعلاه المعرفة الشرعية . ويشهدون مع ذلك شهادتهم بها عالمون ولها محققون لا يشكون فيها ولا يرتابون ان الدير المذكور اعلاه رومى من جملة الاديرة الرومية العتيقة المزمنة القديمة وهو قايم على اصوله من قديم الزمان بظاهر القدس الشريف بارض فلاة بعيد عن العمران ليس بجواره بنا لمسلم وانه معد لاقامة الرهبان الفرنج يتداولونه جماعة من جماعة من قديم الزمان والى تاريخه . وان من حقوقه عُلِيَّة بسطح الدير المذكور شهرتها عُليّة صهيون الفوقانية هى من جملة الاماكن التى بالدير المذكور المعدة لصلاة المقيمين بالدير المذكور من الفرنج

والمترددين الى الدير المذكور من النصارى ، ارتفاع بناءها القديم من سطح الدير المذكور المزمن عشرة اذرع بذراع العمل وكان ذلك مبنى بالحجر والشيد والطين . وكان سقفها معقوداً قبواً بمثل ذلك ، وان العُليّة المذكورة انهدم اكثر سقفها المعقود وبقى منه قطعة لطيفة وانهدم اكثر حيطانها وبقى البعض . وانهدم من الحايط الدايرة على جميع الدير المذكور من داخل الدير ومن خارجه اماكن متفرقة كانت مبنية بمثل ماذكر اعلاه ، ورموا فى الاماكن المتهدمة احجارا بغير مون ولا بنايه ولم يمنع ذلك المتعرضين لمن فى الدير . وكان ارض الدير المذكور مبلطة من قديم الزمان اضرورة الامطار والمياه والثلوج لا للزينة فانقلع بعض ذلك من توالى الازمنة عليه وحصل الضرر بسبب ذلك . وبهذا الدير المذكور قلالى برسم سكنى الرهبان من الفرنج والزمنى والمنقطعين من النصارى العاجزين عن السعى . وابنية ذلك مزمنة عتيقة من عهد بناء الدير المذكور فتهدم من ذلك اماكن هم خمس قلالى وحصل الضرر بدلك . يعلم شهوده ذلك ويشهدون بما فيه مسئولين وكتب ذلك السؤال من جاز سؤاله شرعا فى حادى عشر جمادى الآخرة سنة احدى واربعين وثمان مايه حسب الاذن الـ[illegible] العا لى الـ[illegible]و ى القاضوى الامامى العالمى العاملى العلامى المجتهدى الحبرى الخاشعى الناسكى الاصيلى البليغى العريقى المحققى المدققى الرحلى الحججى الشيخى الحاكمى البدرى

شيخ الاسلام اوحد المجتهدين الاعلام حجة المتكلمين قاضى المسلمين خالصة امير المؤمنين العينى الحنفى الناظر فى الاحكام الشرعية بالديار المصرية وساير الممالك الشريفة السلطانية امام دهره ووحيد عصره ادام الله تعالى ايامه واعز احكامه واحسن إليه واسبغ نعمته عليه المنص خطه الكريم اعلاه شرفه الله تعالى واعلاه وحسبنا الله ونعم الوكيل.

شهد بمضمونه
محمد بن حسن بن محمد
الحنبلى

شهد بمضمونه
عماد بن محمد بن محمد
التاجر السقار
عرف بالخليلى
وكتب عنه بإذنه وحضوره

شهد بمضمونه
الحاج محمد بن محمد بن محمد
عرف بزقزوق
وكتب عنه بإذنه
وحضوره

شهد بمضمونه
على بن محمد بن عمر
الحريرى بالقدس
وكتب عنه بإذنه وحضوره

شهد بمضمونه
الحاج يوسف بن بهادر
الساعى عرف بالقدس
وكتب عنه بإذنه وحضوره

شهدت الخمسة عندى بذلك
وقبلوا .

RISANI; XVIII Documento. pp,186–188

(٥)

مرسوم جقمق

٨٥٠هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

صدرت هذه المكاتبة الى المجلس العالى

جقمق
المالك

القاضوى الكبيرى العالمى المؤيدى المجاهدى الفاضلى الذخرى
العزى ليمتثل الامر الشريف

الفاضلى الكاملى البارعى المفيدى الفريدى الاصيلى العريقى
ليمتثل الامر الشريف

الرئيسى الاوحدى الزمينى مجد الاسلام والمسلمين شرف الروسا فى العالمين فخر الامنا جمال البلغا اوحد الاصلا زين الاماثل المعتبرين صفوة الملوك والسلاطين ادام الله تعالى نعمته وجدد مسرته موضحة لعلمه ان جماعة الفرديان والرهبان بدير صهيون بالقدس الشريف رفعوا قصة لمواقفنا الشريفة قرئت على مسامعنا الشريفة انهوا فيها ان بدير بيت لحم

اما كن قد تخربت

وتهدمت من كثرة الامطار والاهوية وانهم يخشون من طارق

يتوصل منها

الى داخل اماكنهم ويحصل لهم بذلك الضرر وانهم اوصلوا

هذه القضية

بالمجلس العالى وبالمجلس العالى الاميرى الكبيرى السيفى النايب

بالقدس الشريف

وكاشف الرملة والقضاة بالقدس الشريف وانهم امروا المهندسين

بكشف

ذلك بحضور العدول وانهم امروا بعمارة ذلك على ما كان عليه

اولا من غير

زيادة وتلبيس اسطحته بالجبس وترميمه وقطع قرطه وانهم كتبوا

بذلك

محضرا ومرسومنا للمجلس العالى ان يتقدم بالركوب بنفسه

ويتوجه إلى الدير المذكور ويكشف الاماكن المذكورة ويعمل فيها

ما يقتضيه حكم

الشرع الشريف وبراءة ذمة المجلس العالى عند الله عز وجل فاننا

نتحقق

دينه وخيره وجودته والقصد في ذلك العمل بما تقتضيه الشريعة

المطهرة وكتبنا الى المجلس العالى النايب بالقدس الشريف وما مع ذلك

بمعنى ذلك وذكروا فى قصتهم ان من جملة حقوق الدير المذكور

مكانا ملاصقا بجداره ينتفعون به فى زراعة الخضروات وانه لما قل

تردد الرهبان

الى المكان المذكور استولا عليه شخص من بيت لحم وصار

يختص به ويمنعهم من الانتفاع به

فيتقدم المجلس العالى بالكشف عن ذلك وتحريره وان كان المكان

المذكور للدير قديما وهو من حقوقه والواضع اليد عليه الآن

بغير حق ولا طريق

شرعى فيعاد اليهم على الوجه الشرعى وذكروا فى قصتهم انه اذا

ورد راهب

مستجد من بلاد الفرنج انه يزيد الموجب السلطانى مرة واحدة

وانه اذا سافر

لاحضار الصدقة ثم عاد لا يعطى شيئا وكذلك ريس الدير لم يكن

له عادة بوزن شى قط وانه فى هذا الوقت ثم من احدث عليهم حادثا

ويلزمهم باعطاء ما لم تجر

لهم به عادة فيتقدم المجلس العالى ويكشف عن امرهم قديما ويجروا

في ذلك

على جارى العادة فى الايام الناصرية والمويدية وذكروا فى قصتهم ايضا ان

لهم ترجمانا نصرانيا يسمى يوسف يتعاطى اسباب مصالحهم ويقضى

حوايجهم ويخدمهم

على ماجرت به العادة وقرروه الحكام من قديم الزمان وانه لم يكن
له جرمة ولا جنحة
وثم من يقصد استبداله بغيره ويقصد بذلك قطع مصانعتهم ويحصل
لهم بذلك الضرر
فيتقدم المجلس العالى بالكشف عن يوسف المذكور وان لم يكن
صدر منه
ذنب ولا جرمة فيستمر فى ترجمتهم على عادته وقد كتبنا الى
المجلس العالى
السيفى النايب بالقدس الشريف وكاشف الرملة اعلمناه بذلك كله
فيحيط علم المجلس العالى بذلك والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه
ان شاء الله تعالى

كتب فى حادى عشر ذى القعدة الحرام
من سنة خمسين وثمان مئة
حسب المرسوم الشريف
الحمد لله رب العالمين وصلواته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه
حسبنا الله ونعم الوكيل

(٦)

مرسوم الأمير تمراز

٨٥١ هـ.

الحمد لله

الملكى الظاهرى

يعتمد

المرسوم بالامر الكريم العالى المولوى السيدى المالكى المخدومى
القاضوى الامامى العالمى العاملى العلاّمى مولانا المقر الاشرف الامينى ابى
الميامن عبد الديرى الحنفى الظاهرى ناظر الحرمين الشريفين وما
مع ذلك اعلاه الله تعالى ان يتقدموا الروسا بقرية بيت لحم
والفلاحون
بتمكين الرهبان بقرية بيت لحم من تكملة بنا ماهدم لهم من
ديرهم
على حكم ماحكم لهم بالشريعة المطهرة الاشهاد
المكتتب بيدهم وذلك يمكنهم من حاكورة شرقية ديرهم
بمقتضى المراسيم
الشريفة شرفها الله تعالى وعظمها وثبت لهم ذلك بالشرع الشريف
ويتقدموا الروسا بعدم المعارضة للرهبان المذكورين وكف اسباب
الضرر عنهم على وجه الشريعة المطهرة وان لايتعرض اليهم احد من

الفلاحين فيبادروا الى ذلك قولاً واحداً وأمراً لازماً والحذر ثم

الحذر من المخالفة يعلموا

ذلك ويعتمدوه والاعتماد فى ذلك على الخط الكريم العالى اعلاه

الله تعالى اعلاه حجة   ان شاء الله تعالى

كتب فى حادى عشر صفر الخير

من شهور سنه احدو خمسين وثمان مئة

الحمد لله وحده وصلى الله على مرسله محمد وآله وصحبه وسلام

(٧)

دير النسوة راهبات الفرنج

محضر شرعى ٨٥١ هـ

الحمد لله

أذنت فى ذلك على الوجه الشرعى وأن

لا تمنع من ذلك على الوجه الشرعى

وبالله التوفيق .

كتبه على ابن السايح

لا تمنع من إعادة ذلك على ما كان من غير

زيادة وترميم ذلك كتبه ابراهيم بن على الحنفى

بالرحمن

المستعان

بسم الله الرحمن الرحيم يا لطيف يا كافى ياحفيظ ياستار

باذن مولانا وسيدنا العبـد الفقير الى الله سبحانه الآمل فضله

واحسانه القضآى الامامى العالمى القدوى الوحيدى الفريدى الحاكمى

العلآئى بن السايح الشافعى قاضى القضاة الناظر فى الحكم العزيز بالقدس

الشريف اسبغ الله تعالى ظلاله وختم بالصالحات اعماله وقف من يضع خطه

آخره من العدلين بالقدس الشريف على الحايط المنهدم بالدار البرانية

السكاينة ظاهر القدس الشريف تجاه دير اندرياس وتعرف هذه الدار

بدار النسوة راهبات الفرنج المقيمات بالدار المذكورة الذى انهدم من
مدة شهرين كاملين قبل تاريخه من كثرة الامطار وتحرير ذلك . فالذى
انهدم من الحايط المذكور قطعة ذرعها شرقا بغرب تقدير ستة وثلاثون
ذراعا بذراع العمل المعتاد وارتفاعها إلى انتهآء بقية الحايط المذكور
تقدير سبعة اذرع وتساقط ذلك إلى الارض حتى صار يمنع من يقصد
الدخول الى الدار المذكورة . فعند ذلك سالت الراهبة ماجورة المقيمة
بالدار المذكورة والمتكلمة عليهامن مولانا وسيدنا قاضى القضاة العلآئى
بن السايح الشافعى المشار اليه اعلاه ادام الله تعالى عُلاه ان لا تمنع من
اعادة ما انهدم من الدار المذكورة بالاحجار التى خرجت منه وبنآء ذلك
بالطين والشيد على ما كان عليه اولا اسوة بقية الحايط المذكور من غير
زيادة على ذلك على الوجه الشرعى المعتبر المرضي . وان لا تمنع ايضا من ترميم
الحايط القبلى من الدار المذكورة بالشيد والصوان ليمنع ذلك من انهدام
الحايط المذكور كما انهدم الحايط المذكور الشمالى وليحصل بذلك
لها وللراهبات المقيمات بالدار المذكورة الامن على انفسهن وامتعتهن من
السراق . كل ذلك على الوجه الشرعى المعتبر المرضى وشمول هذه الصورة
بخطه الكريم بما يقتضيه الشرع الشريف فى ذلك واعتمادها عليه فيه
بتاريخ تاسع عشر الحجة الحرام من شهور سنة احدى وخمسين وثمانمئة
ونسال الله سبحانه وتعالى حسن العافية عنه وكرمه ان شاء الله تعالى
حسبنا الله ونعم الوكيل

وقفت بالاذن العالى المشار
اليه اعلاه اسبغ الله تعالى
ظلاله على الحايط المذكور
اعلاه وعاينت ما انهدم منه
كما شرح اعلاه ، فى تاريخه
كتبه على بن يحيى الايدونى
حامداً ومصلياً ومسلماً

وقفت بالاذن العالى المشار
اليه اعلاه باركه الله تعالى على
الحايط المذكور اعلاه وعاينت
الهدم كما شرح اعلاه فى
تاريخه كتبه احمد بن
احمد العليمى

وقفت على الحايط المذكور
اعلاه وعاينت ما انهدم
فيه كما شرح اعلاه فى تاريخه
كتبه محمد بن محمد الرملى

RISANI ; XXIV Documento, pp. 278–280.

بالاحجار والشيد وترميم الحايط القبلى بالصوان والشيد كما عين فيه

باطنه بحيث يمنع

من انهدامه وتمكين السايلة المذكورة من ذلك وعدم معارضتها

فى ذلك على الوجه الشرعى

يعلم كل واقف على ذلك والاعتماد فى ذلك على العلامة العالية

والخط الكريم العالى

اعلاه اعلاه الله تعالى ـــ ان شاء الله تعالى ـــ الحمد لله وحده

كتب فى حادى عشرين الحجة

سنة احد وخمسين وثمانمئة

وصلواته على ساير انبيآئه اجمعين

حسبنا الله ونعم الوكيل

RISANI : XXIV Documento, p. 282

(٨)

دير النسوة راهبات الفرنج

مرسوم الأمير تمراز ٨٥١ هـ

الاسم

الحمد لله

الملكى الظاهرى

المرسوم بالامر العالى المولوى السيدى المالكى المخدومى السيفى تمراز

الظاهرى نايب السلطنة الشريفة

يعتمد كتب تمراز

بالقدس الشريف وبلد سيدنا الخليل عليه السلام وكاشف الاعمال

الساحلية والجبلية الرملة ونابلس

المحروستين اعلاه الله تعالى انه تاملنا ما سطر فيه باطنه ووقفنا عليه

واحطتنا بذلك علما

وبما شرح فيه وما اشار به السادة القضاة على الوجه المعين فيه اسبغ

الله تعالى ظلالهما

وتمكين الحرمة ماجورة السايلة فيه باطنه من اعادة بنا الحايط

الشمالى بالدار المذكورة باطنه

(٩)

صدر مكاتبة

للأمير أبى عبد الله محمد بن نصر الخزرجى صاحب الأندلس

٦٠ب

عبد الله وولّيه السلطان المالك الملك الظاهر ... [إلى آخر الألقاب]
خلّد الله تعالى سلطانه .

يخص الحضرة العلية السَّنَية السَّرية ، السُّنُية المكرّمة الميمونة ،
الأوْزعية الأوْزعية المنصورة المصونة .

حضرة الأمير العالم المجاهد ، المرابط المثاغر ، الموحِّد الأوحد ، أبا
عبد الله ، ذخر الإسلام والمسلمين ، عدّة الدنيا والدين ، قدوة الموحِّدين ،
ناصر الغزاة والمجاهدين ، سيف جماعة المشركين ، صلاح الملوك أمير
المسلمين ، محمد بن نصر الخزرجى ، أعزّ الله تعالى أنصاره ، وأعلى فى
الدارين مناره .

ولازالت عزماته بالتأييد مقترنة ، ونفوس العدى فى أجسادهم
لقواضبهم الماضية مستودعة مرتهنة ، ورؤوس أهل الشرك تحت سنابك
جياده مبهدلة ممتهنة .

١٦١ أصدرناها إلى الحضرة العليّه / تهدى إليه أفضل السلام ، وتخصه
بالتحية والإكرام ، وتوضح لعلمه الكريم بعد حمد الله على نعمه التى

بمزيد الفضل منّ بها علينا ، وجاد بعنايته الربّانية لنا إلى أن صارت مقاصد
الملوك تعْرض بين يدينا ، وقهر العدى بمهابتنا السائرة ؛ فهرعوا بالطاعة
لدينا ، وأضفى حلل السعادة والنصر على من يُسْنِدُ حديث ولائه القديم إلينا .
والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمد الذى بوسيلتنا به إلى الله التقينا ،
وباقتفاء آثار سُنَّتة ولوامع أسنّته فى جدال العدى وجلادهم اقتدينا ،
وعلى آله وصحبه أنصار الدين ، أقر الله باجتهادهم وجهادهم فى سبيله عَيْنا .
أن مكاتبته . . . .

. . . .

. . . .

. . . .

بعد حمد الله على نعمه الطاهرة والظاهرة ، ومِنَنِه الجزيلة الوافية ومنحه
الوافرة ، وعوارف فضله الباهرة ، والتى هى أعظم من البحور الزاخرة .
والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمد ذى المعجزات المتكاثرة ، وعلى
آله وصحبه ذوى العصابة الزاهرة ، والمنابع الفاخرة . ونُبْدِى لعلمه
الكريم أن مكاتبته وردت على يد . . . . فوقفنا عليها ، وصرفنا وجه
الإقبال الشريف إليها ، فوجدناها من أعظم المبهجات لدينا الواردة
علينا .

هو الكتاب الشريف ، بل السحاب المطيف ، بل البحر الذى يقذف
دراً ، ويرفع سريراً ويطلع قمراً ، ويطول أوضاحاً وغُرراً ، ويحدّث
عن السحاب خبراً ، وتهب الرياح من غربه سحراً ؟ فوجدناه أبدى

لنا محبته القديمة ، ومساعيه فى المخالصة المستديمة ، وشكرنا مبرّاته المبرورة ، التى رفعها إلى أبواب القَبول ، وأهداها إلى نيل الأرب والسؤال .

والله تعالى يجمع بسعادته كلمة الإسلام والمسلمين ، وينصره على الأعداء ، ويسد عن حوزته الشريفة أبواب الرّدى ، ونوع المطيع له فى الخدمة ، وإتباع الخُلُقِ الواضح إلى طريق الهدى .

وقد جهزنا إلى الحضرة فلان وحمّلناه من المشافهات ماينديه إلى محالّه الأسنى ، وملكه الذى حَسُنَ صورةً ومعنًى .

مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى ، رقم ٤٤٤٠ ، ورقة ٦٠ ب-٦١ أ.

(١٠)

١٥٨

نسخة كتاب صاحب الأندلس
محمد الأحنف بن عثمان

تحت البسملة الشريفة . . .

الأبواب التى ظلال رعاياتها مديدة الأفياء عالية السُّدول ، ومكارم معاليها تفضح الغيث الواكف وتخجل الغمام الهَمُول ، وأعمال أغراضها الشريفة كفيلةٌ لهذا الثغر الغريب بإنالة القصد وإسعاف المأمول .

أبواب الملك المعظّم ، الأعلى الخطير ، سلطان الحرمين ، مبلغ قاصدى معاهد الصفاء والعلمين ، مقيم رسم الحجّ ، مرغم أنف عدو الدين متى طغى فى الكفران ولَجّ .

العادل الفاضل ، المدافع المناضل ، الكافى الكامل ، المؤمَّل المرتجى ، الأطول الأصول ، الواهب الكريم ، العالم العامل ، الخاشع الخاشى ، الصالح الأسنى ، الأصعد الأسعد ، الكامل ؛ أبى سعيد جقمق الظاهر ، صاحب الديار المصرية وبلاد الشام ، أبقاه الله تستقبل بابه الكريم الوجوه والأبصار ، وتفتخر بالانتساب إلى مُوالاته الملوك على تباعد الجها[ت] وتنازح الأمصار ، ولازالت آيات سعده بإنجاز أمله وقصده تُتلى على تداول الأيام وتعاقب الأعصار .

سلام كريم كما تنسّم الصباح ، أو تبسّم زهر الأدواح ، يعتمد

أبوابكم الشريفة الفخر الصُّراح ، الكفيلة لصدر الدين الحنيف بالإنشراح ، ورحمة الله وبركاته .

أمّا بعد حمد لله ربّ الأرباب ، الذى نتمسك من ألطافه الخفيّة فى هذا الثغر الوحيد بأقوى الأسباب ، ونَقرَع فى الإستنصار بمَدَدِه أكرم باب . والصّلاة والسّلام على سيّدنا ومولانا محمد الذى اضمحل به ليل الضلالة وانجاب ، وبدت أنوار الحق لا تتوارى بالحجاب ، المبعوث بالمعجزات ، فالقمر لتصديقه انشقّ ، والدَّوح أقبل لدعوته وأجاب ، والرضوان على آله وصحبه [الذين] أحلّوا الدين — من وقايتهم — فى أعز كَنَفٍ وأوقر جناب ، ومدوا على المِلّة من نصرتهم رواقاً مسدول الأطناب ، واشتملوا على عزّ الفضائل التى لا يحصى ذكرها / [لا] بالإكثار فى الكلام ولا بالإطناب ، والدّعاء لأبوابكم الشريّفة باتصال السّعد الذى تخضع له صِيدُ الرّقاب ، وتُتلى على توالى السّنين وتداول الأحقاب .

٥٨ ب

فإنّا كتبنا إلى أبوابكم العزيزة ، كَتَبَ الله لها ما يبهج قلب الإسلام ، من السّعد الواضح الأعْلام ، وقد فعل . كما أنطق بفضل معاليها من اختفى وانتقل من حمراء غرناطة دار ملك الجهاد بثغر الأندلس ، القطر الغريب الجِلال ، الآوى إلى ناف ، ذلك الملك الذى له الزعامة الوارفة الظلال ، تداركه الله بعضده ، ونصر من بها من المسلمين الغرباء ، فما النَّصر إلا من عند الله ، وعندنا ثقةٌ بنصر الله الذى

تعوّدنا من صنعه الجميل ما تعوّدْنا ، وبلّغنا به فى إمداد كلمة الحق بهذه الديار الغريبة ما أردْنا .

ونحن نوجب التعظيم لتلكم الأبواب الكريمة ، والثناء على ماعندنا من المواهب المتصلة والمنح العميمة ، كافأ الله عنّا مالها من الحقوق ، التى قامت المفاخر منها على سوق .

وإلى هذا فموجبه إلى تلكم الأبواب الشريفة ، والإعْلام بأن الواصل بهذا الكتاب إلى الأبواب العزيزة ، التاجر الأتقى الأفضل أبو عبد الله محمد البنيولى ، كتب الله سلامته . توجه برسم تلكم الإيالة الكريمة وتلكم السَّمطيّة العظيمة ، وفى اكترائه واكتراء مَنْ معه من المركب الذى وصلوا فيه إلى تلكم البلاد الشريفة ، واكتراؤه برسْم ما يُسْنِى الله من المعونة لهذا الثغر الغريب ، والوطن الذى هو من العدو قريب ، المترقّب لما يُيسّره الله تعالى من صدقات المسلمين ونوافل خيراتهم التى يعتمدون بها ما عند الله من الثواب الجسيم ، والجزاء الذى يخلد فى دار النعيم . ومواهب أبوابكم العزيزة هى العطايا الفاخرة ، والمنح التى تُوفى سعادة الآخرة .

وأن المركب المذكور يصل بالسلامة إلى ثغر الإسكندرية ، حماها الله . والقصد من أبوابكم العزيزة أن تأمروا بالمشاركة فى تفريغه ووثقه ، وفى كل ما يحتاج إليه ، حتّى يتم معونة هذا الوطن المستَصْرِخ بأبوابكم المتمسك بأسبابكم . ومبلغ كراء المركب المذكور فى سفره وعودته

ثلاثة عشر ألف دينار وخمسمائة دينار من الذهب الفارسى ، كتب الله سلامته .

وأبوابكم الشريفة ، زادها الله تشريفاً وأبقى بها جانب الإسلام منيفاً ، كفيلةٌ / بإتمام هذا القصد وإكماله ، وإسعاف غرض ثغر الجهاد وتبليغ آماله . ١٥٩

والله تعالى يبقى شرف تلكم الأبواب عالياً ، ويجعل سعدها متوالياً .

والسلام الكريم يعتمد أبوابكم الشريفة من مقامنا السلطانى المحمّدى العالى النّصرى ، أعزَّ الله جهاده ، وحمى معاقله وبلاده .

ورحمة الله وبركاته .

كتب فى الثالث عشر من جمادى الأولى عام خمسة وخمسين وثمانمائة.

المخطوط السابق ، ورقة ١٥٨ — ١٥٩

(١١)

نسخة قصة وردت إلى الأبواب الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية ، إينال ، من المسلمين القاطنين ببلاد أشْبُونَة[1] وهى : ١٥٩

بعد البسملة الشريفة . . .

الحضرة العليّة التى جعلها الله شريفةً بالمقام الذى جعلها مثابةً للناس وأمناً ، ووسم وجوه مطالعها الشريفة ومراقبها السامية المنيفة بركةً ويمناً ، وعمها بخصوصية سعادته الأبدية ، وألطافه الخفيّة السّرمدية ، فكانت لها العاقبة الحسْنى . وخصّها من مجاورة أرضه المقدّسة ، والقيام بحقوق بيته ذى الحرمات المعظّمة ، بما أحرزله من ملوك الأنام ، وخلفاء الإسلام ، المنصب الأشرف والمقام الأسنى . وجعل بدولتها جمال الأيام ، وأعزّ بصولتها جوانب المسلمين والإسلام . ورضيها لكفالة الحقّ وإيالة الحق ، وآثرها من قوة القوائم ، وشدة الصّوارم ، والفضل فى إفاضة النّعم ، والعدل فى سياسة الأمم ، ماظهرت به لها مزِيّة السبق ، وسلّم الغرب الفضيلة للشرق .

(١) استولت النصارى على مدن أشبونه وشنترين وشنتره فى عام ٥٤١ هـ . انظر : الدكتور لطفى عبد البديع : نص أندلسى جديد. قطعة من كتاب فرحة الأنفس لابن غالب عن كور الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة ، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول ، الجزء الثانى، ربيع الأول ١٣٧٥ هـ — نوفمبر ١٩٥٥ ، ص ٢٩١ .

حضرة مولانا السلطان الجليل ، الطّاهر الظّاهر النبيل ، فخر الإسلام ، حَسَنة الليالى والأيام ، ناصر الدّين والملّة ، خاذل الطوائف المضلّة ، الحائز فى كرم الشّيم وشِيم الكَرَم ما شاع به فضلُه ، وانتشر له فى الأقطار والأمصار ما هو أهله .

مَنْ اختاره الله لإنمائه الحجيج إلى بيته الحرام ، وإلى زيارة قبر نبيّه عليه الصّلاة والسّلام ، محيى العدل فى العالمين ، فخر الملوك والسلاطين ، خليفة الله فى أرضه ، القائم من الجهاد بسنّته وفرْضه .

صاحب الديار المصرية والحجازية والشامية، مولانا السلطان إينال، جعل الله دولته غُرَّةً فى وجوه الدول ، وأحيا بمآثرها الكريمة آثار الملوك العظماء الأُول ، وصرّف لها الليالى والأيام / تصريف من لديها من العبيد والخول . وخلّد عمرها ، وأعزّ نصرها ، وأعْلَى قدْرها ، وشيّد جمالها وفخرها ، وأدام على البلاد والعباد إمتداد ظِلّها ، ومَهّد خلائقها المشتملة على ضروب المآثر والمفاخر كلها .

٥٩ب

سلامٌ يتأرّج تأرّج الروض الأنيقِ غِبَّ سمائه نفحاتُه ، وتألّق تألق البدْر المنير وسط سمائه صفحاتُه ، وينعطف انعطاف أنعام الله عليكم ورحماته وبركاته .

وبعد حمد الله الكبير الذى هو نعم المولى ونعم النَّصير حمداً كما يجب لجلاله . والصّلاة والسّلام الأكملان على سيّدنا محمد وعلى آله ، والرِّضى عن صحابته وعترته . والدعاء لحضرة مولانا السلطان بدوام النَّصر والتمكين والفتح المبين .

فقد كتبه للمقام العلىّ — كتب الله له تجديد السعود ، وتأييد البُنُود ، وإنجاز النصر الموعود — عبيدكم الغرباء المساكين القائمون بدين سيّدنا ومولانا محمد عليه الصّلاة والسّلام، بين الكفرة وعبّاد الأصنام ؛ يقبّلون بِساطكم الكريم ، ويعرّفون المقام العلىّ ، زاده الله عُلوّاً وشرفاً ، أن العبيد أهل أرض أشبُونَه وما يليهما من البلدان؛ وكان النّصارى — خذلهم الله تعالى — حين أَخذوا تلك البلاد من أيدى المسلمين فى الزمن الأول — كما شاء الله ربنا وقدّره وسبق فى سابق علمه — منعوا مَنْ استولوا عليه من المسلمين من أسلافنا من الخروج ، وأبقوهم على دينهم يقيمونه بأعلى ما ينبغى ، يؤذّنون ويصلّون ، ويفعلون من سبل الخيرات ما به إلى ربهم يتقرّبون ، فرضوا بما قدّره الله وحكم به عليهم ، وسَاقه قضاؤه الحتم إليهم. وخَلَفناهم نحن من بعدهم كذلك ، وجعل سبحانه وتعالى بقاءنا هنالك رحمةً لأَسْرى المسلمين ، وإعانةً للضعفاء الملهوفين، نفدوهم ونستر على هاربهم و نبلّغه مأمنه . مع أنّا — أعزّكم الله — فى الإقامة بتلك البلاد مكرهون مقهورون ، ويودُّ الرجل أن يترك جميع ماله ويخرج لأرض المسلمين ؛ فلا يجد لذلك سبيلاً .

وقد وقعت بنا فى هذه المدة مصيبةٌ عظمى ، وداهيةٌ دهما ؛ وذلك أن قِسّيسى القُمامة ورهبانها الساكنين بأرض بيت المقدس ، بعثوا لهذا الرومى صاحب بلاد البرتغال الذى نحن فى أرضه ، أنهم فى غاية الضيق وأن القُمامة التى هى شرفُهم وشرف سلفهم ومقصد حجّهم / تهدمت ،

١٦٠

وأن المسلمين منعوهم من بنائها وبناء ما هُدم لهم من كنائسهم ؛ بل
وأنهم بَدَّلوا بعض كنائسهم مساجد .واستصرخوا به واستنهضوا أن
يفعل هو بنا كما فُعِلَ بهم هنالك ، وأَسَرُّوه أن يهدم مساجدنا ويمنعنا
من إقامة ديننا ويوقّع الضرر بنا

فبعث لنا السلطان المشار إليه بما ذُكر ، وأمرنا أن نَبعث إليكم
بهذا الخبر ، ونرغب إليكم فى كشف هذا الذى نزل وإلا فهو يوقّع بنا
ما وقع بهم ؛ فاجتمع مَنْ هنا من المسلمين ، وتضرَّعوا إلى رب العالمين،
واتفقوا أن يرفعوا هذا الأمر إليكم ، ويوقفوا تفريج كربتهم هذه
عليكم ، إذ ديننا واحدٌ ، وهو كجسمٍ إن اشتكى منه عضوٌ تشاكى
جميعه . فاجتمع مَنْ فى عمالته من المسلمين ، ولجأوا إلى الله متضرّعين ،
وبسيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم متوسّلين ومتشفّعين : أن يكشف
سبحانه على يديكم كُربتهم ، ويرحم غُرْبتهم ؛ فاخترنا من بيننا رجلين
من أهل القرآن العظيم ، ومن ذوى الحسب الصّميم ، وهما :

الفقيه أبو العباس أحمد بن محمد الرُّعَينى ، والفقيه أبو عبد الله محمد
بن الونداجى .

وجّهناهما إلى حضرتكم الشّريفة برسالتنا ، وفى تبليغ حُجّتنا .وليس
القصد — أدام الله أيّامكم ، ونصر ألويتكم المظفّرة وأعلامكم — أن
النّصارى الذين تحت إيالتكم ، وفى قطر عمالتكم ، تمكنوهم ممـــا لم
يُتمكنوا منه [من] قبل ، ممالم تجر به عادةٌ ، أو يزدادوا فى طريقهم التى
[هم] عليها زيادة، إلاأن تسمحوا لهم ببناء ماهُدم لهم وتعمير مابهم عُرف وعُلم .

وإنما بُغْيَتُنا منكم أن تأمروهم أن يكتبوا لسلطانهم الذى كتبوا له أولاً :
أن لا يتعرّضَنا فى مساجدنا وأن لا يمنعنا من إقامة ديننا ، حيثما وقع
الصلح بين أسلافهم وأسلافنا .

وأنه إذا أوقعوا بنا شيئاً يقع بهم أضعافه ، حتى تحسن عشرته
معنا ، ونأمن فى سِرْبنا ، ونقيم ديننا على عادتنا من إظهار الأذان فى
الصَّوامع ، ومواظبة الجماعة فى المساجد والجوامع .

وهم يزعمون أن القُمامة هذه بها ولد عيسى المسيح ، وأن القيام بشأنها
عندهم هو الدين الصحيح . وأن الصلح وقع على إبقائها كذلك مع عمر
ابن الخطّاب ، ووافق ذلك مَنْ جاء بعده من الأصحاب ، رضى الله
عن جميعهم وجعلكم / وإيّانا فى بركة شفيعنا وشفيعهم. ونخشى — أيّدكم ٦٠ ب
الله — إن استمروا على المنع مِنْ هذا الذى طلبوا من بناء هذه القُمامة
أن يضيّقوا علينا فى المسالك ، ونهلك مع مَنْ هو هالك ، وتُهدم لنا
المساجد ، وينقطعِ منّا الراكع والساجد ، ويصل الضرر إلى جميع هذه
الطائفة الإسلامية ، الساكنين كما شاء الله فى البلاد النّصرانية ، ولا
يخفى مافيها من المنفعة للمسلمين ، والرّحمة والإعانة للمأمورين . فكم
فككنا من أسير ، وسهّلنا عليه من عسير ؛ مع أنّا لو وجدنا
للخروج من البلاد سبيلاً مارضينا المقام بها بذلك بديلاً ، لكن الرضا
بما قدّره ربّنا وقضاه ، وأنفذه فينا وأمضاه ، فله الحمد على كلّ حال ،
والشكر على ما أراد بنا من خيرٍ أو إفضال .

فالعبيد لجأوا إلى فضلكم ، وتشفّعوا إليكم بنبيّهم ونبيّكم ، فى

تفريج ما نزل بنا من الطّامة ، والمصيبة التى هى للمسلمين بهـذه البلاد عامّةً .

والله سبحانه يديم لمقامكم الكريم نصر اللّواء ، وقهر الأعداء ، ويُعرّفه فى كل مقام يرومه يُمْنَ الإعادة والإبداء .

والسلام الأتمّ الكريم يخص مقامكم العلىّ ورحمة الله وبركاته .

بتاريخ أوائل شهر ربيع الثانى
الذى من عام ثمانية وخمسين وثمانمائة
عرّفنا الله خيره، بمنّه .

المخطوط السابق ، ورقة ٥٩ ا — ٦٠ ب

(١٢)

٦٢ ب

الحمد لله

نسخة كتاب صاحب الأندلس الوارد على الأبواب الشريفة الملكية الظاهرية خشقدم

بعد البسملة الشريفة :

الأبواب التى اعتلى فى العزّ معراجها ، وتجلّى فى سماء البسيطة وأفق الأرض المحيطة شمسها المنير وسراجها . وعُلم بإرشادها وتأييدها للجهاد وإمدادها طريق الخيّرات ومنهاجها ، وقام ببرهان إِمْرَةِ الحرمين الشّريفين شاهدها على الفخار واحتجاجُها .

أبواب السلطان المعظّم الأعلى ، الهمام الأشرف ، العزيز الخطير ، الأصعد الأسعد ، الإمام المجدّ المُمدّح، الكافى الكافل، الكريم الجواد، المانح الواهب ، الأطول الأصول ، العادل الفاضل الكامل ، عَاصِبُ تاج الفخار ، هازم الفرنج والترك والتّتار .

سلطان الحرمين الشّريفين ، مقيم رسْم الحجّ ، كبير الملوك ، حجّة العدل ، لسان الحق ، غيث الجود، ظِلّ الله فى أرضه ، الموقّر المبجّل، المفضّل المنعّم . ملك مصر وسلطانها ، أبقاه الله دَوْحَةَ الرجاء من أهل الأرجاء إلى غمام كرمه مصروف ، / وإمداده للجهاد معلومٌ فى سبيل الله معروف، ووطن المثاغرة بحمايته وعنايته محفوف، فتعتزّ به لكتائب الإسلام

٦٣ ا

صُفوف ، ويـكون به للتَّوحيد مزيّةٌ وشغوف ، حتى يحل الدّين فى
حِرْزٍ حريز ، « وماذلك على الله بعزيز » ، فهو بعباده رحيمٌ رؤوف .
موجب الحقوق لسلطانه الذى انسحبت من مَعْلَوَاتِه على الجوزاء الذَّوَائِبُ،
وَحُثّت إلى التماس إيالته الرّكائب ، وأُسعفت من إنالته للراغبين
الرَّغائب ، وعاد الآملون يحثون حقائبهم بمكارمه مطوّقين ، وبالثناء على
سلطانه ناطقين .

عبد الله أمير المسلمين ، سعد ، المستعين بالله ، ابن الأمير المنعّم أبى
الحسن ، ابن أمير المسلمين أبى الحجّاج ، ابن أمير المسلمين أبى عبد الله،
ابن أمير المسلمين أبى الحجّاج ، ابن أمير المسلمين أبى الوليد بن نصر،
أيّده الله بنصره وأمدّه بيُسْره .

سلام كريم طيّب عميم ، ينافح شذا الرّوض الأريج ، وقد أفاد
مَرْوِىُّ نهره خبر الضّحاك من زهره بالتَّخريج ، ويحاسن الصُّبح البهيج،
وقد ملأ دم شَقَقِة وجنّةَ أُفقه بالتضريج ، يعتمد أبوابكم التى يُلقى عصا
التّسيار حول مشارعها ركب المَعِيج ، وتطوف الآمال بكعبتها طوفان
الحجيج ، ورحمة الله وبركاته .

أمّا بعد حمْد لله الذى أوضح لنا من التعاون على البرّ والتقوى سبلاً
شريفة الآثار ، وجعل التّوكل عليه كفيلاً بإقالة العثار ، وإدراك الثار
ونظم النِّثار . والولىّ النَّصير الذى لا يُغالب مَدَدُ نصره لا بالإحتشاد ولا
بالإستكثار ، الذى وصّى بالصبر وجعله مقدّم الإيثار ، إذا أومضت
بروق السيوف فى سحبِ النَّقع المثار .

والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمد نخبة الأكوان ، ونور الله المبين
قبل وجود الأنوار ، ورحمته المخرجة من دار البوار ، الداعية من جوار
التوحيد إلى أشرف الجوار ، المؤيّد بسوابغ المعجزات المخرجة من
داعيات الضَّلال ؛ فالبدر صدَّقه بانشقاقه ، والجذع حنّ لفراقه حنين
الحُوار ، صلّى الله عليه وسلّم ، صلاةً نجدها من أوقى الأُطُم وأمنع الأسوار،
ما تفجرت جداول / الفجر من بحر النهار ، وما صيغت دراهم الأزهار ٦٣ ب
من لُجَيْن الأنهار . والرِّضا عن آله وأصحابه نجوم الهـدى المشرقة
الإسفار ، الذين أَمِنَتْ بهم ذمم النّصرة من الإخفار ، ومناز لها من
الإقفار ، الأُسود فى مواقف الحروب ، الرُّهبان فى مجالس الإستغفار ،
الرحماء بينهم الأشدّاء على الـكفّار .

والدعاء لأبوابكم ، أبواب المواهب المستهلّة الأمطار ، والمَعْلَوات
الشّهيرة الأخطار ، والمفاخر البعيدة المطار ، باتصال السّعادة التى يهيم
بذكرها حادى القطار ، فى جميع الأقطار ، واعتلاء المظاهر المعمورة
بالقنا الخَطّار ، المتأرّجة عن شذا النَّصر المِعْطار .

فإنا كتبناه إلى أبوابكم التى تشيّد لها الصّيت الحاصل ، وامتدّ
نوالها المتواصل ، واقترنت بأسباب الطغاة منها الفواصل . كتب الله لها
سعادةً يتأيّد عليها المستأصل ، ونصراً يعمّ العدى بالإقتناص حتى تحول
بينهم وبين المناص المفاصل ، من منزلنا المحبور بالإنتساب لودّكم ،
والإنماء المُستَمْطر بسحب مواهبكم الهامية الإهماء ، المجلّى بأنوار

المتوكّل على الله غياهب الغماء ، بحمراء غرناطة دار ملك الجهاد
بالأندلس ، القطر الوحيد الذى لم يبق فيه من التّوحيد غير الذّماء ، أمدّه
الله فى الأرض بمدد ملائكة السماء ، وتداركه بكشف داهيته الدهماء ،
وأوزعنا شكر ما عوّده اللطيف الخفىّ من النعماء ، ولا زائرٌ إلا بنفوس على الله
متوكّلة ، وقلوب بالصبر متجمّلة ، ولنصر الله متأمّلة . وعندنا من التّعظيم
لسلطانكم ما لو وصفناه لاستوعب القريض ، والتّصريح والتّعريض ،
ومن الثّناء على تلكم الأبواب ما لو استودعناه صدر الجو لَعَطَّر أفقه
العريض ، وأصبح نسيمه المريض محبةً لا نزال نستجلى صبحها وسيماً ،
ونعتبر الإستمساك بأسبابها لطفاً من الله جسيماً ، ونستمنح بها الإمداد
متوكّلين على الرّب الذى يردّ صدر الكفر كظيماً ، وشمل النّصر نظيماً ،
﴿ ومن يتوكل على الله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ .

٦٤ أ وإلى هذا [أ] على الله مظاهر / تلكم الأبواب التى مصعدها
منيع ، وجنابها فريع ، وشأنها عملٌ فى سبيل الله وصنيع ، وبابها إلى داعى
النّدى والتّكرّم سريع ، فقد استقرّ فى علومكم التى هى على التّقوى
مؤسّسة الأركان ، وتمكّن فى أسماع سلطانكم العزيز على بعد المكان ،
ما هذا القطر الغريب عليه من مدافعة العدو الكفور ، ومكافحة جيشه
الموبور ، وتسوّل له عدّة الشيطان الغرور ، على التوالى من الأيام والمرور ،
من استئصال هذه الكلمة ، والإستيلاء على نفوس هذه الأمة المسلمة
ليردّ المساجد بيعاً ، ويملّك البلاد زمراً من الكفر وشيعاً ، يعطّلون
من مجال التّوحيد الفسيح ، ويعلنون بالتّثليث ، ويهتفون بأباطيل

الدّين الخبيث . فهو يعاهد كل يوم هذه الأرجاء المنقطعة عن منازل
الإسلام ، ويطرقها بالإضرار والإيلام ، ويقضى على كفره فرضَ
الطواف بأركانها والاستلام ، فالدّين هنا فى خطب مهول ، واشتباكٌ مع
الكافرين الذين عمّروا الحزون والسّهول ؛ حتى أذهلوا مع قلّتنا
القلوب والعقول . فنحن نستغيث بنصرتكم فنقول :

ياولىّ المسلمين ، الذى نؤمّل بغياثه رحمة أرحم الراحمين ، أبقاكم
الله تُقطع بعونتكم أواصر الكافرين ، وتتدارك أرماق هؤلاء
المنقطعين . نحن والله مقيمون فى سَفَطٍ واحدٍ مع الحيّات ، متعرّضون
لسهام المنايا الوحيّات ؛ فحسبنا الله ونعم الوكيل ، كلمة المستسلمين لأمره ،
الطامعين فى نصره ، الواثقين فى الشّدائد والمضايق بِيُسْره ، الواقفين
لجموع هذا المشرك الذى لَجَّ فى طغيانه وكفره ، اقتداءً بما أنزل الله فى
كتابه المبين ؛ إذ يقول وهو أصدق القائلين :

﴿ الّذين قَالَ لَهمُ النّاسُ إنّ النّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوْهُمْ
فزَادَهُمْ إيماناً وقَالوا حَسْبُنَا الله ونِعْمَ الوَكِيلُ . فانقلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ
اللهِ وَفَضْلٍ لم يَمْسَسْهُم سُوءٌ واتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ واللهُ ذو فضلٍ
عَظِيمٍ [1] ﴾

٦٤ ب ولا يأس من روح الله وفى الله مطمعٌ / ، وقد توقّف لنصرتكم

١ — آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤

قلب ومسمع، ﴿فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾[١].
ولا يخذلنا من معونته، فإن يخذلنا فمن ذا الذى ينصرنا من بعده،
و ﴿سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾[٢]، ولا يكون كل من يُخاف منه؛
﴿لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً﴾[٣]

ولتعلموا ياولىّ المؤمنين أن هذه الجزيرة قد أوهن الشِّرك قواها،
وأخاف الكفر مثواها؛ فطرق ديارها، وعكس اختيارها، فهى
لاتدفع عن نفسها فى شدّة، ولاتستظهر إذا مسّها خطبٌ — من
ضعفها — بقوةٍ ولا بعُدّةٍ. فالمعونة المعونة، والبدارَ البدارَ، بما مكّنكم
الله تعالى منه. والحمد لله من القوه والاقتدار؛ فسل اقتحام الدار، ووهى
الجدار، فقدأحوج الإفتقار والإضطرار، وجنحت الشمس للإصفرار،
وما بعد العشيّة من عرار.

هذا العدوّ المشرك صاحب قشتاله — قصمه الله — فى كل عام يهجم
على بلادنا وثغورنا، ويجدّد فى كل ساعةٍ ولحظة أشجان قلوبنا وصدورنا.
تملّك فى العام الفارط مدينة جبل الفتح من بلادنا[٤]، وهو محل الفتح

---

١ — المائده : ٥٢
٢ — الطلاق : ٧
٣ — الطلاق : ١
٤ — المقصود بهذه المدينةمدينة الجزيرة ـ انظر :
GAUDEFROY - DFMOMBYNES : Masalik El - Absar, pp. 243 — 244

الأول، والمعقل الذى عليه الاعتماد والمعوّل، أزال عنه كلمة الإسلام،
وعمّر مآذنه بالنواقيس ومساجده بالأصنام، وملأه بقوم يعبدون
أوثانهم، ويحكّمون صلبانهم، ويجدون فيه مع الساعات كُفْرهم
وطغيانهم. أُصيب منهم المسلمون بالمصيبة العظيمة، والفجيعة المُقْعِدَة
المُقيمة، [التى] ملأت القلوب تفطّراً، والنفوس تفكّراً.

وفى العام المذكور استولى العدوُّ أيضاً على حصن اللّقوق[١] من
حصون المسلمين؛ حصنٌ عينه لأرض الكافرين مراعية، وأذنه لسماع
أخبارهم واعية، وإليه كان يركن من شنّ الغارة على أرض الكفر،
وبه كان يعتصم مَنْ تخلّص من أيدى المشركين من النّاب والظُّفر؛
ضاعف قوة المشركين، وأمّن طُرق الأعداء السّالكين.

والآن استولى العدو على حصن أُرْجُذونة[٢]، المعقل الذى
شهاب عزازته متألّق، وكفّ منعته بالسماء متعلّق، ينظر أرض

١٦٥

العدى عن كثب، ويلاحظ العدوّ إذا وثب/، ويحذّر من مكائده،
وينذر من مراصده؛ فوهت القوى، وترادفت البلوى، وعظُمت
الشكوى، وضاق المجال، ومُنّت الآمال، وأعوز الإحتيال.
فيا لله ويالّلمسلمين، عزيزٌ علىَّ والله كلمة التَّوحيد أن تُخذل
ومنكم النَّصير، أو أن تضعف وبين يديكم الخير الكثير، ﴿رَبَّنَا آمَنَّا
بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[٣]. لانشرك بك

---

١ — هكذا ورد ذكرهذا الحصن فى الإحاطة بأخبار غرناطة، الجزء الأول، طبعة القاهرة ص٢٣
٢ — ياقوت : معجم البلدان — مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ، ص ٩٤ ، ج ٤
٣ — آل عمران : ٥٣

أحداً ، ولا نجعل لك صاحبةً ولا ولداً ، ولا نجد من دونك ملتحداً .

﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِن إِلَٰهٍ ﴾[١] — ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ . وَقَالَ المَسِيحُ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارَ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ[٢] ﴾ .

فتعالوا ياولىَّ المسلمين ، وناصر الدِّين ، القائم على أُصوله ، المبنىُّ على حب الله ورسوله ، ندعو الله فى كفّ هؤلاء المشركين الذين ماقاموا بالحق ولا تشرَّعوا ، ونمد يد الضراعة ، فالله يقول ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بِأْسُنَا تَضَرَّعُوا[٣] ﴾ ، أن يؤيد الله الكلمة ، ويتدارك أرماق هذه الطائفة المسلمة بالنصر على الطَّاغية ، و [على] جنود العدوِّ الباغية .

وسيؤدِّى هذه الرسالة إلى أبوابكم العليَّة الشيخ الحاج المبرور ، الأرضَى الأوْفَى ، أبو عبد الله محمد بن الفقيه ، وصل الله عزّته ، وكتب سلامته . يُبَلِّغ كل ما تبذلونه فى سبيل الله لهذه الجزيرة ، لدينه المتين وفضله المبين ، وهو يقرر ماعنده من اشتداد الحال ، وضيق المجال ؛ فلأبوابكم العزيزة الفضل فيما يلقيه ويقرّره ويلخّصه ويحرّره .

---

١ — المؤمنون : ٩١

٢ — المائدة : ٧٢

٣ — الأنعام : ٤٣

والله تعالى يصل لكم سعادةً ظلُّها مديد ، وركنها شديد ، بفضله ورحمته .

والسّلام التام يعتمد أبوابكم العليَّة .

فى تاريخ جمادى الأول سنة ثمانية وستين وثمانماية .

المخطوط السابق ، ورقة ٦٢ ب — ٦٥ ا .

الحواشي والتعليقات

١ — عن تطور الفكرة الصليبية فى القرن الرابع عشر انظر :

DE LA RONCIÉRE : La decouverte de l'Afrique, I,pp. 62-63.

ATIYA : The crusade in the later Middle-Ages,p. 118, 120,122.

الدكتور محمد مصطفى زيادة : مصر والحروب الصليبية . العدد ٣٩ من رسائل الثقافة الحربية ، ص ١١ وما بعدها .

٢ — WIET : L'Egypte arabe, pp. 493—497.

٣ — انظر عن هذه الحملة :

JORGA ; Philippe de Mézières, chap. IX,p. 273 et suivantes.

ATIYA : Op. Cit, pp.345-378.

WIET : Op. Cit, p, 506.

HILL : A history of Cyprus, II, pp. 331-334.

٣ — عن القرصنة فى شرق البحر الأبيض المتوسط انظر :

JORGA : Rhodes sous les Hospitaliers, Extrait de la Revue Historique, VIII, Paris-Bucarest, 1931, pp. 102—103, 110, 176.

MARINESCU : L'ile de Rhodes au XVe siécle, dans Studi E Testi, no 125, p. 383.

٥ — انظر فيما بعد .

٦ — المقريزى : الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ، طبعة القاهرة ١٨٩٥

٧ — انظر فيما بعد .

٨ — من أبرز الأمثلة على ذلك التاجر إمانويل بيلوتى الذى قضى فى مصر

مايقرب من خمسين عاماً ، ثم عاد إلى روما حيث قابل البابا وقدم له كتابه الذى يصف فيه أحوال مصر السياسية والاقتصادية والعسكرية فى أوائل القرن الخامس عشر . وفى هذا الكتاب يقترح على البابا مشروعاً لمهاجمة مصر — انظر كتابه :—

—PILOTI : L'Egypte au commencement du XVe siècle, éd. P.H. DOPP, Le Caire, 1950.

٩ — انظر عصر الغورى فيما يختص بتآمر قنصلى البندقية بالاسكندرية وطرابلس مع الشاه إسماعيل الصفوى ضد الدولة المملوكية .

١٠ — RONCAGLIA : Saint-Francis of Assissi and the Middle-East, p. 15.

وانظر أيضاً مقالنا عن الرهبان الفرنسسكان ووثائق دير صهيون (تحت الطبع)

١١ — DE LA RONCIÈRE : op. cit, I, pp. 59-60.

KAMMERER : La Mer Rouge, I, pp, 305-310.

١٢ — انظر فيما بعد عصر جقمق وإينال وقايتباى .

١٣ — انظر مرسوم الغورى فى ٩ محرم ١٧/٩١٩ مارس ١٥١٣ الخاص بتحقيق المساواة بين بقية طوائف الرهبان الأخرى المقيمة بالقدس من ملكانيين ويعاقبه وجورجان وحبوش وروم وقبط ، وطائفة الرهبان الفرنسسكان (عصر الغورى)

١٤ — انظر فيما بعد .

١٥ — انظر تفصيل هذا النزاع فى مقالنا عن الرهبان الفرنسسكان ووثائق دير صهيون (تحت الطبع) .

١٦ — مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، طبعة القاهرة ١٢٨٣ ﻫ ، الجزء الثانى ، ص ٤٤٣ — ٤٤٤ ، ٦٧٦ — ٦٨٢ ، ٦٨٩ .

١٧ — انظر المراسيم والحجج الملحقة الخاصة بالرهبان الفرنسسكان .

١٨ — انظر مقالنا عن الرهبان الفرنسسكان ووثائق دير صهيون .

١٩ — GOLUBOVICH : Bibliotheca Bio-Bibliografica, II, p. 151.

وانظر الفصول التاليه .

٢٠ — WIET : L'Egypte arabe, p. 553.

٢١ — (الحالة السياسية فى هذه الفترة) WIET ; op. cit, pp. 499—510

POLIAK : Le caractère colonial de L'Etat Mamlouk dans ses rapports ovec la Horde d'Or, REI, année 1935, p. 246. (الحالة الاقتصادية فى هذه الفترة)

٢٢ — MARIE-LEON PATREM: La custodie Franciscaine de Terre-Sainte, Paris 1879, p. 14.

COLLIN ; Les Frères mineurs au Cénacle, dans Etudes Franciscaines, nouvelle serie, no 22, T. IX, juillet 1959,p. 13.

٢٣ — KHITROWO : Itinéraires russes en Orient, traduits pour la Sociеté de l'Orient Latin, Genève, 1889 p. 176, (De Grethénios en 1400)

٢٤ — DURRIEU : Procès-verbal du martyr de quatre Frères mineurs en 1391, ROL, T· I, pp. 539—540.

GOLUBOVICH : Biblioteca Bio-Bibliografica, T. V, p. 267.

أشار القريزى فى كتابه « السلوك » إلى هذا الحادث ، ولكن فى عام ٧٩٥/ ١٣٩٣ — انظر ·

QUATREMÈRE : Mémoires historiques et geographiques, T. II, p. 257.

٢٥ — انظر عن هذه الحملة :

LEFÈVRE, PONTALES, DOREZ : La cronique d'Antoine Morosini,dans Extraits relatifs à l'histoire de France, 1,p.53 et suiv.

(يعطى المؤلفون الرواية الصحيحة لهذه الحملة نقلا عن المراجع الأوروبية والعربية) .

٢٦ — MARIE-LEON PATREM: op cit, p. 14.

٢٧ — انظر : DARRAG : L'Egypt sous le régne de Barsbay, chap VII, La conquéte de chypre

(فى الصفحات الأولى من هذا الفصل يعالج موضوع العلاقات بين قبرص والسلطنة المملوكية منذ أوائل القرن الخامس عشر حتى بداية توجيه الحملات لغزوها فى عهد برسباى)

٢٨ — JORGA : Notes et extraits pour servir à L'histoire des croisades, l,p. 228 n.2.

٢٩ — JORGA : op. cit, I, p. 228, 230, 236,237—239-

HEYD : Histoire du commerce, II, p. 473-

LAMMENSE : Correspondances avec le Pape, dans le Machriq, 1902,p. 543.

أشارت المراجع العربية فقط إلى استقبال السفير البندقى بالقاهرة . انظر : السلوك ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس ، رقم ١٧٢٧ ، ورقة ٢٩٤ ا . أنباء الغمر ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس ، رقم ١٦٠٢ ، ورقة ٥٩ ا .

٣٠ — JORGA : op. cit, I. p. 228. n.2-

PILOTI : L'Egypte au commencement du XVe siecle, éd Dopp, pp. 111—113.

HEYD : op cit, II, p. 472-

SALLES : L'institution des consulats, dans RHD, 1895-1897, p. 577.

٣١ — MARINESCU : Les corsaires au service d'Alphonse V, roi d'Aragon et de Naples, dans Mélanges d'histoire génerale, Cluj, 1927, p. 280.

٣٢ — السلوك ، نفس المخطوط ، ورقة ٣٠٠ ا ، ٣٠١ ا — إنباء الغمر ، نفس المخطوط ، ورقة ٥٣ ب — عقد الجمان ، نفس المخطوط ، بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ١٥٤٤ ، ورقة ١١٦ ا ، ١١٨ ا .

٣٣ — السلوك ، نفس المخطوط ، ورقة ٣٠١ ب ، ٣٠٢ ا — إنباء الغمر ، نفس المخطوط ، ورقة ٦٤ ب — عقد الجمان، نفس المخطوط، ورقة ١١٦ ب، ١١٨ ا.

PILOTI : op. cit, pp. 113—115.

JORGA : op cit, I, p. 272, n.2.

HEYD : op. cit, II, p. 472, 473.

٣٤ — DEPPING : Histoire du commerce, I, pp. 269-270.

٣٥ — السلوك ، نفس المخطوط ، ورقة ٣٠٧ ب — إنباء الغمر ، نفس المخطوط ، ورقة ٧٦ ب .

٣٦ — JORGA : op. cit, I, p. 392. n. 1.

٣٧ — Ibid: p. 280, 307, 309.

٣٨ — Ibid: p. 302- n. 1.

٣٩ — MARIE-LEON PATREM : op cit, p. 20.

٤٠ — جاء ذكر هذا المرسوم فى مقدمة مرسوم برسباى الصادر فى ٤ صفر ٨٣١ هـ . انظر :
RISANI : op cit, XV Documento, pp. 140-142.

٤١ — JORGA : op. cit, I, p. 309.n.4-
HEYD : op. cit,II,p,473

٤٢ — JORGA · op. cit, I, pp. 314—315.
HEYD : op. cit, II, p. 473.

٤٣ — CASTELLANI : Catalogo dei Firmani, no 40.
جاء أيضا ذكر هذا المرسوم فى مقـدمة مرسوم برسباى الصادر فى ٤ صفر ٨٣١ هـ .

٤٤ — JORGA : op. cit, I, p. 315. n. 4-
HEYD : op. cit, II, p. 474.

٤٥ — RISANI : op. cit, XIV Documento, pp. 116—118.
(انظر الملحق رقم ٣)

٤٦ — JORGA : op. cit, I, p, 320-
HEYD : op. cit, II,p.474.n.3.

٤٧ — السلوك ،نفس المخطوط ، ورقة ٣٥٢ ا ـ عقد الجمان ، نفس المخطوط ورقة ١٥٧ ب.
JORGA : op. cit, I, p. 327.n. 1.

٤٩ — JORGA : op . cit, I, p. 327.
HEYD : op. cit, II, p. 474.
PILOTI : op. cit, pp. 115–116.

٤٩ — HEYD : Les consulats établis en Terre-Sainte,AOL, II, Paris 1894, p. 358.

٥٠ — السلوك ، نفس المخطوط ، ورقة ٣٥٢ ب .

٥١ — PILOTI : op. cit, pp. 66–67.
JORGA : op. cit, I, p. 345.
HEYD : Histoire du commerce, II, pp, 474–475.
السلوك ، نفس المخطوط ، ورقة ٣٦٠ ب (أمر السلطان بإعادة فتح كنيسة القيامة فى شهر ذى القعدة ٨٢٧ / اكتوبر — نوفمبر ١٤٢٤) .

٥٢ — السلوك ، نفس المخطوط ، ورقة ٣٥٨ ب .

٥٣ — MARIE-LEON PATREM : op. cit, p.14.

٥٤ — انظر عن غزو قبرص. DARRAG : L'Egypte sous le régne de Barsbay, chap. VII, La conquête de Chypre.

٥٥ — CASTELLANI : op. cit, no 41.
GOLUBOVICH : Serie Chronologica, pp. 163–166.
RISANI : op. cit, XV Documento, pp. 140–142.

٥٦ — ADLER : Jewish travellers (Obadiah en, 1489, p, 243).

Jewish Encyclopedia, VII, pp. 132—133.

كانت المناصب الدينية فى ذلك الوقت فى يد جماعة اليهود الاشكينازى ، فكان منهم حاخام القدس . كما كانت تتركز اقامتهم فوق جبل صهيون . (انظر الملحق رقم «٢»)

٥٧ — (انظر الملحق رقم ١) JORGA : op. cit, II, p. 492.

٥٨ — Ibid : pp. 255-256.

٦٠ — انظر : DARRAG : L'Egypte sous le régne de Barsbay, chap IX, La politique de Barsbay en Méditerranée (Venise, Gênes, Aragon)

٦١ — PERO TAFUR : Travels and adventures,pp. 72–73.

٦٢ — THENAUD ; Le voyage d'Outremer, p. XXI-XXVI, LXXX,LXXXV-LXXXVIII, 35, 43, 180 , 182 -186, 190- 191, 194-197,203—205.

٦٣ — DE LA BROCQUIÈRE :Voyage d'Ontre-mer,p.14.n.5.

٦٤ — انظر فيما بعد ترجمة حياة الأمير تغرى بردى كبير التراجمة فى عهد قايتباى والغورى ، وكذلك الامير يونس كبير التراجمة فى السنوات الأخيرة من عهد الغورى حتى سقوط الدولة المملوكية .

٦٥ — MARIANO DI NANNI DA SIENNA : Del viaggio in Terra Santa, pp. 64-65,67.

٦٦ — CASTFLLANI: op cit, no 42—RISANI : op.cit, XVI Documento, pp. 166—171 .

٦٧ — PERO TAFUR : op cit, p. 55.

٦٨ — RISANI : op. cit, XVII Documento,pp. 172–185.

٦٩ — Ibid : XVIII Documento, pp. 190—192.

٧٠ — (أنظر الملحق رقم ٤) Ibid: XVIII Documento, pp. 186-188

جاء هذا المحضر فى هذه الوثيقة قبل فتوى بدر الدين العينى .

٧١ — Ibid: XVIII Documento, pp. 194-196,198-200,202-204.

٧٢ — Ibid : XVIII Docnmento, pp. 210—226.

٧٣ — Ibid : XVIII Documento, pp. 228—234.

٧٤ — VINCENT et ABEL : op. cit, p. 464 — COLLIN : Les Frères mineurs, p. 41.

٧٥ — مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، الجزء الثانى ، ص ٤٤٣ - ٤٤٤ .

٧٦ — VAN BERCHEM : Materiaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum, deuxième partie, Syrie du Sud, Jérusalem (Ville), T. I, Fasc. 2, p. 405.

٧٧ — ADLER : Jewish travellers (Obadiah en 1488-1489, p. 248.)

٧٨ — VAN BERCHEM : op. cit, T. II, Jérusalem « Haram », no 184, pp. 150—152.

٧٩ — Ibid : T. I, Jérusalem «Ville», n^{os} 100,101,pp.331-336

٨٠ — Ibid : pp. 334 — 335.

٨١ — عن أهل الذمة فى عهد جقمق أنظر : —

— إنباء الغمر ، نفس المخطوط ،ورقة ٢٣٣ ا ، ٢٥٩ ب ، ٢٦٢ا،ب، ٢٦٣ ا،ب ، ٢٧٥ ا.

— التبر المسبوك ، ص ٢٠ - ٢١ ، ٣٦ - ٣٨ ، ١٢٤-١٢٦ ، ١٤٥ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ٢١٦ ، ٣٠٦ .

PERLMANN : Notes on anti-christian propaganda in the Mamluk Empire, in BSOAS, Vol. X, part. 4, 1942, pp. 843—846.

٨٢ — CASTELLANI : op. cit, no 50.

كما جاء ذكر هذا المرسوم فى مقدمة مرسوم خشقدم المؤرخ فى ٢٨ صفر ٨٦٩ هـ. أنظر : RISANI : op. cit, XXV Documento, pp. 290—317

٨٣ — أنظر فيما بعد .

٨٤ — أنظر عن هذه المحاولات الثلاث لغزو رودس :—

— الدكتور محمد مصطفى زيادة : المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس زمن سلاطين المماليك فى القرن الخامس عشر الميلادى . مجلة الجيش ١٩٤٦ .

JORGA : Les aventures sarazennes des Français de Bourgogne au XVe siècle, in Mélanges d'histoire, I, 1927— Rhodes sous Les Hospitaliers, Extrait de RH., VIII, Paris 1931.

MARINESCU : L'ile de Rhodes du XVe siècle, dans Studi E Testi, no 125.

٨٥ — عن العلاقات المصرية الحبشية فى هذه الفترة أنظر :

WIET : Les rélations égypto – abyssines sous les sultans mamlouks, Extrait du BSAC, T. IV, 1938, P. 126 et Suiv.

٨٦ — السلوك ، نفس المخطوط ، ورقة ٤٤٢ ا - إنباء الغمر ، نفس المخطوط ، ورقة ٢٢٥ ب .

WIET : op. cit, p. 124.

٨٧ — BASSET : Etudes Sur l'histoire d'Ethiopie, Extrait du JA, 1882, p. 243. n. 104 — PERRUCHON : Les chroniques de Zar'a Ya'qob et de Ba'eda Maryam rois d'Ethiopie, pp. IV—V.

KAMMERER : La Mer Rouge, I, pp. 305—316.

٨٨ — DE LA RONCIÈRE : op. cit, I, p. 65. — KAMMERER: op. cit, I, pp, 59—62.

٨٩ — DEPPING : op. cit, II, pp. 306—307 — DE LA RONCIÈRE : La découverte de L' Afrique, II, p.118.

٩٠ — JORGA : Notes et extraits, II, p. 385.

— CERONE : La Politica Orientale de Alfonso di Aragon, in Archivio Storico per la Province Napolitane, XXVIL, Napoli 1902, p. 21, 58.

— MARINESCU : Le Prêtre Jean, dans BAR, T. X, 1923, p. 27 et n. 4.

٩١ — ATIYA : The Crusade, pp. 277—278.

٩٢ — عقد الجمان ، مخطوط دار الكتب، الجزء ٢٨ ، ورقة ٤٧٩ ، ٤٨١ - ٤٨٧.

WIET : op. cit, pp. 124 — 125 — GERULLI : Etiopi in Palestina, 1, pp. 239—240.

٩٣ — التبر المسبوك ، ص ٧١ - ٧٢ .

٩٤ — CERONE : op. cit, p. 63.

٩٥ — أنظر DARRAG : L'Egypte sous Le Régne de Barsbay, chap. 1X, (La Politique de Barsbay en Méditerranée).

٩٦ — JORGA : Notes et extraits, lll, p. 45. n. 1.
HEYD : Histoire du commerce, ll, p. 481.

٩٧ — DARRAG : op. cit, Chap Vl! (La conquête de Chypre), Chap. X (La Frontière orientale)

٩٨ — أنظر المراجع المذكورة بالحاشية رقم ٨٤ .

٩٩ — MARIE — LEON PATREM : op. cit, p. 14.

١٠٠ — HEYD : Histoire du Commerce, ll.p. 481—JORGA: op. cit, lll, p.64.n.1,68—70,72—74.85,89,94,99,103,104,105—118. (قرارات مجلس الشيوخ فى الفترة الواقعة من ١٣ ديسمبر ١٤٤٠ حتى ٨ اكتوبر ١٤٤٢ ، وخطاب جقمق إلى دوج البندقية المؤرخ فى ٢٥ اكتوبر ١٤٤٢ ثم رد دوج البندقية المؤرخ فى ١٧ فبراير ١٤٤٣)

١٠١ — (قرار مجلس الشيوخ فى ٤ يوليو ١٤٤٤) JORGA:op. cit, lll,p. 179

١٠٢ — HEYD : op. cit, II, p. 482. n. 4.

١٠٣ — خطاب دوج البندقية) JORGA : op. cit, lll, pp. 184—185.
إلى البابا المؤرخ فى ٢٨ أغسطس ١٤٤٤)

١٠٤ — HEYD : Les consulats, p, 358. n.8.

١٠٥ — CAPMANY : Mémorias historicas sobre La marina commercio y artes de La antigua ciudad de Barcelona, 1, p. 59; ll pp. 264—265.

١٠٦ — أنظر: NICOLAU D' OLWER : Un Témoin Catalan du siège de Rhodes en 1444, dans Estudios Universiteris Catalans, Barcelona 1927.

١٠٧ — الدكتور محمد مصطفى زيادة : المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس ، مجلة الجيش ١٩٤٦ ، ص ٢٠٢ .

١٠٨ — النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء السابع ، ص ١٤٠ — منتخبات من حوادث الدهور ، نفس الطبعة ، ص ١٥ - ١٦ — التبر المسبوك ، ص ٩٨-٩٩ .

WIET : Deux Princes ottomans à La cour d'Egypte, dans BIE, T. XX, Le Caire 1938, p. 146.

١٠٩ — JORGA : op. cit, III, p. 328.

١١٠ — RISANI : op. cit, XIX Documento, pp. 242–245.

١١١ — (أنظر الملحق رقم ٥) Ibid : XX Documento, pp. 246-252.

١١٢ — Ibid : XXII Documento, p. 254; XXII Documento, pp. 256 — 262; XXIII Documento, pp. 268 — 274.
أنظر الملحق رقم (٦) .

١١٣ — Ibid : XXII Documento, pp. 264—266.
جاءت هده الحجة فى ذيل الوثيقة التى تحمل نفس هذا الرقم والتى ورد ذكرها فى الحاشية السابقة .

١١٤ — Ibid : XXIV Documento, pp. 278—280.
المحضر المؤرخ فى ١٩ ذى الحجة ٨٥١ هـ . ـ أنظر الملحق رقم (٧).

١١٥ — Ibid : XXIV Documento, p. 282.
مرسوم الأمير تمراز المؤرخ فى ٢١ ذى الحجة ٨٥١ هـ والذى جاء فى ذيل المحضر السابق — أنظر الملحق رقم (٨) .

١١٦ — CERULLI : Documento arabi per La storie dell' Etiopia, dans Memorie della R. Accademica nazionale dei Lingui. Serie VI, vol. IV, Fasc. II, Roma 1931, p. 40— 42. 47. n. 5.

— تولى بدلاى بن سعدالدين فى ١٤ جمادى الأولى ٨٣٦ هـ ، وقتل شهيداً فى ٢٦ رمضان ٨٤٩ هـ . وهو بهذا يصحح الخطأ الذى وقع فيه المقريزى فى كتابه [الإلمام بمن بأرض الحبشة من ملوك الإسلام] عن تاريخ ولايته ووفاته .

١١٧ — WIET : Les Rélations égypto-abyssines. p. 129.

١١٨ — التبر المسبوك ، ص ٢١٠ .

١١٩ — التبر المسبوك ، ص ٣٠٩ — منتخبات من حوادث الدهور ، طبعة كاليفورنيا ، ص ٧٣ ، ٩٦ .

١٢٠ — التبر المسبوك ، ص ٣٨٦ .

١٢١ — MARINESCU: Les Corsaires au service d'Alfonso V roi d'Aragon et de Naples, dsns Mélanges d'histoire générale, Cluj 1927, pp. 155—156.

١٢٢ — أنظر MARINESCU : Alfonso V roi d'Aragon et de Naples et L'Albanie de Scander beg, dans Mélanges de L'ecole Romaine en France, T. 1. Paris 1923.

١٢٣ — CAPMANY : op. cit, 1, p. 59; II, pp. 275—276.
HEYD : Histoire du commerce, II, p. 483.

١٢٤ — MARINESCU : Les corsaires, p. 156 et suiv.

١٢٥ — أنظر عن هذه السفارة : CERONE: op. cit. pp. 64 —66, 72

JORGA : op. cit, II, pp. 46—47.

NICOLAU D'OLWER : L'expansio de Catalunya en La Mediterrània oriental, Barcelona 1926, p. 22.

MARINESCU : Le Prêtre Jean, p. 28.

WIET : Les rélations égypto— abyssines, pp. 129—130.

١٢٦ — MARINESCU : L'ile de Rhodes au XVe siècle, dans Studi E Testi, no 125, pp. 394 — 395. — Contribution à L'histoire des rélations economiques entre L'empereur byzantin, La Sicile et Le royaume de Naples de 1419 à 1453. dans Studi Bezantini E Nevellinici, V, p. 218.

١٢٧ — التبر المسبوك ، ص٣٢٣ - ٣٢٤ — منتخبات من حوادث الدهور، ص ٩٦ .

١٢٨ — التبر المسبوك ، ص ٣٥١ - منتخبات من حوادث الدهور ، ص ١٠٩ .

WIET : Une inscription du Sultan Djakmak, Extrait du BIE, XXI, Le Caire 1939, pp.79—80.

١٢٩ — CERONE : op. cit, pp. 76—77.

NICOLAU D'OLWER : op. cit, p. 221.

ONCIÈRE : op. cit, II, p. 121.

١٣٠ — CERONE: op. cit, p. 77, 83.

NICOLAU D'OLWER: op. cit, pp. 220—221.

١٣١ — MARINESCU : Les corsaires, p. 159.

١٣٢ — CERONE : op. cit, p. 79.

NICOLAU D'OLWER : Ibid.

١٣٣ — NEWTON : Travel and Travellers of the Middle—Ages, p. 193.

١٣٤ — WIET : Les rélations égypto—abyssines, p.138.

— التبر المسبوك، ص ٤٢٨ .

١٣٥ — MARINESCU : Les corsaires, p. 160.

١٣٦ — MIGUEL LAFUENTE ALCANTRA : Historia de Granada, T. III, pp. 151—152.

١٣٧ — الدكتور عبد العزيز الأهوانى : سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة فى القرن التاسع الهجرى (٨٤٤هـ) . مجلة كلية الآداب ، المجلد السادس عشر ، الجزء الأول . مايو ١٩٥٤ ، ص ١٠٢

١٣٨ — المرجع السابق ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

١٣٩ — أنظر الملحق رقم(٩) — على الرغم من أن هذه الرسالة وصلت إلينا

مبتورة غير كاملة فلها أهميتها الكبرى . إذ أنها تحدد بصفة قاطعة اسم سلطان غرناطة الذى أرسل هذه السفاره إلى جقمق . فقد قام الخلاف بين المؤرخين حول اسمه ، هل هو محمد بن يوسف الأيسر ، أم محمد بن نصر ـ أنظر الدكتور الأهوانى ، ص ١١٣ - ١١٨ ، ١٢١ .

١٤٠ — الدكتور الأهوانى ،ص ٩٨-٩٩.

١٤١ — أنظر الملحق رقم (١٠)

١٤٢ — MIGUEL LAFUENTE ALCANTRA : op. cit, T. 111, p. 157 — 162.

١٤٣ — JEAN GERMAIN : Le discours du Voyage d' Outremer, dans ROL, T. 111, Paris 1895, pp. 307 — 308, 326 — 327.

١٤٤ — مجير الدين الحنبلى ، الأنس الجليل ، الجزء الثانى ، ص٤٤٣ - ٤٤٤ .

١٤٥ — VINCENT et ABEL : Jérusalem nouvelle, T. 11, Fasc. 111, pp. 448—459,459—464.

(وصف الكنيسة منذ بنائها حتى قيام الحروب الصليبيه ، وفى القرنين الثانى عشر والثالث عشر) .

— DE SESSEVALLE : Histoire générale de L'Ordre de ST. François, première partie, T. 11, p. 456.

— MARMARDJI : Textes géographiques arabes sur La Palestine, p. 175.

١٤٦ — COLLIN : Les Fréres Mineurs au Cénacle, p. 11.

١٤٧ — VAN BERCHEM : op. cit, Jérusalem " Ville ", 1, pp. 409—411.

(يعطى قائمة بمشاهدات الحجاج الأوروبيين عن هذا القبو منذ ذلك التاريخ حتى منتصف القرن السادس عشر .)

١٤٨ — لم يصل الينا هذا المرسوم ، وانما جاءذكره فى مقدمة مرسوم خشقدم الصادر فى ٢٨ صفر ٨٦٩هـ ـ أنظر هذا المرسوم فيما بعد .

١٤٩ — أنظر الملحق رقم (١١) .

١٥٠ — أنظر قبل

١٥١ — NEWTON : Travel and travellers of the Middle Ages, chap. X (The search for the sea route to India. A. D. 1415—1460), p. 202.

(يوضح الكاتب الأهداف العلمية والتجارية والسياسية والدينية للأمير هنرى الملاح .)

١٥٢ — Ibid : p. 206.

(هذا بالاضافة الى نجاح البرتغاليين فى اكتشاف بعض الجزر الهامة فى المحيط الأطلسى ، مثل جزيرة ماديرا فى عام ١٤٢٠ وجزر كانارى وجزر آزور فيما بين عامى ١٤٣١ ، ١٤٤٤)

١٥٣ — Ibid : p. 215.

١٥٤ — Ibid : p. 214.

١٥٥ — Ibid : p. 215.

١٥٦ — Ibid : p. 207,215.
— DE LA RONClÈRE : op. cit, 11, pp. 33—83.

نجح البرتغاليون بعد ذلك فى عام ١٤٨٢ فى اكتشاف الكونغو ، وبعد ذلك بخمس سنوات نجح برتلميو دياس فى الالتفاف حول أفريقية واكتشاف رأس الرجاء الصالح . ثم وصل فاسكو دى جاما الى شواطىء الهند فى عام ١٤٩٨) .

١٥٧ — BABINGER : Mahomet 11 Le conquerant et son temps (1432-1481), trad. Franç. de H. E Del Medico, Paris 1954, pp, 223—225.

١٥٨ — ATIYA : The crusade, op. cit, pp. 228—229.

١٥٩ — WIET:Les rélatious égypto-abyssines,pp.130—132,154.

١٦٠ — BUDGE : A history of Ethiopia, Nubia and Abyssinia, 1, pp. 330—332.

١٦١ — KAMMERER : op. cit, 1, p. 312.

١٦٢ — NEOTON : op. cit, chap. IX (Prester John and the empire of Ethiopia), p. 198 — WIET : op. cit,p.130.

(يفصح الكاتب أن ارسال هذين الراهبين الى روما قد تم عن طريق رئيس رهبان الفرنسسكان بدير صهيون) .

١٦٣ — كان هذا الراهب يدعى J. Batt de 1mola وقد كتب وصفاً لرحلته الى الحبشة باللغة الايطالية فى عام ١٤٨٤ ، غير أنه لم ينشر الا فى عام ١٩٠٠)
KAMMERER : op. cit, 1, pp.313—317
— WIET : op. cit, p. 131.

١٦٤ — CAPMANY : op. cit, 1, pp.59—60;11, pp.284—285; IV, p. 250, 251 — 252.

(استؤنفت هذه العلاقات فى عام ١٤٥٩ ، وهو العام التالى لوفاة الفونسو الخامس) .

١٦٥ — ابن اياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ، ص ٦٤ ، ٦٨ ، ٨٣ .

١٦٦ — مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ، الجزء الثانى ، ص ٦٨١ .

١٦٧ — المرجع السابق .

١٦٨ — CASTELLANI : op. cit, no 52.

١٦٩ — لم يصل الينا هذا المرسوم ، وقد أشير اليه فى مقدمة المرسوم الثانى الذى أصدره خشقدم للرهبان الفرنسسكان فى ٢٨ صفر ٨٦٩ ﻫ . أنظر فيما بعد .

١٧٠ — CASTELLANI : op. cit, nos 53,54,55.

١٧١ — RISANI : op. cit, XXV Documento, pp. 290—317.
CASTELLANI : op. cit, no 56.

١٧٢ — RISANI : op. cit, XXVi Documento, p. 318.

١٧٣ — KASTELLANI : op. cit,no 57.

١٧٤ — أنظر ما جاء فى هذا الصدد من قبل فى عهد جقمق .

١٧٥ — LUIS SECO DE LUCENA PAREDÈS : Nuevas rectificaciones à La hiotoria de Los NASRIES, AL — ANDALUS, vol, XX, 1955, Fasc. 2, p. 389—404.

١٧٦ — MIGUEL LAFUENTA ALCANTRA : Historia de Granada, I 11, pp. 176-177—GAUDEFROY-DEMOMBYNES: Masalik El-Absar, vol. 1, L' Afrique moins L'Égyrte, p. 242- n. 2, 243—244.

(استولى فرديناند الرابع ملك قشتالة على جبل طارق لأول مرة فى عام ١٣٠٩ ، ثم لم يلبث أن استعاده المسلمون فى عام ١٣٣٣) .

١٧٧ — MIGUEL LAFUENTA ALCANTRA : op. cit, pp. 177—179.

(لم يشر إلا للاستيلاء على حصن Arxiduna وهو الذى يسميه العرب أرشذونة أو أرجذونة) .

١٧٨ — انظر نص الرساله ، الملحق رقم (١٢)

١٧٩ — أنظر ماذكر من قبل خاصاً باستنجاد غرناطة فى عهد جقمق .

١٨٠ — ابن إياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ، ص ١٤٧،١٤٨ .

١٨١ — الدكتور محمد مصطفى زيادة : المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس ، مجلة الجيش ١٩٤٦ ، ص ٢٠٤ .

١٨٢ — منتخبات من حوادث الدهور ، طبعة كاليفورنيا ، ص ٤٣٨-٤٣٩ .

١٨٣ — تزوج الأمير فرديناند وريث عرش أرغونة فى عام ١٤٦٩ من الأميرة ايزابلا، وكانت أيضاً ولية عهد مملكة قشتالة . وفى عام ١٤٧٤ آل العرش إليها ، وبعد ذلك بخمس سنوات آل عرش أرغونة إلى فرديناند .

١٨٤ — بعد وفاة محمد الثانى فى عام ١٤٨١ تولى عرش السلطنة العثمانية ابنه بايزيد الثانى . إلا أن أخاه جم سلطانه أراد أن يقاسمه عرش السلطنة مما أدى إلى قيام الحرب بينهما والتجائه إلى القاهرة . وبعد أن أمده قايتباى بالمال والجند رحل إلى آسيا الصغرى ، غير أن الهزيمة حلت به وأجبرته الظروف على الالتجاء إلى فرسان الاسبتارية بجزيرة رودس عام ١٤٨٢ بقصد العبور منها إلى أوروبا ومتابعة الحرب ضد أخيه معتمداً على أخواله المجريين .
إلا أن الفرسان رأوا نقله إلى جنوب فرنسا وإتخاذه رهينة فى أيديهم يهددون بها الدولة العثمانية . وقد ظل مقيما هناك حتى نقل إلى روما فى شهر مارس ١٤٨٩ .
ثم عاد ملك فرنسا شارل الثامن فتسلمه عند دخوله روما فى عام ١٤٩٤ ، وبعد ذلك رحل معه إلى نابلى حيث توفى بها فى ٢٤ فبراير ١٤٩٥ (أنظر : أحمد دراج ، جم سلطانه والدبلوماسية الدولية ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثامن سنة ١٩٥٩ ، ٢٠١ — ٢٤٢ .

١٨٥ — فيما يختص بهذه الحرب أنظر :

الدكتور محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك فى مصر . بحث مستخرج من المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، العدد الأول ، مايو ١٩٥١ ، ص ٢٠٥ - ٢٠٩ .

VAN BERCHEM : Materiaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum, Egypte, 1, pp. 549 – 550.

WIET : L'Egypte arabe, pp. 598 – 603.

١٨٦ — Le voyage de La Saincte Cyté de Hierusalem on 1480, publié par Ch. Schefer, p. XX.

١٨٧ — ابن إياس : بدائع الزهور ، طبعة إستانبول ، جـ٣ ، ص ٩٨،٩٩ .

١٨٨ — CASTELLANI : op. cit, no 58 — GOLUBOVICH : Serie chronologica, pp. 173 - 177 — RISANI : op.cit, XXVII Documento, pp. 328 - 347.

١٨٩ — ابن إياس : نفس الطبعة والجزء ، ص٧٢ .

١٩٠ — نفس المرجع السابق ، ص ٧٦ .

١٩١ — نفس المرجع السابق ، ص ٨٥-٨٦ .

١٩٢ — نفس المرجع السابق ، ص ١١٠ .

HEYD : Histoire du conmerce, 11, p. 496. n. 5,6 – BARATIER et REYNAUD : Histoire du commerce de Marseille, 11, p. 366.

١٩٣ — مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ٢ ، ٦٤٩ .

Le voyage de La Saincte Cyté de Hierusalem, p. XVII.

١٩٤ — ابن اياس ، نفس الطبعة والجزء ، ص ١١٥ .

BARATIER et REYNAUD : op. cit, 11, p. 397.

١٩٥ — HEYD : op. cit, 11, p. 496.

١٩٦ — CASTELLANI : op. cit, nos 59,60.

١٩٧ — RISANI : op. cit, XXVIII Documento, pp. 352.

أنظر فيما يختص بالسلطان برقوق وابنه فرج .

RISANI : op. cit, IV Documeuto, pp, 34 — 39, VII — XIII Documenti, pp. 64—109.

١٩٨ — CASTELLANI : op. cit, no 61.

١٩٩ — ابن إياس ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٢١٤ (إستيلاء الفرنج على مالقة) ، ص٢٢٥ (إستغاثة صاحب غرناطة) .

٢٠٠ — ابن إياس ، نفس الطبعة والجزء ، ص٢٣٩ .

٢٠١ — نظراً لأن الفونسو الخامس لم يترك ولداً شرعياً ، فقد إنتقل حكم أرغونة وصقلية وسردينيا بعد وفاته إلى أخيه حنا الثانى ، ثم إلى إبنه فرديناند الثانى . وأما نابلى فقد انتقلت إلى فرديناند الأول ، وهو ابن غير شرعى لألفونسو الخامس .

٢٠٢ — أنظر مقالنا ، جم سلطان والدبلوماسية الدولية ، المجلة التاريخية المصرية ،المجلد الثامن ، سنة ١٩٥٩ ، ص ٢٢١ — ٢٢٢ ، ٢٢٦ — ٢٢٨ .

٢٠٣ — محمد عبد الله عنان : مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية . الفصل السابع (الدبلوماسية فى الإسلام ، كيف حاولت مصر إنقاذ الأندلس) ص ١٣٩ .

٢٠٤ — محمد عبد الله عنان : نفس المرجع السابق ، ص١٣٩- ١٤٣ .
MIGUEL LAFUENTA ALCANTRA : op. cit, IV, pp. 33—34.

٢٠٥ — الدكتور عبد العزيز الأهوانى : سفارة أندلسيه ، ص١٢٠ .

٢٠٦ — أنظر استنجاد غرناطة فى عهد جقمق وفى عهد خشقدم .

٢٠٧ — أنظر مقالنا ، جم سلطان والدبلوماسية الدولية ، المجلة التاريخية المصرية .

٢٠٨ — THENAUD : Le voyage d'Outremer, p. 108.

٢٠٩ — أنظر عن هذه النقطة :
— القلقشندى : صبح الأعشى ، ج١٣ . ص ٣٥٧-٣٥٩ .
— ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ترجمة الدكتور حسن حبشى ،ص٩-١٨ .

Encyclopedie de L'Islam, article " Kibt "
MORITZ : op. cit, pp. 19-20.
FATTAL : La nature juridique du statut des Dimmis, daus Annales de La Faculté de Droit de L'université de Beyrouth, 1956, pp. 139-154.

٢١٠ — عن المتاعب المالية لقايتباى أنظر :
الدكتور محمد مصطفى زيادة : نهاية سلاطين المماليك فى مصر ، ص٢٠٧ .

٢١١ — أنظر مقالنا ، جم سلطان والدبلوماسية الدولية .

٢١٢ — ابن إياس : نفس الطبعة والجزء ، ص ٢٦٤ .

٢١٣ — RISANI : op. cit, XXIII Documento, p. 276.

٢١٤ — VAN BERCHEM : op. cit, Jérusalem " Ville ", p. 405.

٢١٥ — مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ، الجزء الثانى ، ص ٦٧٦-٦٨٢ .

٢١٦ — أنظر مقالنا جم سلطان والدبلوماسية الدولية .

٢١٧ — ADLER : Jewish travellers (Rabbi Meshullam en 1481), pp. 166—167.

٢١٨ — THENAUD : Le voyage d'Outremer, p. XXIV, n. 7. — COMBE : Pierre Martyr D'Anghiera et Le drogman du sultan Ghauri, dans BFA, Alex. Univ., vol 11, 1944, p. 108.
بيير مارتير هو أحد الكتاب الايطاليين الذين شهدوا حروب غرناطه الأخيرة إلى جانب فرديناند وإيزابلا ، وزار مصر سفيراً من قبلهما لدى الغورى. وقد كتب عن هذه السفارة كتابه الذى طبع لأول مرة باللغه اللاتينيه فى عام ١٥١١ ، ثم ترجم إلى اللغه الايطاليه وطبع بالبندقيه فى عام ١٥٦٤ - أنظر فيما بعد سفارته لدى الغورى .

٢١٩ — LARRIVAZ : Les Saintes Péregrinations de Bernard Breydenbach. Extraits relatifs à L'Eggpte suivant L'edition de 1490, Le Caire 1904, p. 49.

٢٢٠ — THENAUD : op. cit, p. XXIV.

٢٢١ — أنظر ما ذكر عن هذه الوظيفة فى عهد برسباى .

٢٢٢ — أنظر فيما بعد عصر الغورى .

٢٢٣ — CASTELLANI : op. cit, n° 62.

٢٢٤ — كانت طائفة رهبان الكرج أو الجورجان من بين الطوائف الرئيسية للرهبان المقيمة بالقدس . وكانت كنيسة المصلَّبة أو المصليبيَّة الكائنة بظاهر القدس ،من ناحية الشمال الغربى ،مقراً لهم . أنظر :

MARMARDJI : op. cit, pp. 78—79.

كما كانوا هم وحجاجهم يتمتعون بالإعفاء من الرسوم التى تجبى من المسيحيين بالأراضى المقدسة . أنظر :

VAN BERCHEM : op. cit, Jérusalem "Ville", I,p. 395.

٢٢٥ — هذا الجبل يشرف على بيت المقدس من الناحية الشرقية ، وهو بهذا الوضع يشرف أيضاً على المسجد الأقصى . وكانت الامبراطورة البيزنطية هيلانه قد بنت كنيسة فوق مكان الجلجلة ، إلا أنها سقطت فيما بعد ولم يبق قائماً من هذا المكان المقدس سوى مذبح لاقامة القدّاس . أنظر :

— مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص٤١٠ - ٤١١ .

MARMARDJI : op. cit, pp. 134—135.

THENAUD : Le voyage d' Outremer, p. LXVI.

٢٢٦ — MARIE-LEON PATREM : op. cit. p. 22. n. 1.

٢٢٧ — VAN BERCHEM : op. cit, Jérusalem " Ville ", p. 394. n. 4.

THENAUD : op. cit. p. LXVI.

CASTELLANI : op. cit. n° 63.

٢٢٨ — CASTELLANI : op. cit, n° 64.

٢٢٩ — Ibid : n° 65.

٢٣٠ — فيما يختص « بموجب الخفر » وغيره من الرسوم التى تجبى من الحجاج المسيحيين أنظر :

DARRAG : L'Egypte sous Le régne de Barsbay, Chap. VIII, (Les Lieux Saints chrétiens).

٢٣١ — CASTELLANI : op. cit, n° 66.

٢٣٢ — أنظر DARRAG : op. cit, Chap. V. (La politique de Barsbay dans Le Hedjaz) .

٢٣٣ — تداول عرش السلطنة فى هذه الفترة الانتقالية ، التى طالت على غير العاده ، خمسة سلاطين ، وهم : محمد بن قايتباى ، وقانصوه خمسمائه ، ثم محمد بن قايتباى للمرة الثانية ، وقانصوه الأشرفى ، وجانبلاط ، وأخيراً طومان باى الأول .

٢٣٤ — CASTELLANI : op. cit, nos 67,68.

— ٢٣٥ Ibid : n^os 69, 70, 71.

٢٣٦ — ابن إياس ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٢٢٥ (٨٩١هـ - القتال بين صاحب فاس والفرنج) ص ٢٥٤ (٨٩٤ هـ — صاحب فاس يستخلص من الفرنج عدة بلاد كانت قد أخذت منه)ص ٣٨٥ (٩٠٣هـ — المسلمون يستعيدون حصن جربه من الفرنج) ص ٤١٤ (٩٠٤ هـ — الحرب بين ملوك المغرب وملوك الفرنج ، وكانت النصرة للمسلمين) .

— ٢٣٧ THENAUD : Le voyage d' Outremer, p. XXIII-XXVI.

— ٢٣٨ COMBE : Pierre Martyr D'Anghiera, pp. 107—109.
THENAUD : op. cit, pp. XLIII — XLVI.
VAN BERGAEM : op. cit, Jérusalem " Ville ", I, pp.398—399.
WIET : L'Egypte arabe, pp. 624—625.

— محمد عبدالله عنان : مصر الإسلامية ، ص ١٤٤ — ١٤٥ (يذكر المؤلف أن هذه السفارة كانت رداً على سفارة قايتباى إلى فرديناند وإيزابلا فى عام ١٤٨٧ والتى وصلت إلى إسبانيا فى عام ١٤٨٩ . ولكن يبدو أن الربط بينهما أمر يتعذر فهمه نظراً لطول الفترة الزمنية الفاصلة بينهما) .

— ٢٣٩ CASTELLANI : op. cit, no 73.

— ٢٤٠ Ibid : no 74.

— ٢٤١ THENAUD : op. cit, pp. XLVII — XLVIII.
VAN BERCHEM : op. cit, Jérusalem " Ville ", I, p. 399.

— ٢٤٢ THENAUD : op. cit, p. XLVI. n. 1.

— ٢٤٣ HEYD : Histoire du commerce, 11, p. 519.
WIET : op. cit, pp. 616-617.

— ٢٤٤ HEYD : op. cit, II, p. 525, 526.

— ٢٤٥ THENAUD : op. cit, pp. XLVI—XLVII.

— ٢٤٦ Ibid : p. XLVII.

— ٢٤٧ Ibid : p. XLIX. n. 1.

— ٢٤٨ Ibid : pp. XLVII — XLIX.
VAN BERCHEM : op. cit, Jérusalem " Ville ", 1, pp. 399—400.
WIET : op. cit, p. 617.

٢٤٩ — ابن إياس ، نفس الطبعة ، جـ٤ ، ص ٨٢ ، ٩٥—٩٦ ، ١٠٩ ، ١٢٤ ، ١٤٢ ، ١٥٦ .

WIET : op. cit, p. 618.
The commentaries of the Great Afonso Dalboquerque, translated from the Portuguese edition of 1774 by Walter de Gray Birch, Part 1, p. XII — XIII, XLI, 58-59; Part 11, p.IXVII—IXVIII.

— ٢٥٠ The commentaries, Part 11, p. 217,228.

٢٥١ — Ibid : part III, p.55.

٢٥٢ — Ibid : part IV, p. X, 8, 36-37, 40, 45.

٢٥٣ — KAMMERER : La Mer Rouge, II, pp. 247-259.
NEWTON : Travel and travellers of the Middle - Ages, chap. IX, Prester John and the empire of Etiopia, p. 194.

٢٥٤ — MAFFEI : Histoire des Indes, trad française, Lyon 1603, p. 262.

كان فرسان الاسبتارية على إتصال دائم بملك البرتغال ويخطرونه بأحوال مصر السياسية وتطورات الأحداث بالشرق الأوسط .

٢٥٥ — يذكر ابن إياس (جـ ٤ ، ص ١٦٤) أن السلطان قد استعاد من طائفة المغاربة بالقاهرة والاسكندرية مبلغ إثنين وثلاثين ألف دينار — وهو فدية من خلص منهم من الأسر .

٢٥٦ — عن هذه الرحلة أنظر :

— ابن إياس ، جـ ٤ ، ص ٩١ ، ١٢٠

THENAUD : op. cit. pp. L—LI.

HEYD : op. cit, II, p. 493.

WIET : op. cit, p. 619.

COMBE : op. cit, pp. 111—112.

٢٥٧ — ابن اياس ، جـ ٤ ، ص ١٤٦ .

٢٥٨ — THENAUD : op. cit, pp. LV – LVI.

٢٥٩ — LATIFAU : Histoire des decouvertes, part. I, pp. 299—300.

٢٦٠ — ابن اياس ، جـ ٤ ، ص ١٨٥ ، ١٩١ — ١٩٢ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٩

THENAUD : op. cit, pp. LVI - LVII.
VAN BERCHEM : op. cit, Jérusalem " Ville ", p. 400.
WIET : op. cit, p. 621.

٢٦١ — CASTELLANI : op. cit, no 77.

٢٦٢ — Ibid : nos 79,80.

١٦٣ — ابن اياس ، جـ٤ ص ٢٢٠ .

٢٦٤ — مدينة سورية تقع على الشاطىء الغربى لنهر الفرات ، وكانت من ممتلكات الدولة المملوكية .

٢٦٥ — ابن اياس ، جـ٤ ، ص ١٩١ .

٢٦٦ — THENAUD : op. cit, pp. LXIII–LXIV et notes.

(يذكر نقلاً عن المراجع البندقية أنه قبض على هذين الجاسوسين بالبيره فى شهر مايو ١٥١١ ، وهذا يتنافى مع التاريخ الذى ذكره ابن اياس) .

٢٦٧ — ابن اياس ، جـ٤ ، ص ٢٠٥ .

٢٦٨ — HAMMER : Histoire de L'Empire Ottoman, lll pp. 141, 142 – 144, 151 – 168, 172 – 185.

BABINGER : Mabomet II, p. 325,327,361–363,364,370–371.

GROUSSET : Histoire de L'Asie, III, p. 127–130.

٢٦٩ — أنظر قبل .

٢٧٠ — ابن اياس ، جـ ٤ ، ص ١٩١ .

٢٧١ — ابن اياس ، جـ ٤ ، ص ٢١٠ .

WIET : op. cit, p. 622.–COMBE : op. cit, p. 112.

استمر تغرى يردى سجيناً حتى أطلق سراحه فى عام ٩١٩ هـ . وكان يقوم بأعباء هذه الوظيفة ،التى ظلت شاغرة منذ أن قبض عليه ، يونس الترجمان نائبه . وأخيراً عين يونس فى هذه الوظيفة فى أواخر شهر محرم ٩٢٠ هـ ، وظل بها حتى سقوط الدولة المملوكية . ويونس الترجمان كان من أصل يهودى أوروبى ومن مواليد مدينة فيرونا Verona بايطاليا ـ أنظر :

— ابن اياس : جـ ٤ ، ص ٣٦١ — ٣٦٢ ، جـ ٥ ، ص ٤ ، ١٤٤ .

THENAUD : op. cit, p. 180. n. 1.
COMBE : op. cit, p. 113.

٢٧٢ — ابن اياس ، جـ ٤ ، ص ١٩٦ ، ٢٠١ .

THENAUD : op. cit, p. LIV.–WIET : op. cit, p. 622.

٢٧٣ — THENAUD : op. cit, pp. LVIII–LX.

٢٧٤ — أنظر قبل (الفصل الأول) .

٢٧٥ — ابن إياس ، جـ ٤ ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦٨ .

THENAUD : op. cit, pp, LX – LXI, LXVII – LXX, LXXVIII – LXXIX, 35 et suiv.

VAN BERCHEM : op. cit, Jérusalem " Ville ", I,pp.400–401.

WIET : op. cit, pp. 625–627.

٢٧٦ — ابن إياس ، جـ ٤ ، ص ٢٥٩ .

٢٧٧ — ابن إياس ، جـ ٤ ، ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

٢٧٨ — THENAUD : op. cit, pp. LXIV – LXV, LXVIII, LXXVII – LXXXIII, 180 et suiv.

VAN BERCHEM : op. cit, Jérusalem " Ville ", 1, p. 401.

WIET : op. cit, pp. 627–628.

٢٧٩ — أنظر قبل (عهد قايتباى)

٢٨٠ — THENAUD : op. cit, p. LXVI – LXVII, 200.
VAN BERCHEM : op. cit, p. 394.
WIET : op. cit, p. 628.
CASTELLANI : op. cit, no 83.

(هذه الحجة الصادرة من قضاة القدس مؤرخة فى ١٥ جمادى الآخره ٩١٩/ ١٩ يوليو ١٥١٣ ، وهذا التاريخ يختلف عن التاريخ الذى ذكر بالمتن)

٢٨١ — ابن إياس ، جـ٤ ، ص ٢٦٨ .

٢٨٢ — VAN BERCHEM : op. cit, Jérusalem " Ville ", 1, no 108, pp. 378—402.

٢٨٣ — إبن إياس ، جـ٤ ، ص ٢٠٧-٢٠٨ ، ٣٣١ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٥٨ ؛ جـ٥ ، ص ١٩٩ .

The Commentaries of the great Afonso Dalboquerque, part IV, p. X, 8, 36—37, 40,45 et Suivant.

٢٨٤ — إبن إياس ، جـ٤ ، ص ٣٥٩ (محرم ٩٢٠ هـ)

٢٨٥ — ابن إياس ، جـ٤ ، ص ٤٢٣-٤٢٤ (ذوالحجة ٩٢٠ هـ)

٢٨٦ — ابن إياس ، جـ٥ ، ص ٨٨ .

٢٨٧ — فيما يختص بموضوع القبو الذى يضم رفات سيدنا داود وكنيسة صهيون فى العهد العثمانى أنظر مقالنا عن الرهبان الفرنسسكان ووثائق دير صهيون (تحت الطبع)

المراجع

المراجع العربية

١ — أبو المحاسن . النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء السابع .

٢ — أحمد دراج : جم سلطان والدبلوماسية الدولية ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثامن ، سنة ١٩٥٩ .

٣ — : منتخبات من حوادث الدهور ، طبعة كاليفورنيا .

٤ — العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى ، رقم ١٥٤٤ .

٥ — السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، بولاق ١٨٩٦ م .

٦ — المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى ، رقم ١٧٢٧ .

٧ — : الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ، القاهره ١٨٩٥ م .

٨ — الأهوانى عبد العزيز : سفارة سياسية من غرناطه إلى القاهرة فى القرن التاسع الهجرى (٨٤٤ هـ) . مجلة كلية الآداب ، المجلد السادس عشر ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٤ .

٩ — ابن حجر : إنباء الغمر فى أبناء العمر ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى ، رقم ١٦٠٢ .

١٠ — ابن الخطيب (لسان الدين) : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس (مجموعة من رسائله) . نشر وتحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى . المطبوع رقم ١٢ — كلية الآداب — جامعة الاسكندرية ١٩٥٨ .

١١ — ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، طبعة بولاق ١٣١١ هـ .

١٢ — : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ، نشر الدكتور محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٥١م .

١٣ — : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، طبعة استانبول ، الجزء الثالث والرابع والخامس .

١٤ — مجير الدين : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، جزءان ، طبعة القاهرة ١٢٨٣ هـ .

١٥ — محمد عبدالله عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، القاهره ١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م .

١٦ — محمد مصطفى زياده : مصر والحروب الصليبية - العدد رقم ٣٩ من رسائل الثقافة الحربيه .

١٧ — : المحاولات الحربية للإستيلاء على جزيرة رودس زمن سلاطين المماليك فى القرن الخامس عشر الميلادى ، (بمجلة الجيش المصرى سنة ١٩٤٦) .

١٨ — المخطوط رقم ٤٤٤٠ بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى (مجموعة رسائل متبادلة بين سلاطين المماليك وسلاطين وأمراء العالم الاسلامى فى القرن التاسع الهجرى) .

المراجع الأوروبية

1 — ADLER : Jewish travellers, London 1927.

2 — ANGLURE (d') : Le Saint voyage de Jérusalem, éd. Bonardof et Longnon, Paris, 1878.

3 — ATIYA (A. S.) : The crusade in the later Middle — Ages, London, 1938.

4 — BABINGER : Mahomet II le conquerant et son temps (1432—1481), trad. française de H.E.Del Medico, Paris 1954.

5 — BARATIER (E.) et REYNAUD (F.) : Histoire du commerce de Marseille (1291—1480),T. II. Paris, 1951.

6 — BASSET : Etudes sur L'histoire d'Ethiopie. Extrait du J A, Pris, 1882.

7 — BREYDENBCH (B. de) : Les saintes pérégrinations. Extraits relatifs a' L'Egypte suivant l'édition de 1498, trad. par LARRIVAZ, le Caire. 1904.

8 — CAPMANY : Memorias historicos sobre la marina commercio Y artes de la antigua ciudad de Barcelona, 4 vols, Madrid, 1779—1792.

9 — CASTELLANI (E.) : Catalogo dèi firmani ed altri documenti legali emanti in lingua arabe e turco concernati I santuari, I proprieta, I diritti della Custodia di Terra—Santa, Gerusalemme, 1922.

10 — CERONE : La politica orientale de Alfonso di Aragona, in Archivio storica per la province napolitane, XXVII et XXVIII, Napoli 1902—1903.

11 — CERULLI (E) : Etiopi in Palestina. Storia della Communita etiopia di Gerusalem, vol. I, Roma 1943.

Documenti arabi per la storia dell Etiopia, in Memorie della R. Accadimica Nazionale deî lingui, Serie VI, vol. IV, Fascicòlo II, Roma 1931. —12

COLLIN (B) : Les Lieux — Saints, Paris 1948. —13

: Les Frères — Mineurs au Cénacle, dans Etudes Franciscaines, nouvelle serie, no 22, T. IX, juillet. 1959. —15

COMBE (E) : Pièrre Martvr D' Anghierra et le drogman du sultan G auri (1502), in Bulletin of thc Faculty of Arts, Alexandria Univ., vol. II, 1944. —15

The commentaries of the Great Afonso Dalboquerque, translated from the Portuguese èdition of 1474. by Walter de Gray Birch, London 1875—1884, 4 vols. —16

COURET (A.) : Notice historique sur l'Ordre du St. Sépulcre de Jérusalem, depuis son origine à nos jours, Paris 1905. —17

DARRAG (A.) : L' Egypte sous le règne de Barsbay, Beyrouth, 1961. —18

DEPPING (G. B.) : Histoire du commerce entre le Levant et l' Europe, 2 vols, Paris, 1830. —19

DE LA RONCIÈRE (ch.) : La découverte de l' Afrique au Moyen-Age, Cartographes et explorateurs, Le Caire, Sôciête Royaie de Géographie d'Egypte. 1925. —20

DE LE BROCQUIÈRE (B.) ; Voyage d'outre-mer, éd. ch. Schefer, Paris 1892. —21

DE LUCENA PAREDES (L.S.): Nuevas Rectificacionès a la hlstoria di Los Nasries, AL—ANDALUS, vol. XX, Fasc. 2, 1955. —22

DE SESSEVALLE : Histoire génerale de L'Ordre de Saint François, première partie. Le Moyen—Age (1209 — 1517), 2 vols, Paris 1935, 1937. —23

DURRIEU (P.) : procés-verbal du martyr de quatre frères en 1391, dans Archives d' Orient Latin, vol, I, Paris, 1881. —24

GAUDEFROY — DEMOMBYNES : Masàlik EL-Absar, vol. I (L'Afrique moins l'Egypte), Paris, 1927. —25

GOLUBOVICH (G): Serie chronologica del Reverendissimi Superiori di Terra—santa....., Gerusalemme, 1898. —26

: Biblioteca Bio — bibliografica della Terra—Santa e dell' Oriente francescano, 5 vols., Firenze; 1913 - 1927. —27

HEYD (W) ; Histoire du commerece dn Levent au Moyen—Age, trad. française, vol. II, 2e éd., Leipzig, 1923. —28

: Les consulats établis en Terrē—Sainte au Moyen—Age, dans Archives de L'Orieut Latin, II, Paris 1897. —29

JEAN GERMAIN : Le discöurs du voyage d'Outremer au très victorieux roi charles VII, prononcé èn 1452 par Jèan Germain evêque de chalon, dans Archives d'Orient Latin, T. III, Paris 1895. —30

Jewish Encyclopedia, vol. IV, VII. —31

JORGA (N.) ; Notes et extraits pour servir à l' histoire des crōisades au XVe siècle, 3 vols, Paris, 1899—1902. —32

: Philippe de Mézières et la croisade au XVe siècle, Paris 1895. —33

: Les aventures sarazennes des Français de Bourgogne au XVe siecle, in Mélanges d'histoire, Générale, I, 1927. —34

: Rhodes sous les Hospitaliers. Extrâit de la Revue Histörique, VIII, Paris — Bucarest, 1931. —35

KAMMERER (A.) — La Mer Rouge, L' Abyssinie et L'Arabie depuis l' antiquité jusqa' au XVe Siècle, 4 vols, Le Caire, 1929—1935. —35

KARMOLY: Itinéraires de la terre—Sainte dès XIIIe. XIVe, et XVe siècles, trad. de l'hébreu, Bruxelles, 1847. —37

KHITROWO (B.de) ; Itinéraires russes en Orient, traduits pour la société de L'Orient Latin. Génève, 1889. —38

LAFITAU: Histoire des découvertes et conquêts des Portugais dans le Nouveau Monde, Paris, 1733. —39

LENGHERAND (G.) ; Voyage de Georges Lengherand (1485--1436) éd, Marquis de Godefroy Menilglaise, Mons, 1861. —40

MAFFEI (J.P.) : Histoire des Indes, trad. française, Lyon, 1603. —41

MARIANO DI NANNI DA SIENNA : Del viaggio en Terra—Santa fatto et descritto en 1431, Firenze, 1822. —42

MARIE—LEON PATREM : La custodie franciscaine de Terre Sainte, Paris 1879. —43

MARINESCU (C.) : Les corsaires au service d' Alphonse V, roi d'Aragon et de Naples, dans Mélanges d'histoire génerale, Cluj, 1937. ---44

: Le Prêtre Jean. Son pays. Explication de son nom, dans Bulletin de l'Academie Romaine, X. —45

: L'île de Rhodes au XVe siècle, dans Studi E Testi, no 125. —47

; Alfonso V roi d' Aragon et de Naples et l'Albanie de Scander—beg, dans Mélanges de l'école romaine en France, T. 1, Paris. 1923. —47

: Contribution à l' histoire des rélations économiques entre l'empereur byantin, la Sicilè et le royaume de Naples de 1419-1453, dans Studi Bizantini E Nevellinici, V. —88

MARMARDJI (A S.) : Textes géographiques arabes sur la Palestine, Paris 1951. —49

MIGUEL LAFUENTE ALCANTRA: Historia de Granada,Granada, 1904. —50

NEWTON (A P.), editor : Travel and Travellers of the Middle — Ages, 3rd impression, London, 1949. —51

NICOLAU D'OLWER : L'expansio de Catalunya en la Mediterrania oriental, Barcelona, 1936. —52

: Un Témoin Catalan du siège de Rhodes en 1444, in Estudios Universiteris Catalans, Barcelona, 1927. —35

OATEN: European travellers in India during the 15th,16th,and 17th centuries, London, 1909. —54

PILOTI (E.(; L'Egyptè au Commencement du XVe siècle d'apres le Traité D'Emmanuel Piloti de Crète, éd, P.H.Do pp. Le Caire 1950. —55

PERLMANN (M.) : Notes on anti—christian propaganda in the Mamluk empire, in Bull. of the School of Oriental and African Studies, X, 1942. —56

Pero TAFUR ; Travels and adventures (1435—1439), translated and edited with an introductiou by Malcolm Letts, London 1946. —57

PERRUCHON ; Chroniques de Zar'a Ya'qob et de Ba'eda Maryam, rois d'Ethopie, Paris 1893. —58

POLIAK (A. N.) : Les revoltes populaires en Egypte à l'epoque mamlouke et leurs Causes économiques,dans REI,1934. —59

QUATREMÈRE (E.) : Mémoires géographiques sur l'Egypte et sur quelques contrées voisines, Paris, 1811. —60

RISANI : (N.) : Documenti E Firmani, Gerusalemme 1931. —61

RONCAGLIA (M.) : Saint—Francis of Assisi and the Middle East, 3rd edition. Cairo Franciscan Centre of Oriental Studies, Cairo 1957. —62

SALLES (G.) : L'institutfon des consulats, dans la RHD, 1895—1897. —63

THENAUD (J.) : Le voyage d'outre— mer (Egypte, Mont Sinaï, Palestine) de Jean Thenaud, suivi de la rélation de l'ambassade de Domenico Trevisan auprès du sudan d' Egypte (1512), éd. Schefer. Paris, 1884. —46

–65 VAN BERCHEM ; Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum. Deuxième partie. Syrie du Sud. Jérusalem, «Ville» T. I. Fasc., I, II; « Haram », T. II(dans Mém. de l' Inst. Fr, d' Ar. Or. du Caire, T. 43, 44.)

–66 VINCENT (H.) et ABEL(F.M.) : Jérusalem nouvelle. T. II, Fasc.III, Paris. 1922.

–67 Le voyage de la Saincte Cyté de Hierusalem en 1480, publié par ch. Schefer.

–68 WIET. (G.) : L'Egypte arabe. T. IV. de l'Histoire de la Nation Egyptienne, Paris 1937.

–69 : Les rélations égypto--abyssines sous les sultans mamlouks, Extrait du Bull, de la Societé d' Archéologie Copte, T. IV, 1938.

–70 : Uue Inscription du sultan Djakmak. Extrait du Bulletin de L'Institut d'Egypte, XXI, Le Caire, 1939.

–71 ; Deux princes ottomans à la Cour d' Egypte, dans BIE, T. XX, Le Caire 1938.

كشّاف

عما ورد من أسماء الأعلام والدول والوقائع والبلدان

— ا —

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ك)

(ن)

(هـ)

محتويات الكتاب

تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٩	٧	الاستبارية	الاسبتارية
١٣	١٧	والفرسسكان	الفرنسسكان
١٥	٧	الأوربيون	الأوروبيون
١٧	١	... مناه	العلوى منه
٢٤	١٧	نغمة	نقمة
٢٦	٤	المسلمين	المسلحين
٣٢	١٨	الحجج	الحجّاج
٣٣	١٣	أوربا	أوروبا
٣٥	٥	انتظامية	انتقامية
٣٦	١٠	٨/٣٢	/٨٣٢
٣٨	١٥	٨٠٦	٨٥٦
٥١	٨	والفرنسو	والفونسو
٥١	١١	يقض	يقضى
٥١	١٧	شبه جزيرة القدم	شبه جزيرة القرم
٥٩	١٣	والتوكل لى	والتوكل إلى
٦٣	١٦	الدى يخش	الذى يُخشى
٦٨	١٩	الفونسو الخاص	الفونسو الخامس
٦٩	٢	٣ يوليو ١٤٠٣	٣ يوليو ١٤٥٣
٧٧	١٥	الجانب العربى	الجانب الغربى
٩٦	١١	بالغرناطين	بالغرناطيين
١١٤	٩	معارضهم	معارضتهم
١١٤	١٦	وفى على ١٤٨٨	وفى عام ١٤٨٨
١٢٩	١٠	فردينان	فرديناند
١٦٥	١٦	الموى	المولوى
١٧٢	٧	وصحبه وسلام	وصحبه وسلّم